تاريخ مصر

الى الفتح العثماني

مع نبذ في أخبار الأمم التي ارتبطت بمصر الى ذلك العهد

تأليف

عمر الاسكندرى و الميجر ا. ج. سفدج

قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها الثانوية

(الطبعة الرابعة)

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

١٣٣٨ هـ — ١٩٢٠ م

تاريخ مصر
الى الفتح العثمانى

مع نبذ فى أخبار الأمم التى ارتبطت بمصر الى ذلك العهد

تأليف

عمر الاسكندرى و الميجر ا. ج. سڤدج

قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها الثانوية

(الطبعة الرابعة)

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

١٣٣٨ هـ — ١٩٢٠ م



داخل جامع المؤيد
(رسم لكجيان)

*

*

فهرست

كتاب تاريخ مصر الى الفتح العثمانى

الباب الأول
قدماء المصريين

الفصل الأول
مقدمة

المصريون الأوّلون من أقدم أمم الأرض . وكانت لهم حضارة عظيمة قبل الميلاد المسيحي بآلاف من السنين

ويَحْسُنُ بنا قبل الكلام عليهم أن نبيّن كيف وصلنا الى معرفة تاريخهم ، مع تطاوُل العصور بعد انقضاء أيامهم ، وتعاقُب الدهور على انقراض دُوَلهم

﴿ مصادر تاريخ قدماء المصريين ﴾

تاريخ قدماء المصريين كغيرهم من الأمم القديمة مستَمَدّ من مصدرين أصليين :

الأول (وهو أوثقهما) آثارُهم القديمة وما عليها من الكتابة والنقوش — (١) الآثار القديمة

والثانى ما وصل الينا مما كتبه الأقدمون فى تاريخهم

فمن الأول يتيسر لنا أن نعرف كثيراً من حظهم من الحضارة ومبلَغهم من العلم — كيفية استنباط التاريخ من الآثار القديمة

فمثلاً مبانيهم الهائلة وما عليها من النقوش البديعة ، تدلنا على مقدار نبوغهم فى فنَّى البناء والتصوير . وجثثُ موتاهم المحنطة الخالدة منذ أزمان سحيقة والأصباغ الثابتة الجميلة التى استعملوها فى تصاويرهم وتهاويلهم ، تدلنا على براعتهم فى علم الكيمياء

العملى . على أنهم لم يقصّروا فى تدوين بعض حوادثهم العظيمة ووقائعهم الجسيمة وقصصهم العجيبة وأدعيتهم الغريبة ، مع بيان عصورها وأسماء الملوك القابضين على أزمّة الملك فى إبّانها ، فتراهم كتبوا هذه الحقائق على مبانيهم وآثارهم ، وتراهم أعادوها بعينها على قطع الخزف وأوراق البَرْدىّ التى وصلت الينا من تلك الأيام الغابرة

(٢) ما كتبه القدماء

وأما ثانى المصدرين وهو ما كتبه قدماء المصريين أو معاصروهم فى تاريخ وادى النيل ، فنقول بكل أسف : انه لم يصل الينا منه الّا النزرُ اليسير ، وأكثرهُ يفتقر إلى إثبات ، بحيث لا يجمُل بنا الاعتمادُ على شىء منهُ ما لم يكن قد أيّدتهُ الاستكشافات العديدة ، أو استنبط صحتَه كبار المؤرخين والأثريين

« هيرودوت » المؤرخ الاغريق

وأقدم الكتابات التى وصلت الينا من تاريخ مصر هو ما كتبه المؤرخ الإغريقىّ « هيرُودُوتُ » فى سنة ٤٥٠ ق . م . ذلك بأنه حضر الى مصر ، وكتب تاريخًا لها باللغة الإغريقية ، فكان وصفهُ للبلاد غايةً فى بابه جديرًا بالثقة به ، غير أن ما كتبهُ فى التاريخ ذاته ، على ما به من الإمتاع والتشويق ، غيرُ موثوقٍ به ، إذ كان أكثرهُ مستمدًّا من الأقاصيص الشائعة على ألسنة العامة فى ذلك العصر

كتاب « مانيتون »

وبعد ذلك بنحو مائتى سنة قام كاهن وطنى يدعى « مانيتون » بتأليف كتاب فى تاريخ مصر كَتَبَهُ باللغة الاغريقية . وكان ذلك فى عصر « بطليموس فيلادلف » حوالَىْ سنة ٢٦٣ ق . م

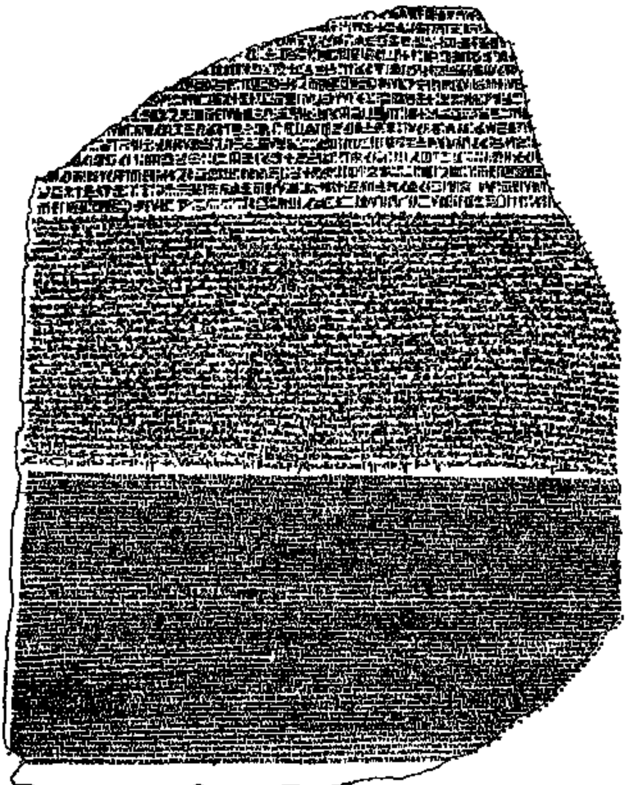
ومما يؤسف له أيضًا أن مُعظَمَ هذا الكتاب قد ضاع ، ولم يصل إلينا منهُ إلاّ ما عُنِى بنقله وحفظه مؤرّخو العصور الأولى بعد الميلاد . ولا يَعتمِد المؤرخون على ما جاء بهذا الكتاب إلاّ فى الوقائع التى أثبتوها من المصادر الأخرى . فأهمّ ما انتفعوا به منهُ حصْرهُ لملوك مصر . وكان يُشكّ فى ذلك أيضًا ، لولا أن الاستكشافات الحديثة أثبتتْ صحتَه . وعند كلامه على ذلك بدأ بالملك « مينا » ، وقسم الملوك الذين من بعده الى ٣١ أُسرة حكمت مدة ٣٥٥٥ سنة

ثم كتب فى تاريخ مصر فى أوائل ظهور المسيحية « دِيودُور » و « إسْتِرَابُون »

الإغريقيان ، ولكنّ كلامهما أيضًا جاء محتاجًا الى برهان

أهمية فك الحروف الهيروغليفية

ولو لم يعرف الناس بعدُ قراءةَ النقوش والرسوم التى على تلك الآثار، لبقيت أبَدَ الدهر قليلة الْجَدْوَى فى إرشاد المؤرخين الى الحقيقة. فقد كانت الكتابةُ الهيروغليفية قد نُسيت أيَّما نسيان ، ولم يكن فى العالم أجمع مَنْ يستطيع فكَّ طلاسمها وحلَّ



حجر رشيد

رموزها ، الى أن جاء « نابلْيُون بُونابَرْت» الى مصر فى غارته المشهورة ، فعثر أحدُ ضباطه سنة ١٧٩٩ م على الحجر المشهور المسمى بحجر رشيد

حجر رشيد ويوجد هذا الحجر الآن بين نفائس دار التحف والعاديات بمدينة لَنْدَن . ويحتوى على عبارة مكتوبة بثلاث لغات : أولاها بالهيروغليفية ، وتحتهما ترجمتها بالديموتيقية (وهى اللغة المصرية القديمة الدارجة) ، وتحتها ترجمتها باللغة الإغريقية . فتمكَّن الباحثون من مقارنة أسماء الأعلام الواقعة فى العبارتين الهيروغليفية والديموتيقية بنظائرها فى الترجمة الإغريقية . ومن ذلك الحين ابتدأ المؤرخون والأثريون فى أورُبا يشتغلون بحلّ رموز الكتابة المصرية القديمة . واستعانوا على ذلك بالآثار الأخرى . وأول من خطا الخطوة الأولى فى ذلك هو « تُومَس يَنْج » الانجليزى (١٧٧٣ - ١٨٢٩م) ، ولكن الذى يُنسب اليه التغلُّبُ النهائى على هذه الصعوبة هو « فرَنْسُوَا شَمْبلْيُون » الفرنسى (١٧٩٠ – ١٨٣٢ م) . ومن ذلك الوقت الى الآن ازدادت معرفة العالم بتاريخ مصر القديم ولاسيما فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة

﴿ تمهيـــــد ﴾

ملخص تاريخ مصر القديم كانت مصر فى أول عهدها تشمل عدةَ ممالك صغيرة تكوّنت منها بعدُ مملكتان عظيمتان : الأولى فى الوجه القبلى ، والثانية فى الوجه البحرى . ثم ظهر من الوجه القبلى رجل يُدْعَى « مينا » ، ضمّ القطرين بعضَهما الى بعض ، وجعلهما مملكة واحدة تحت سلطانه سنة ٣٤٠٠ ق . م .* وهذا هو ابتداء العصر التاريخى لمصر

* تواريخ العصور الاولى من تاريخ مصر القديم ليست معروفة يقيناً ، بل يقدّرها المؤرخون بمقتضى فروض لهم . وقد قدّر كل منهم لسنة تولى «مينا» مثلاً تاريخاً يختلف عما قدّره الآخر . والذى اتبعناه فى هذا الكتاب هو رأى الاستاذ «برِستَد» معلم التاريخ المصرى القديم وتاريخ المشرق بجامعة شيكاغو . وهاك آراء بعض مشاهير المؤرخين الاخرين عن سنة تولى «مينا» : بترى ٥٥٠٠ ق.م — مَرِيْت ٥٤٠٠ ق . م — برُوكش ٤٤٥٥ ق . م — ارْمَن ٣٣٠٠ ق . م . على أن المؤرخين يكادون يتفقون على تواريخ العصور التى تبتدئ من الدولة الوسطى

الذى تكاد أكثرُ أخباره تكون معروفة مستيقنة ، وافتتاح العصور التى تكلم عليها « مانيتون » فى تاريخه

وقد نهج المؤرخون منهج « مانيتون » فقسموا الملوك المصريين الذين أولهم « مينا » الى ٣٠ أسرة ، وتلك الأسرات الى ثلاث طبقات ، تُعرف بالدولة القديمة والدولة الوسطى ، والدولة الحديثة

وبعد اضمحلال الدولة الحديثة غزا الفرسُ مصر ، ولبثوا فيها حتى دخلها عليهم الاسكندر المقدونى . وبعد وفاة ذلك الفاتح العظيم الذى لم يكن له وارث لملكه ، اقتسم قوّادُهُ أملاكه ، فكانت مصر نصيب أحدهم المدعوّ « بَطْلَيْموس الأول » ، وهو مؤسس دولة البطالسة التى حكمت مصر مدة انتهت باستيلاء الرومان عليها سنة ٣٠ ق . م

الفصل الثانى

مصر قبل الاسرات الملكية

وجود حضارة بمصر قبل الميلاد بنحو ٨٠٠٠ سنة

تدل الآثار المصرية ، ولا سيما التى كُشفت حديثًا ، على أن الجنس الإنسانى قطن مصر منذ أزمان متوغِّلة فى القِدَم . وقد عثر الباحثون عن آلات من الظِرّان* دقيقة الصنع وعلى آنية فخارية مزخرفة وغير مزخرفة وعلى غير ذلك من الآثار القديمة جداً ، مما يدل على وجود حضارة بمصر قبل الميلاد بنحو ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ سنة . وأرجح الاراء الحديثة أن مؤسسى تلك الحضارة قوم لوبيُّو الأصل ، غير أن حضارتهم ليست هى أساس مدنية المصريين الذين تكوّنت منهم الأسرات المختلفة التى سنتكلم عليها ، والذين وصلوا بمصر الى أعظم درجات الرقى ، بل كانت لهم حضارة قديمة مستقلة بذاتها

* ظُرّان وظِرّان جمع ظِر وظُرَر . وهو الحجر الصلب الرقيق الذى حده كحد السكين وقد استعمله الانسان قديما للقتال

ف أن حضارة الاسرات الملكية أصلها من آسيا

أما الحضارة التى ابتدأ ظهورها بابتداء الأسرات الملكية فيُعزى أصلها الى القوم الفاتحين أجداد « مينا » ذلك الملك الشهير . وقد ثبت أن أصل هؤلاء الفاتحين قوم ساميّو الجنس قدموا الى مصر من آسيا . ولا يُعلم بعدُ علمَ اليقين من أين دخلوا البلاد ؛ فمن قائل إنهم جاءوا من برزخ السويس (وهو الأرجح) ، ومن قائل انهم عبروا البحر الأحمر ، ووفدوا على مصر من جهة بلاد الحبشة . وعلى كل حال نعلم يقيناً أن القوم الذين نشأ من بينهم « مينا » كانوا قبل ظهوره يقطنون الجهة الجنوبية من مصر . ومما يدل على أن الفاتحين أجداد « مينا » من الأجناس السامية أن أقدم ما وصل الينا من لغتهم مُشاهَد فيه العنصر الإفريقى والسامى ، وأن الأخير غالب على الأول

الحضارة فى مصر قبل الاسرات الملكية

دخل هؤلاء الفاتحون ومعهم حضارة أرقى من التى كانت بمصر فى ذلك الوقت : فهم الذين جاءوا بفن التحنيط وبالكتابة الهيروغليفية . ومنذ دخولهم درجت مصر فى طريق الرقى شيئًا فشيئًا ، اذ كان لحضارتهم تأثير فى السكان الأصليين ، ونشأت من اتحاد العنصرين فى ذلك العصر (أى الذى قبل زمن الأسرات) حضارة لا بأس بها . فكانوا يصنعون آنية جميلة من الفخار ، ثم صنعوها من الأحجار ، فأجادوا فيها كل الإجادة . وفى ذلك العصر ابتدأ فن عمل التماثيل يظهر بينهم ؛ فصنعوا تماثيل من الخشب والعاج والحجر متلائمة الصنع ، واتخذوا من الظران فؤوسًا وحرابًا وغيرها من الآلات ، ثم تقدموا فصنعوا أمثالها من النُّحاس . وفى الجملة كان هذا العصر دور انتقال من العصر الحجرى الى عصر المعادن . أما أهم ما اشتغلوا به فى ذلك الوقت فكان الزراعة ، التى افتهم اليها خِصْب وادى النيل . وكان بالبلاد اذ ذاك كثير من الغابات تأوى اليها الفيلة والزُّرافىّ وأفراس الماء وغيرها ، وكان من المصريين عدد وافر يشتغل بصيدها وصيد سباع الصحراء التى هى أشد منها بأسًا كالأسد والثور البرى ، يرمونها بالسهام والنُّشّاب . أما التماسيح وأفراس الماء ، فكانت تُرمَى من القوارب بالحراب والخطّافات . وكان صيد هذه السباع يُعدّ من المآثر العظيمة التى يخلّدونها بالنقش على الصخور

انقسام مصر فى الازمنة الغابرة الى اقسام عديدة

وكانوا يشتغلون فى ذلك العصر أيضاً بقليل من التجارة ، واتخذوا لهم سفناً شراعية عليها أعلام مختلفة ، يقول المؤرخون انها رموز للممالك الصغيرة التى كانت تحتوى عليها مصر اذ ذاك ، والتى انتهى أمرها بانضمام بعضها الى بعض وتكوين مملكتين عظيمتين منها : احداهما فى الشمال ، هى مصر السفلى ، والأخرى فى الجنوب ، هى مصر العليا . وتمّ ذلك الاتحاد فى عصر بعيد (أى قبل سنة ٤٠٠٠ ق . م) ؛ ولا نعرف شيئاً عن الرجال الذين سعوا فيه ، أو الحروب التى نشبت من أجله ؛ بل لا نعرف شيئاً كثيراً عن المملكتين اللتين نشأتا من هذا الاتحاد لبعد عهدهما

مملكتا الشمال والجنوب ورمز كل منهما

ومما نعرفه عنهما أن كلتيهما كانت لها صفات وشارات تميزها عن الأخرى : فمن ذلك ان أهل الشمال كانوا يتخذون رمزاً لهم حُزْمة من نبات البَرْدى النابت بكثرة فى مناقع الوجه البحرى . وكان ملكهم يتخذ النحلة رمزاً له ويلبس تاجاً أحمر ذا شكل خاص . أما أهل الجنوب فكان رمزهم الزَّنْبَق ، ورمز ملكهم نبات من نبات الجنوب ، وشارته تاج طويل أبيض

ولما كانت مصر السفلى عرضة للوبيين القاطنين فى غربيّها كان يرد عليها العدد العظيم منهم فيقيمون بها ، حتى أخذ الجزء الغربى منها صبغة لوبية بقيتْ ظاهرة فيه زمناً طويلاً ، على حين ان مصر العليا كانت مصطبغة بالصبغة المصرية البحتة

ومما يؤسف له أن مصر السفلى طالما غمرها النيل بفيضانه المتكرر على مَرّ الدهور فاندثرت آثار تلك المملكة الشمالية ، مع أن الظاهر أنها أقدم فى الحضارة من أختها الجنوبية

أما عاصمة هذه المملكة الشمالية فكانت مدينة « بوتو »[1] يقابلها مدينة « نِخَب »[2] عاصمة المملكة الجنوبية

ولم يصلنا شىء يذكر من أخبار ملوك ذلك العصر ، ولم نعثر بعدُ على قبورهم ، بل

(١) فى شمالى الدلتا

(٢) مقرها قرية « الكاب » الحالية الواقعة بين اسنا وادفو

لم نقف الأ على أسماء نفر منهم منقوشة على الحجر المعروف بحجر « بَلَرْم »[1]

وكان الذين خلفوا هؤلاء الملوك يلقبونهم « بنصف آلهة » ، ثم قيل عنهم فيما بعد إنهم آلهة حكموا مصر قبل أن يحكمها الإنسان

الفصل الثالث

تأسيس الاسرات الملكية

واتحاد الشمال والجنوب

اتحاد الشمال والجنوب

بقيَ كل من إقليمى الشمال والجنوب (مصر السفلى والعليا) مستقلاً بذاته الى أن تولى حكم مصر العليا رجل عظيم يدعى « مينا » جمع بين المهارة الحربية والمقدرة السياسية ، فقبض على جميع أزِمّة الاقليم الجنوبى ، ثم تمكن بذلك من غزو مصر السفلى وضمها الى ملكه ، فكوّن من الاثنتين مملكة مصرية عظيمة كان هو أول الفراعنة الذين جلسوا على عرشها . ولما كان منشؤه فى مدينة « طِينَة »[2] لم يرَ أن موقعها بحيث يسهل جعلها مركزاً لإدارة مملكته الواسعة الجديدة . فحوّل مجرى النيل من الجبل الغربى الى مجراه الحالى[3] ، وبنى عاصمته « مَنْف » (منفيس)[4] فى الفضاء الذى تخلف من ذلك ، ثم سنّ القوانين ونظم البلاد . ومن أعماله أيضاً أنهُ ردّ أهل النوبة الى الجنوب بعد أن كانت بلادهم الشمالية واصلة الى مقاطعة ادفو

مينا

---

(١) « حجر بَلَرْم » وُجد ضمن الآثار المصرية ، نُقش فى أيام الاسرة الخامسة ومكتوب عليه أسماء ملوك مصر الاوائل ، وبه أسماء ١٣ ملكاً حكموا مصر من عهد الاسرة الاولى الى عهد الخامسة مع بيان مدة كل منهم . وبه أيضا بيان ارتفاع النيل فى كل سنة منها . وهذا الحجر الآن بمدينة « بلرم »

(٢) موقعها الآن « العرابة المدفونة » بالقرب من جرجا

(٣) بعض المؤرخين ينكر هذه الرواية

(٤) موقعها الآن البدرشين ومنية رهينة

ومات بعد أن حكم طويلاً ، ودُفن بالقرب من « طينة » مسقط رأسه

فخلفه ابنه « تيتى » ، وكان مولعاً بالعلوم ، فألف كتاباً فى الطب به عدَّة أوصاف لعلاج أنواع شتى من المرض خصوصاً داء البرص . وله كتابان فى الفلك وغير ذلك من العلوم

وبقى الإقليمان من بعده يحكمهما ملك واحد . وكانت كل شارات الملك ورموزه تدل على أنهُ حاكم المصرَين ، فكان يسبق اسمه فى جميع الكتابات الرسمية بصورة النحلة رمز الشمال مشفوعة بنبات الجنوب . وكان تارة يلبس تاج الوجه القبلى الأبيض ، وأخرى يلبس تاج الوجه البحرى الأحمر ، وطوراً يلبس تاجاً جمع بين الشكلين ، هكذا :



(تاج الوجه القبلى الابيض) (تاج الوجه البحرى الاحمر) تاج الوجهين

انفصال الاقليمين فى الادارة الداخلية

فكان ظهوره بهذه الهيئة فى أيام الزينة ، كفتح الترع ومواكب النصر وما شاكل ذلك من الحفلات الرسمية ، عنواناً على انه ملك الوجهين البحرى والقبلى ، غير أن هذه الرموز الرسمية كانت فى الحقيقة دليلاً على أن كلاً من الاقليمين شاعر بوجوده بذاته ، وأنه لم يندمج ويتلاش فى الآخر ، وفى الحقيقة كان الاقليمان منفصلاً أحدهما عن الآخر فى الإدارة الداخلية

وكان أصعب عمل أمام ملوك الأسرتين الأولى والثانية هو ارضاء اقليم الشمال وجعله يندمج تماماً فى اقليم الجنوب . وكثيراً ما شق أهل الشمال عصا الطاعة فنشبت بسبب ذلك حروب أُريقت فيها الدماء . وما زلنا نرى تذكار الانتصارات عليهم منقوشاً على جدران معبد « هوروس » بجهة « هيراقُنْبُوليس » *

* بالقرب من الكاب

ولا شك أن هذه الحروب أثرت فى حالة مصر السفلى ، ولكنها لم تمنع مجموع المملكة من التقدم ، بدليل ان حفر الترع وما شاكله من المنافع العامة كان آخذاً فى الازدياد ، وكذلك أخذت طوالع النبوغ تظهر فى فن الهندسة ، وارتقى نظام الحكومة وكثر بناء القصور ، وعظم تشييد المقابر والنواويس ، وابتدأت أيضاً التجارة بين مصر وما جاورها من البلاد مثل شبه جزيرة بلاد العرب . ويغلب على الظن أن المصريين ابتدءوا منذ ذلك العهد البعيد يتّجرون مع سكان جزائر « بحر إيجه » ، بدليل أنه قد وُجدت فى قبور ملوكهم أوانٍ من الفخّار شبيهة جداً بأوانى سكان تلك الجزائر

الفصل الرابع

عصر بناة الاهرام

(٢٨٩٠ – ٢٤٧٥ ق . م)

الأسرة الثالثة	٢٩٨٠ – ٢٩٠٠	الأسرة الخامسة	٢٧٥٠ – ٢٦٢٥
« الرابعة	٢٩٠٠ – ٢٧٥٠	« السادسة	٢٦٢٥ – ٢٤٧٥

مقدمة يطلق هذا الاسم على العصر الممتد من منشأ الأسرة الثالثة الى منتهى الأسرة السادسة ، وذلك لانتشار بناء الأهرام فيه انتشاراً كبيراً أدى الى تلقيبه « بعصر بناة الأهرام » ، وإن كان تشييد الأهرام لم يبطل بتة إلاّ فى أواخر أيام الدولة الوسطى . وهذا العصر يمثّل طوراً هاماً من الأطوار التى تقلبت فيها مصر . ويلخص وصفه فيما يأتى :

كان ملوك الأسرتين الأولى والثانية على جانب عظيم من القوّة وشدة البأس ، فكانت جميع السلطة فى قبضة الملك لا ينازعهُ فيها منازع . وقد يهب جانباً كبيراً

منها لحكام الأقاليم مختاراً ، ولكنهُ يستأثر بالسيطرة العليا فيعزلهم من مناصبهم اذا هم أساءوا استعمالها أو حادوا عن الخضوع لسلطانه . استمرّت هذه الحالة فى أيام الأسرة الثالثة ، حتى وصلت قوّة الملك فيها الى منزلة لم يسبق لها مثيل ، يدل على ذلك الآثار الهائلة التى أقيمت فى أيام هذه الأسرة وما بعدها . اذ لم يكن يتسنى تشييدها الاّ فى عهد ملك قوى قبض على كل السلطة فى أنحاء البلاد ، حتى تمكن من إنفاق تلك القناطير المقنطرة من الثروة فى بناء هرم هائل لا داعى لإقامته سوى رغبته الخاصة . ويظهر أن قوّة الملك بلغت أقصاها فى أوائل أيام الأسرة الرابعة ، أى فى الوقت الذى شَيَّد فيهِ « خوفو » هرم الجيزة الأكبر

ومن بعد عهده أخذت السلطة تتسرب من يد الملك . ويرجع ذلك الى أمرين : الأول أن حكام الأقاليم استبدّوا بجانب كبير من القوة ، والثانى أن كهنة عين شمس (مقر عبادة « رَع ») أخذوا يَتَدَخَّلون فى الأمور السياسية حتى صار لهم فيها نفوذ كبير ، فأضعف ذلك قوّة الملك من جهة ، وزاد فى شوكة حكام الأقاليم من جهة أخرى . وما زال نفوذ الكهنة يزداد شيئًا فشيئًا حتى قضوا على الأسرة الرابعة ، وأسسوا الأسرة الخامسة . وانتهز حكام الأقاليم هذه الفرصة فجعلوا مناصبهم وراثية ، وان لم يحيدوا عن الولاء لمليكهم . واستمرت البلاد آخذة فى أسباب التقدم ، فزاد فرعون من نفوذ مصر فى بلاد النوبة ، وأرسل البعثات التجارية الى بلاد «بُنْت *» و « سينا » و « فينيقية » و « بحر إيجه » . ومع كل هذا أفضت مزاحمة الأمراء والولاة المِلك الى ارتباك عظيم فى سياسة البلاد وانتشار الفوضى فيها ، وعند وفاة آخر ملوك الأسرة السادسة رجعت مصر الى تلك الفوضى التى أنقذها منها مينا قبل ذلك بنحو ١٠٠٠ سنة

بناء القبور والاهرام

ولكى نفهم الغرض من بناء الأهرام والمقابر عند قدماء المصريين يجب علينا أن نعرف شيئًا من معتقداتهم فيما يختص بالحياة بعد الموت . كان المصريون يعتقدون

* موقعها الان بلاد الصومال وشواطئ خليج عدن

أن من عاش عيشة طاهرة فى هذه الحياة الدنيا يعيش بعد الموت عيشة رغداً فى أرض أخرى يتخيلون موقعها بالإجمال فى الجهة الغربية . وكانوا يعتقدون أيضاً أن الإنسان مكوّن من جزأين : الجسم والروح (المسمى عندهم « كا ») . ولكى يبقى الروح متمتعاً بالحياة يجب أن يكون الجسم بعد الموت باقياً على صورته ، ولذلك عملوا على تحنيط الموتى وبناء المقابر الحصينة كى يُحفظ الجسم بها من يد العابثين واللصوص . وكانوا يضعون فى القبور الطعام والشراب ليتناول الروح منهما ما ينتعش به . وكثيراً ما كانوا ينقشون على جدران المقبرة المناظر التى كان يعيش بينها الميت والخيرات التى كان يتمتع بها ، مثل صورة منزله وحدائقه ومزارعه وخَدَمهِ على اختلاف أنواعهم ، كلٌّ يشتغل بعمله ، ومثل أشكال الرياضة التى كان يروض نفسه بها وغير ذلك ، زعماً منهم أن الروح يستأنس بهذه الصور ، فتذهب عنهُ الوحشة

وكانت حالة القبور فى الأسرتين الأولى والثانية تقرب الى الغضاضة وقلة التأنق ، فان الجثة كانت توضع فى حجرة تحت الأرض توصل اليها زلّاقة منحدرة . وكنت بالمقبرة حجرتان أخريان فوق الأرض : إحداهما توضع فيها العطايا المقدمة للروح ، والأخرى توضع فيها تماثيل الميت (وتسمى الآن عند علماء الآثار سرداباً) . وكان يُصنع فى الجدار الغربى من كل مقبرة فجوةٌ غائرة فى الحائط تحاكى الباب ، ترد الروح منها على زعمهم لتتناول ما تريد من العطايا . وكانت القبور فى أول الأمر تُبنى من اللبِن المجفف فى الشمس وتشيَّد على شكل هرم ناقص أضلاعه قليلة الميل . ولوجود شىء من الشبه بين هذا الشكل وبين المصاطب التى بمداخل منازل القرى فى الوقت الحاضر أصبحت كل مقبرة من هذا النوع تسمى « مِصطبة » . ثم ارتقت المقابر شيئاً فشيئاً ، فصار يُبنى فوق المِصطبة مِصطبة أصغر منها وقد يبنى فوق هذه أخرى أصغر منها وهكذا ، فينشأ من ذلك ما يسمى « بالهرم المدرَّج » . وأول من شيد هرماً بهذه الصفة هو « زُوسَر » مؤسس الأسرة الثالثة ، فانه شيد « هرم سقّارة المدرَّج » حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م من خمس مصاطب إحداها فوق الأخرى ، فكان هرمه

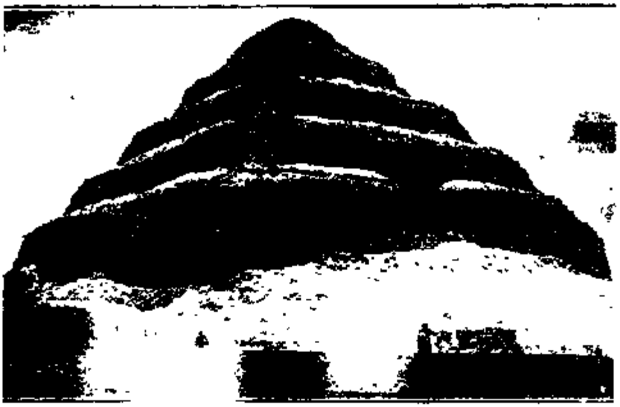
هذا أقدمَ بناء كبير من الحجر عُرف فى التاريخ . وقد اتبع هذه الخطة العامــة بناة الاهرام من بعده ، غير أنهم زادوا فى اهرامهم ما جعلوا به أضلاعها مستوية . وفى المقابر الهرمية كانت توضع الجثة فى حجرة خفية داخل الهرم أو تحته، وبذلك كان الهرم والحجرة التى به بمثابة الحجرة التى كانت توضع فيها الجثة فى العصور الأولى . أما العطايا التى تقدم للروح فكان يبنى لها معبد ملاصق للهرم من الجهة الشرقية يسكنهُ كهنة قوّمَة بشؤون هذه العطايا. ولا تزال آثار هذه المعابد ظاهرة بالجيزة وبوصير

***

الاسرة الثالثة

وصلت « منف » (منفيس) فى أواخر أيام الأسرة الثانية الى درجة من الرقى كادت تُخفي على عظمة « طينة » التى ينسب اليها ملوك الأسرتين الأولى والثانية . ولما انتهت الأسرة الثانية أسس«زُوسر » الأسرة الثالثة، فكانت أيامهُ المبدأ الحقيقى لعظمة منف ، وفى عهده استمر استخراج معدن النحاس من شبه جزيرة سيناء وأُخضعت قبائل بلاد النوبة الشمالية المجاورة للجنادل الاولى . وقد ساعد « زُوسر » على نجاحه العظيم وزيرُه المدعو « إمْحُتِبْ » الذى كان على جانب عظيم من الحكمة

زوسر



« هرم سقارة المدرّج »

وطول الباع فى فلسفة الدين والسحر والحِكَم والأمثال والطب وفن البناء

و « زُوسر » هو أول من شيد من الحجر مبانى عظيمة كثيرة العدد وأول من حسن صناعة القبور ، فبنى بجهة « بنى خلاف » بالقرب من « أبيدوس » مصطبة عظيمة من الطوب ، ثم شيد فى الصحراء بالقرب من منف تربة من الحجر أعظم من هذه ، بل أعظم من أى تربة بنيت قبلها : وهى الهرم المدرّج المذكور آنفاً المعروف بهرم سقّارة المدرج

وبعد أن توفى « زوسر » بقيت البلاد آخذة فى أسباب التقدم الى أن تولى الملك « اسنِفْرُو » آخر ملوك الأسرة الثالثة ، وكان بصيراً ساهراً على ما فيه الصالح لبلاده ، فشيد الطرق التجارية وبنى السفن العظيمة . ومن أعماله أنهُ فتح باب المتاجرة مع الممالك الشمالية وأرسل أسطولاً مكوّناً من أربعين سفينة الى الشاطئ الفينيقى لإحضار خشب الأرز من جبال لبنان ، فكان ذلك أول بعثة بحرية أُرسلت داخل البحار . ومن أعماله أيضاً أنهُ نظّم حدود القطر الشرقية وحصّنها ، وقاد حملة حربية على بلاد النوبة الشمالية فعاد ومعهُ الألوف من الاسرى والماشية

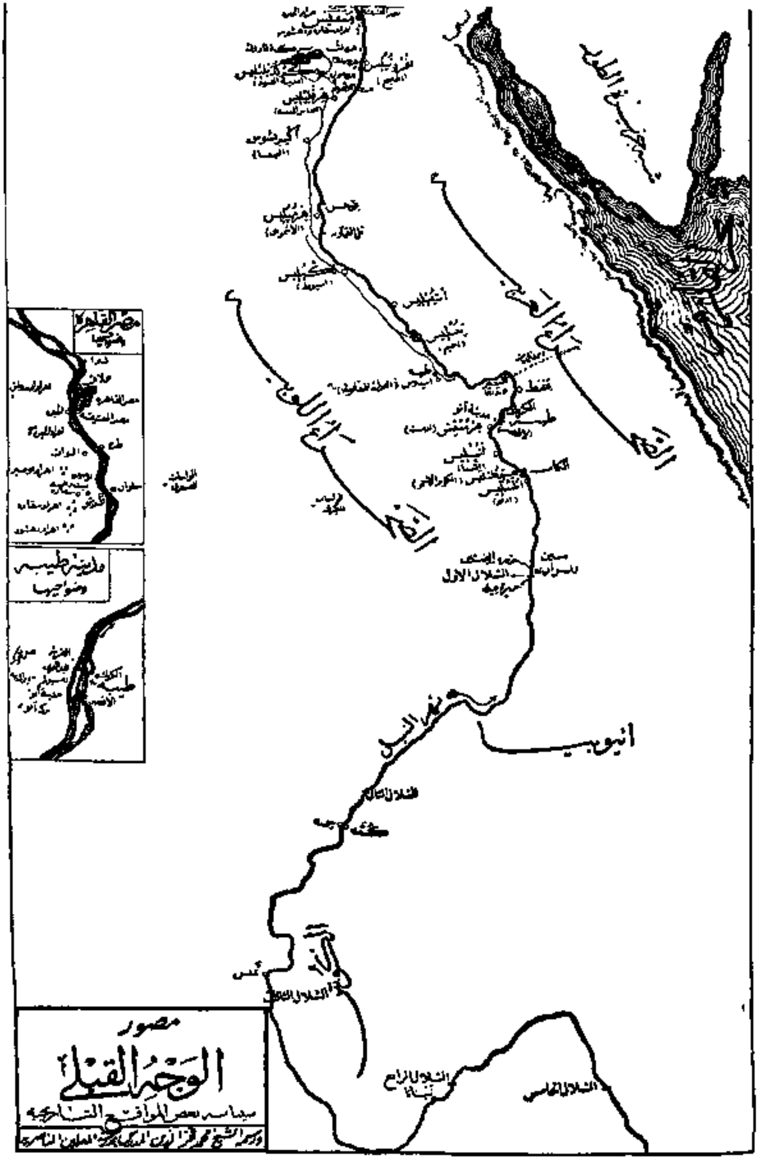
اسنفرو

وقد شيد تربتين احداهما بجهة « مَيْدُوم » على شكل هرم مدرّج والأخرى بجهة « دَهشُور » على شكل هرم كامل ، وكلا الهرمين بين منف والفيوم

وكانت مصر فى أيام « اسنفرو » قد وصلت الى درجة كبيرة من الرقى مهدت لها طريق السير الى تلك العظمة الهائلة التى بلغتها فى أيام الأسرة الرابعة وما بعدها ، واقوّت فى أيامهِ طائفة الأشراف الموظفين فى حكومة الملك . وجعلوا يبنون لأنفسهم المصاطب العظيمة من الحجر المنحوت ، ويختارون مواضعها حول قبر مليكهم الذى يخدمونهُ

خوفو مؤسس الأسرة الرابعة

وبعد وفاة « اسنفرو » انتهت أيام الاسرة الثالثة ، وتولى الملك « خوفو » مؤسس الأسرة الرابعة التى يُعَدُّ عصرها أزهى عصور الدولة القديمة . وقد ذهب بعض المؤرخين الى أنهُ أزهى عصور الحضارة المصرية باجمعها . ولا غرو فإن دقة البناء



مصور
الوجه القبلي
مبينا به بعض المواقع التاريخية
نهر النيل
انيوبيا
الشلال الأول
الشلال الثالث
الشلال الرابع
الشلال الخامس
مدينة طيبة
وضواحيها

وفخامته وجمال التماثيل وروعتها فى تلك الأيام لتكفى لإثبات ما كان المصريون عليه من الحضارة العظيمة فى عصر هذه الدولة

هرم الجيزة الاكبر

ومؤسس الأسرة الرابعة هو الملك « خوفو » وكان يسميه اليونان (كِيُبْس) . وقد عَرَف هذا الملك كيف يخلّد اسمه فى التاريخ ، فشيد هرم الجيزة الأكبر الذى لم يرَ العالَم بناءً أكبر منهُ . ولا نريد التعرُّض لموضوع فائدة ذلك الهرم أو غيره ، وانما نؤكد أنهُ من أجله صار اسم « خوفو » أظهر اسم بين أسماء الملوك الذين حكموا فى الشرق الى وقتنا هذا . وان ضخامة هذا البناء الهائل جعلتهُ احدى عجائب الدنيا ، فقد قرّر المؤرخون والمهندسون ان بناءه يشمل نحو ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ حجر ، متوسط وزن الحجر منها طنان ونصف . وقد قال « هيرودوت » المؤرخ اليونانى : انهُ كان يشتغل فى بناء الهرم مائة ألف رجل[1] يُستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة أشهر وان بناءه استغرق عشرين عامًا . وقد أثبت أعاظم المؤرخين المُحْدَثين أن ذلك تقدير معتدل . وليست غرابة الهرم فى حجمه فقط ، بل من حيث دقة صناعته ، كانتخاب الأحجار وجودة نحتها وضبط زواياها وحسن رصفها ورقة الملاَط الذى بينها ، مما أدهش أعاظم مهندسى الوقت الحاضر

أما ارتفاع الهرم فكان وقت تشييده ١٤٥ مترًا ، ثم تناقص بتهدم قمته فى السنين الطوال حتى صار ١٣٧ مترًا . وأمّا قاعدتهُ فربعة الشكل وطول كل ضلع من أضلاعها يبلغ الآن ٢٣٣ مترًا[2] ومسطحها يبلغ ١٢ فدانًا تقريبًا

وكان القصد من بناء الاهرام ايجاد مكان حصين خفىّ يوضع فيه تابوت الملك بعد مماته ، ولذلك شيدوا الهرم وجعلوا فيه أسرابًا خفية زَلِقة صعبة الولوج لضيقها وانخفاض سقفها وامّلاسها ، حتى لا يتسنى لأحد الوصول الى المخدع الذى به التابوت . ومن أجل ذلك أيضًا سُد مدخل الهرم بحجر هائل متحرك لا يعرف سر تحريكه الَّا الكهنة والحرس ، ووُضعت أمثال هذه الأحجار على مسافات متتابعة فى الأسراب

(١) قيل ان معظمهم كان من الاسرى (٢) ألف شبر



اهرام الجيزة (منظر عام)

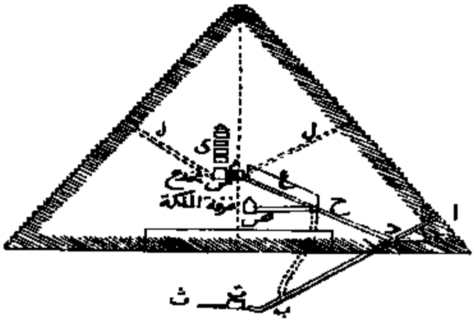
(رسم على افندى يوسف)



ابو الهول

(رسم لكيان)

المذكورة ، وبهذه الطريقة بقي المدخل ومنافذ تلك الأسراب مجهولة أجيالاً من الزمان



(بيان الهرم الأكبر من الداخل)

أ : المدخل – ادب : زلاقة الى أسفل ، منها اد مفرغ فى بناء الهرم والباقى مفرغ فى الصخر – ت : حجرة تحت الارض – ث سرب افقى – د ح س زلاقة صاعدة – ع ايوان مرتفع على يمين الزلاقة – س : دكة – م : ممر من الدكة الى مخدع الملك – ح ص : سرب افقى موصل الى الحجرة المعروفة الان بغرفة الملكة – ل ، ل : ممران لدخول الهواء – ى خمس غرف صغيرة أفرغت فى البناء فوق مخدع الملك لتخفيف الثقل عن سقفه – ح ب : بئر

وجميع هذا الهرم مشيد من الحجر الجيرى الصلب ، ما عدا المخدع الأكبر فانه من الصخر المحبّب (الجرانيت) . وكان يحيط بقاعدة الهرم طوّار (رصيف) عرضه يقرب من الثلاثة الأمتار ، وكان الهرم مغطى بطبقة من الصخر المحبب فوقها أخرى من الحجر الجيرى المصقول . ووُضع الملاط بين الأحجار فى غاية الدقة حتى كان الناظر إلى الهرم يكاد يظنه صخرة واحدة . ثم انكشف هذا الغطاء بعد أن كان ساتراً لمدخل الهرم وهو عند المدماك الثامن عشر فى الجانب الشمالى

ومما يلاحظ فيه أن جوانبه مواجهة للجهات الأربع الأصلية بالضبط ، وقد ذهب بعضهم إلى أنه كان لذلك أهمية فلكية فى ذلك العصر

ومع اننا لم يصلنا شيء كثير من أخبار « خوفو » وملكه الزاهر فوق بنائه لهذا الهرم العظيم ، يسهل علينا أن ندرك مقدار نظام الحكومة ورخاء البلاد فى أيامه

بالتأمل فى الكيفية التى تم بها بناء الهرم ، إذ أنه ليس من السهل اطعام مائة ألف عامل وايواؤهم وكلهم عالة على الأمة لا يفيدون ثروة نافعة ، كما أنه من الصعب تنظيم تلك الحركة الهائلة عند مقاطع الأحجار بحيث لا ينشأ عنها عطلة فى البناء

خفرع والهرم الذى شيده

وبعد أن توفى خوفو خلفه «خَفْرَع»* فشيد هرم الجيزة الثانى ، وهو أصغر قليلاً من هرم خوفو وأقل جودة فى صناعته . ومما يجدر ذكره هنا انه كان لهذا الهرم كما كان للهرم الأكبر معبد ملتصق بجانبه الشرقى، وكان يوصل لذلك المعبد طريق مرتفع،



(تمثال خفرع)

بدار الآثار المصرية   رسم ف . د بيرِيز

* معنى « خفرع » (المقتبس من نور رَعْ) . ولعل هذا دليل على ابتداء ظهور القوة فى يد كهنة « رَعْ » . ويلاحظ مثل هذا الاشتقاق فى كثير من أسماء الملوك من بعده فى الاسرات الرابعة والخامسة والسادسة

فى طرفه الأسفل بناء من المجيب ما زلنا نراه الآن بجوار أبى الهول المظيم ، وقد أُطلق عليهِ « معبد أبى الهول » مع انه لم تثبت بعدُ علاقته بهذا التمثال

« معبد أبى الهول »

أبو الهول

أما أبو الهول ذاته فلم يُعلم صانعه بعدُ يقيناً . وانما الأرجح انه عُمل فى زمن الأسرة الرابعة ، وقيل قبلها . وهو تمثال هائل حفر من الصخر الطبيعى ، وجهه وجه انسان وجسمه جسم أسد ، ارتفاعه نحو ٢٠ متراً وطوله نحو ٤٦ متراً . ولم يعلم الغرض الحقيق من صنعه الى الآن

وبعد أن توفى « خفْرَع » خلفه « منْقرَع » مشيّد هرم الجيزة الأصغر . وفى أيامه حافظت مصر على عظمتها . غير أن شوكة الملك ابتدأت تضعف قليلاً ، وزادت قوة كهنة « أُون »[1] (عين شمس) واكتسبوا جانباً عظيماً من السلطة السياسية

***

الاسرة الخامسة

لاحظنا أن كهنة « أُون » أخذوا يستبدون بالأمر فى أوائل أيام الأسرة الرابعة ، وبقوا كذلك نحو ١٢٠ سنة وصلوا بعدها الى درجة من القوة مكنتهم من إسقاط تلك الأسرة وتأسيس أُسرة جديدة هى الخامسة . ولما كان الفضل فى تأسيس هذه الأسرة راجعاً الى الكهنة كان ملوكها أضعف ممن قبلهم ، فانتهز حكام الأقاليم ورؤساء الحكومة هذه الفرصة ، واكتسبوا لأنفسهم تولى المناصب بالوراثة . فمن ذلك أن منصب « قاضى القضاة وكبير الوزراء » بعد أن كان يُسند الى اكبر أولاد الملك سنًّا أصبح حقًّا خاصًّا لأسرة جديدة هى أُسرة « طاحُتِب الشهيرة »[2] . وحدث مثل ذلك فى الأقاليم أيضاً ، فإنَّ كل حاكم كان يزداد فى القوة عن سافه

على أن هؤلاء الحكام حافظوا بالرغم من ذلك على الولاء لمليكهم ، ولم يألوا جهداً فى مساعدته بالنفس والنفيس على ما فيه تقدم البلاد ورقيّها . ولا غرو فان مصر فى عهد هذه الأسرة حافظت على ينابيع ثروتها ، وقامت بمشروعات تجارية وحربية

(١) يسمّون « كهنة اون » أو « كهنة رَع »

(٢) لأحد أفرادها مقبرة بسقارة تعرف « بمقبرة طاحُتِب » ويدل حجمها وضخامتها على ما كان لصاحبها من العظمة

نافعة زادت من ثروتها وكان لها أثر ظاهر فى رفاهتها ونمو حضارتهـا . فمن ذلك أن « أُسَرْكاف » أول ملوك هذه الأسرة مد سلطانه الى الجنادل الأولى (حوالى سنة ٢٧٥٠ ق . م) وأنَّ خلفه « سَحُورَع » أرسل حملة بحرية الى الشواطئ الفينيقية ، وأخرى الى بلاد « بُنْت » وشواطئ خليج عدن الجنوبية ، وأخرى برية الى شبه جزيرة سيناء . ومن ذلك أيضاً أن الملك « إسيسى » أرسل حملة حوالى سنة ٢٦٨٠ ق . م لفتح محاجر وادى الحمامات[١] وأرسل حملة أخرى الى بلاد « بُنْت » أيضاً . ثم ان الملك « أوناس » آخر ملوك هذه الأسرة أيّد سلطانه فى الجنوب الى الجنادل الأولى حيث وُجد اسمه منقوشاً على الصخور مشفوعاً بلقب « رب البلاد » . وقد تركت هذه الأسرة مقابر عديدة على غاية من الابداع فى النقش[٢] بعضها بمنف وبعضها فى جهات شتى فى الوجه القبلى . وآخر أهرامها هرم « أوناس » بسقارة ، وهو منقوش من الداخل بالألوان

الأسرة السادسة

وحافظت مصر فى أيام الأسرة السادسة أيضاً على حضارتها . غير انهُ فى عهدها زاد استقلال حكّام الأقاليم ، فصاروا يُعرَفون بالأمراء « العظام » وأصبح كل منهم يُدفن بموطنه بعد أن كانت قبورهم ملتفة حول قبر مليكهم . ومع هذا لم تزل للملك الكلمة العليا عليهم ، بل تمكن بمساعدتهم من تنفيذ سياسة خارجية ما كانت تتمّ إلاّ بالقوة والبأس الشديد . فمن ذلك أن « ببى الأول » ثالث ملوك هذه الأسرة (٢٥٩٠ — ٢٥٧٠ ق . م) بسط نفوذه فى بلاد النوبة حتى جعلها تمد جيشه بالرجال . وقد أرسل حملة الى فلسطين وفينيقية وعدة حملات أخرى لتأديب قبائل البدو الشمالية الذين تعدوا حدود مصر الشرقية . ثم حذا حذوه ابنه « مَرَنرَع » فتمكن بمساعدة امراء « إلِفَنْتين » الأشداء من حفر قناة فى حجر الصوان بالقرب

---

(١) هذا الوادى يمتد بين قنا على النيل وبين القصير على البحر الاحمر

(٢) قارن هذه بأهرام الاسرة الرابعة التى لم تتوقف عظمتها على جمال نقشها بل على ضخامة أحجارها ودقة صنعها

من الجنادل الأولى تسهيلاً لإرسال الحملات الى بلاد النوبة . وكانت فائدة هذه البلاد لمصر قد زادت ، لاستخراج معدن الذهب منها ولكونها الطريق الموصل الى بلاد بنت والسودان ، ولذلك قام « مرنرع » بالاستكشاف عن تلك الجهات بنفسه ، فوفد اليه كثير من رؤسائها لتقديم الطاعة

وفى عهد « بيبى الثانى » (٢٥٦٦ - ٢٤٧٦ ق . م) الذى حكم البلاد نيفاً وتسعين سنة (وهو أطول زمن تولاه ملك فى التاريخ) استمر ارسال الحملات الى داخل إفريقية وخصوصاً ما كان منها بقيادة « حَرخُوف » أمير « إلِفَنْتين » ذلك الذى منحهُ الملك لقب « حاكم البلاد الأجنبية » . وفى هذا العهد بسطت مصر بعض السيادة على بلاد النوبة ، وكشفت جهات الجنادل العليا ، فكان ذلك تمهيداً لطريق الاستيلاء التام على بلاد النوبة فيما بعد . ولبثت الغزوات تتوالى طول هذا العهد على بلاد « بُنْت » وتعود الى مصر بكثير من الخيرات

ولما توفى « بيبى الثانى » تولى الملك من بعده عدة ملوك حكموا مدداً قصيرة ، وتاريخهم غامض . وكانت قوة الملك فى أيامهم قد بلغت منزلة من الضعف أصبح فيها عاجزاً عن ضبط ولاته ، ولم تلبث الأسرة السادسة أن انقضت واستقلت الأقاليم المصرية بتدبير شؤونها بنفسها ، فبعد أن كانت البلاد فى قبضة ملك واحد أصبح يحكمها عدد من الأمراء يتنازعون الأمر فيما بينهم . فوقعت مصر فى مثل تلك الفوضى التى أنقذها منها « مينا » بعد أن قضت فى بحبوحة المجد نحو ألف سنة

وقد كان العصر الأخير من أيام الأسرة السادسة مظلماً جداً ، لم يبلغنا شىء واضح من أخباره . ويفهم مما تقدم أنه كان عصر حروب وفتن داخلية طويلة نشأت من عظم نفوذ الأشراف وانتهت بسقوط الأسرة السادسة التى تُعدّ فى الحقيقة آخر الدولة القديمة . ومن ملوك هذه الأسرة الملكة « نيتوكريس » التى أتمت هرم الجيزة الثالث ، وتحكى عنها أقاصيص كثيرة لم يثبتها الاستكشاف بعد . ثم حكمت مصر الأسرة السابعة ثم الثامنة ، ولم يصلنا من أخبارهم سوى أسماء ملوكهم

سقوط الدولة القديمة

الفصل الثامن

الدولة الوسطى

﴿ العهد الإقطاعى ﴾

(٢١٦٠ – ١٧٨٨ ق . م .)

قضت على الدولة القديمة الفتن الداخلية التى ابتدأت فى أواخر الأسرة السادسة . وبفناء الأسرة الثامنة انتهت تلك المدة الطويلة التى كانت فيها منف مقراً للحكومة ، وذلك أن الأشراف والأمراء الذين كانوا يقيمون فى أقاليم مصر المختلفة أخذت قوتهم فى الازدياد ، الى أن أفضى أمر أسرة منهم الى التغلب على ملوك الأسرة الثامنة الضعفاء ، فنزعوا منهم الملك وجعلوا مقره فى «هِرَقْلُوبوليس» جنوبى الفيوم ، وهى المدينة التى نشئوا فيها . وبذلك ابتدأت « الأسرتان التاسعة والعاشرة »*.

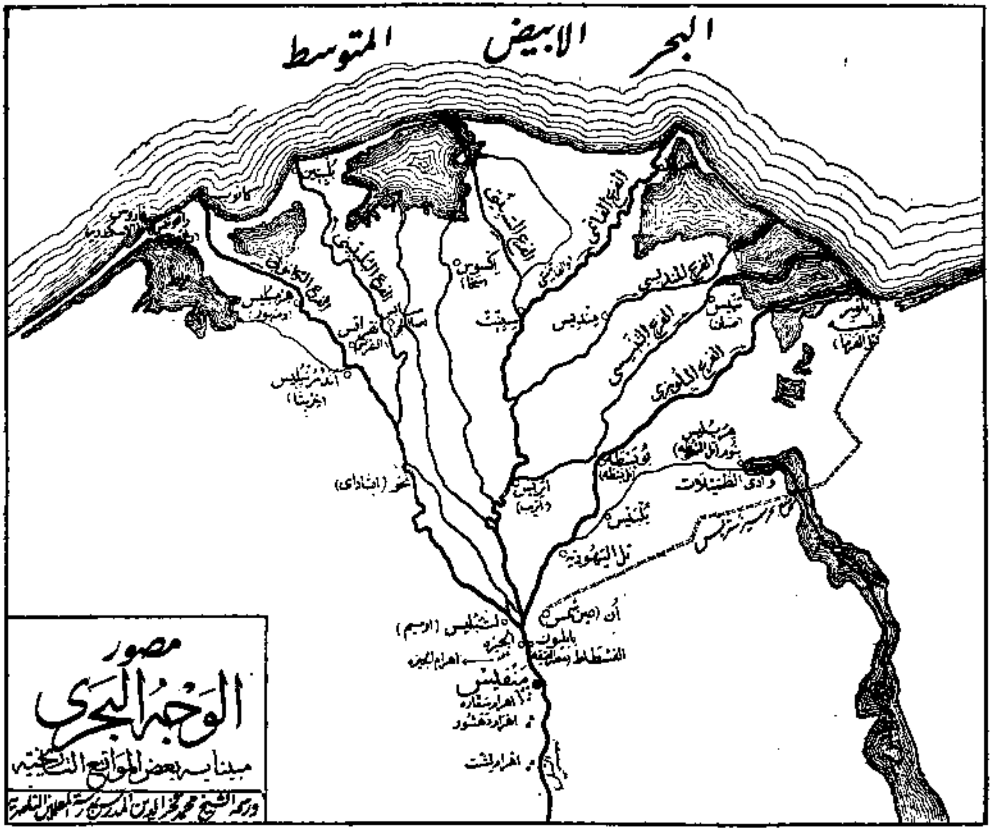
الاسرتان التاسعة والعاشرة

أما مؤسس هاتين الأسرتين فهو « خيتى الأول » أو (أَخْتُويس) ، ولكن ملوكهما كانوا ضعفاء ولم يتركوا وراءهم أى آثار باقيـة تخلد ذكرهم . ولبثت سطوة أمراء النواحى فى أيامهم على أشدّها . وهم فى ذلك فريقان : فريق حانق على الملوك شديد العداوة لهم ، وفريق مُزْدَلِف اليهم مظاهر لهم على عدوهم ، ومن هؤلاء امراء أسيوط ، فانهم كانوا مقرَّبين جداً من بيت الملْك وكثيراً ما أفادوا الملك بحماية الحدود الجنوبية ، وقد عيّنَ أحدهم قائداً حربياًّ لمصر الوسطى

الاسرة الحادية عشرة

وفى ذلك الوقت كانت إحدى الأسرات الأخرى من أمراء الجنوب آخذة فى النهوض ، وهم أمراء «طيبة» بالقرب من مدينة « الاقصر» الحالية ، فما زال يشتد أزرهم حتى أعلنوا استقلالهم ، ثم أسسوا الأسرة « الحادية عشرة » التى أخذت فى

* هكذا سمّى مانيتون ملوك هذه المدة



مصور
الوجه البحرى
مبين به بعض المواقع التاريخية
البحر الابيض المتوسط
الفرع الكانوبى
الفرع البلبتينى
الفرع السبنيتى
الفرع الفاتنى
الفرع المنديسى
الفرع التانيسى
الفرع البلوزى
منديس
سبنيت
اكسويس
نقراتيس
اندريبليس
تل اليهودية
أن (عين شمس)
منفيس
اهرام سقارة
اهرام دهشور
اهرام الجيزة
وادى الطميلات

توسيع نطاق ملكها زاحفة من الجنوب الى الشمال حتى خضعت لها البلاد بأجمعها

أما ملوك هذه الأسرة فكان بعضهم يسمى باسم (أَنْتِف) وبعضهم يُدعى « مِنْتُوحُتِب » . ومما يؤثر عن آخرهم وهو « سِنِخْرَعْ مِنْتُوحُتِب » أنه أرسل حملة الى بلاد « بُنْت » عن طريق البحر الأحمر

انتقال مقر الحكومة الى طيبة

وانقضت أيام هذه الأسرة حوالي سنة ٢٠٠٠ ق . م ولم يترك ملوكها وراءهم من الآثار إلاّ قليلاً ، ومعظمهُ لم يدم الى زماننا ، وأهم ما يُعرف عنها أنها نقلت مقر الحكومة من شمالى مصر الى جنوبيها (فى طيبة) ، ومهدت الطريق لبلوغ مدينة طيبة تلك الدرجة المشهورة فى الرقىّ والحضارة مما جعلها الآن أغنى مدينة قديمة بالآثار فى جميع أنحاء المعمورة

أسس « امِنِمْحَت الأول »* الأسرة الثانية عشرة بعد حروب طويلة . وكان عند ابتداء حكمه قد بلغ امراء الأقاليم مبلغًا عظيماً من الثروة والسلطان ، وصارت لهم قوّة يُخشى بأسها لا يمكن للملك قهرها بالشدة والعنف . وأدرك ذلك «امنمحمت» فخادعهم بالهدايا النفيسة ووعدهم الوعود الجميلة ، وبهذه الوسيلة استخدمهم فى فتح الفتوح وتنظيم البلاد

وقبل ان ندخل فى الكلام على تاريخ الأسرة الثانية عشرة التى كان عصرها من أزهى العصور المصرية نذكر شيئًا عن الحالة العامة لمصر فى تلك المدة التى ابتدأت بظهور شوكة هؤلاء الأمراء وانتهت بانتهائها ، وهى ما يسمى بالعهد الإقطاعى

﴿ مجمل حالة مصر فى العهد الإقطاعى ﴾

كانت مصر فى هذه المدة مقسمة الى أقسام أو ولايات صغيرة يحكم كلاً منها أمير ، وهؤلاء الأمراء لم يتولوا مناصبهم بأمر الملك بل بطريق الوراثة عن آبائهم ،

---

* ويسمى أيضا « أمنِمْهات »

فلم يُعتَبَروا من أرباب الوظائف فى سلطانه بحالة ما . غير أن جميعهم كانوا يشعرون بواجب الولاء لفرعون مصر وعزيزها ، ينصرونه اذا حارب ، ويمدونه بالرجال والمال اذا كان فى حاجة اليهما

حالة الامراء

ولما مضت عليهم الأجيال الطويلة وهم سائرون على هذا النظام قويت شوكتهم وأصبح الواحد منهم فى ولايته فرعونًا صغيرًا فى نفسه ، له من رجال البلاط وأمناء الخزائن وقضاة المحاكم وعملة الدواوين وكتابها أمثال من لفرعون مصر الأكبر ، وكان كل أمير منهم مسئولاً أمام ضميره عن مصالح قومه ، وقصارى أمله أن يترك بعده الذكر الحسن فيهم

علاقتهم بالملك

ولم تكن جميع الأراضى التى يحكمها كل أمير من الأمراء ملكاً خالصاً له يرثها عن سلفه ويورثها خلفه ، بل كان منها اجزاء يهبها المليك الأكبر طُعْمَةً لهم يحكمونها طول حياتهم . وهذه الأراضى كان يهديها اليهم على هيئة «إقطاعات» تعطى لهم عند وفاة سلفهم ، ولهذا سُمّى ذلك العصر بعهد الإقطاعات أو « العهد الإقطاعى »

وهذه هى الوسيلة التى بها استطاع الملك أن يكون له بعض النفوذ عليهم وان يكون له فى إماراتهم من الوكلاء والسفراء من يوقّفونهُ على أحوال أمته حتى يتهيأ له ضبط ملكه والنظر فى مصالح بلاده ، غير أن سلطة هؤلاء الوكلاء والسفراء لم تخرج عن حد المراقبة ، فكان الأمراء هم الذين يرسلون بأنفسهم ما يأخذه الملك من ريع البلاد وخراجها ، وكانت هذه العلاقة بينهم وبين بيت المال أكبر رابطة تربطهم بالملك وتربط أنحاء البلاد بعضها ببعض

مبدأ اعداد الجيوش القائمة بمصر

ولم يرَ ملوك مصر إزاء هذه الحالة بُدًّا من ان يحيطوا أنفسهم بالحرس والأعوان لحمايتهم ولحفظ شوكتهم وتنفيذ رغباتهم ، فكان ذلك مبدأ اعداد الجيوش القائمة فى مصر

وكان للأمراء رجال من هذا القبيل يقودونهم الى ساحة القتال فينضمون الى رجال الملك اذا استمدهم فى حروبه

الطبقة الوسطى

أما الطبقة الوسطى من الأمة فكانت فى هذه العصور رائجة السوق كثيرة العدد لكثرة الحاجة اليهم ، وذلك لنمو قوّة الأمراء فى أنحاء البلاد وازدياد حاجاتهم المكملة لميشة الترف والأبّهة . فزاد بذلك عدد النقّاشين والحفّارين والنجّارين وغيرهم من أصحاب الحِرَف الدقيقة ، كما زاد عدد التجّار والموظفين . ومما امتاز به أهل هذه الطبقة على أفراد الطبقة السفلى معرفتهم بالقراءة والكتابة . ومن ابتداء ذلك الوقت نجد للكاتب أهمية كبيرة . فتراه يفتخر بعلمه ويفضل مهنته على غيرها

أهمية الكاتب

الطبقة الاخيرة

وأما طبقة العامة والدهماء من ألوف الألوف المشتغلين بالحرف الصغيرة وبزراعة الأرض التى هى أساس ثروة البلاد فكانوا أميّين محتقرين ، والظاهر أنهم كانوا موالى للأمير الحاكم فى الإمارة التى يعيشون فيها ، وأن معظم ما يُفيدونهُ كان لحاجة الأمير وحاشيته ، وانهم لم يتجروا بشئ فى الأسواق إلاّ القليل

الشبه بين النظام الاقطاعى فى الدولة الوسطى المصرية ومثله فى القرون الوسطى باوربا

وهذا النظام بما فيه من علاقة طبقات الأمة بعضها ببعض يشبه النظام الذى ساد فى أوربا فى القرون الوسطى ، ولذلك سمى كل منهما بالنظام الإقطاعى

الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ – ١٧٨٨ ق . م)

أمنمحت الاول

ان عصر هذه الأسرة هو أزهى عصور الدولة الوسطى ، فكانت فيه البلاد فى أعلى درجات الرخاء والسعادة ، وفيه أحييت العلوم والفنون ، واتسعت أملاك مصر فى وادى النيل ، وتقدمت الزراعة وشيدت العمارات . ومؤسس هذه الأسرة هو « أمنِمْحَت الأول » (٢٠٠٠ – ١٩٧٠ ق . م) . وقد تغلب على المصاعب الكبيرة التى لاقاها فى اصلاح البلاد وتنظيمها بعد أن عبثت بها يد الفتن والحروب الداخلية . وباستيلائه على عرش مصر نقل مقر حكومته من طيبة الى جهة متوسطة بالقرب من « اللِّشْت » على بعد ٢٥ ميلاً من جنوبى منف . وقد ترك وراءه من الآثار فى جميع أنحاء مصر ما يشهد له بالجدّ والسعي وراء مصلحة بلاده . ومن أعماله

استخراج المعادن من المناجم الممتدة فى الصحراء الى شبه جزيرة سينا وقطع الأحجار من المحاجر المديدة ولا سيما ما كان واقعاً منهـا بجهة « الحمامات » . وأرسل حملة الى بلاد النوبة فأخضعت بلاد « الواوات »(١) الى كرسكو ، حيث كان يوجد الذهب بكثرة . وبعـد أن حكم البلاد وحده عشرين عاماً أشرك ابنه « أسرتسن الأول » فى الملك بقصد تدريبه على ادارة شؤون البلاد . ولما طعن امنمحمت فى السنّ وشعر بقرب منيّته قدّم لابنه « اسرتسن » مجموعة نصائح مفيدة أوصاه فيها بالعناية برعيته ، وحذَّرهُ ممن يلتفون حوله من كافرى النعمة ذاكراً له ما جرى له : من أن جماعة من خدم قصره حاولوا قتله لولا أن كُشف أمرهم أسرتسن الاول

وتوفى امنمحمت الأول بعد أن حكم ثلاثين عاماً ، فخلفه ابنه «اسرتسن الأول» (١٩٨٠ — ١٩٣٥ ق . م) بعد أن تدرَّب على الملك عشر سنين كان فى أثنائها شريكاً عاملاً لأبيه وقاد فيهـا الجيوش بنفسه لتأديب اللوبيين واخضاع النوبة . واشتهر منذ صغره بالشجاعة والقوة . وبعد وفاة والده قام بأمر الملك خير قيام وحفظ عظمة الأسرة أثناء حكمه الطويل الذى دام خمساً وأربعين سنة(٢) . ومن أشهر آثاره المخلَّفة مسلة عين شمس التى ما زالت بتلك الجهة الى الآن . وبدأ أيضاً مشروع خزان بحيرة موريس ، وسنشرحه عند الكلام على « امنمحمت الثالث » الذى تمّ على يديه . ومن أعماله أيضاً أنهُ بنى معبداً بجهة وادى حلفا ودوَّن على بلاطة فيه انتصاراته على قبائل النوبة . ومن الأمراء المقربين منه « أمينى » ذلك الذى له مقبرة جميلة بجهة بنى حسن . وقد وجد هرمه وهرم أبيه بجهة « اللِّشت » مسلة عين شمس

ثم تولى الملك « امنمحمت الثانى » (١٩٣٥ — ١٩٠٣ ق . م) فجنى ثمار فتوح سلفه وحكم البلاد فى هدو وسكينة ، وعند وفاته دُفن بهرمه بدهشور

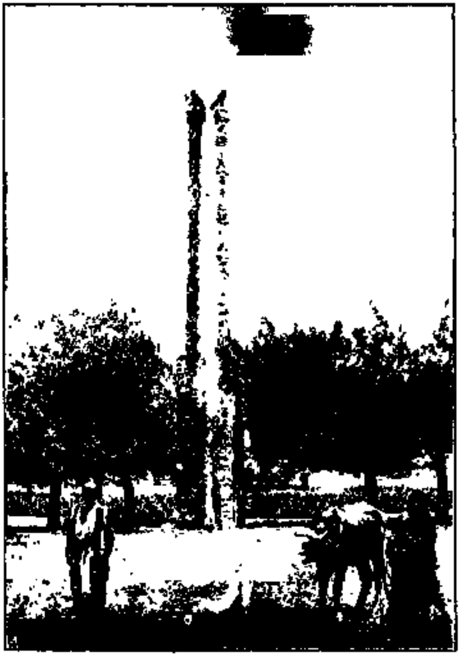
وتبعه « أُسرتسن الثانى » ، وله هرم بجهة اللاَّهون » بالفيوم . وقد عُثر فى هذا

---

(١) شمالى النوبة

(٢) فى ذلك عشر السنوات التى حكمها مع أبيه

الهرم قريبًا على بعض حُلىّ من أجمل ما وصل الينا من صنع العالم القديم



(مسلة عين شمس)

وبعد « أُسرتسن الثانى » تولى « أُسرتسن الثالث » (١٨٨٧ — ١٨٤٩ ق . م) وكان شديد البأس مولعًا بالحروب . غزا بعض جهات سورية ، وأتمّ الحروب فى بلاد النوبة ، فمدّ الحدود المصرية الى ما وراء الجنادل الثانية وشيّد لحمايتها قلعتين بمنطقتى « سِمْنَة » و « قُمَّة » (خُمَّة) وأمر السودان بألاّ يتجاوزوا ذلك الحد برًّا أو بحرًا ما لم يكن ذلك بقصد التجارة ، وفى هذه الحالة كانوا يعاملون بالحسنى . ومن أعماله انه لوقوف الجنادل عقبة فى سبيل المِلاحة حفر فى صخرها المحبب مجرى تعبره السفن

الكبيرة ، فتيسر بذلك مجاوزة السفن الى ما وراء الجنادل الأولى . ومن أعماله أيضاً أنهُ وصل النيل والبحر الأحمر بخليج يُعرف بخليج « سيزُوستريس »[1] وقد كانت أيامه من أزهى عصور اللغة المصرية القديمة . وفى عهده أخذت شوكة الأشراف فى الاضمحلال . أما هرم هذا الملك فبجهة دهشور ، وقد وجدت بالقرب منه حلى بديعة لبعض أميرات أسرته

امنمحمت الثالث

وبعد أن توفى خَلَفَهُ « امنمحمت الثالث » (١٨٤٩ – ١٨٠١ ق . م) وقد خلَّد ذكره فى التاريخ بأعماله السلمية المفيدة . وفى أيامه بلغت الدولة الوسطى أقصى درجات مجدها . وكادت تفنى فى عهده قوة الأشراف بعد أن أخذت فى الاضمحلال فى أيام سلفه . وقد تمّت على يديهِ عدة مشروعات سلمية زادت كثيراً فى ثروة البلاد ، ففى أيامهِ نُظِّمت مناجم سينا وصارت ينبوعًا مستمراً للثروة ، وأُنشئ بجهة «سمنة» مقياس للنيل ينبئ عن حال الفيضان فتُجبى الضرائب بمقتضاه

خزان بحيرة موريس وتوسيع أراضى الفيوم

أدرك امنمحمت الثالث توقف فَلاح مصر على جودة ريِّها ، فقام بمشروع عظيم لخزن مياه الفيضان حتى يُنتفع بها فى أوقات هبوط النيل . وذلك أنهُ لما رأى انخفاض اقليم الفيوم عن سطح النيل وأن مياه الفيضان تغمره كل عام فتقلبه الى بحيرة عظيمة ، أقام حول جزء منهُ سوراً عظيماً ، فصار هذا الجزء بمثابة خزان كبير ، ترد اليهِ المياه وقت ارتفاع النيل بواسطة ترعة[2] وتخرج منـه أيام انخفاضه بترعة أُخرى فتروى أراضى الوجه البحرى[3] . وبهذه الطريقة أيضاً انحسرت مياه النيل عن كثير من البقاع التى كان يغمرها الفيضان فى الفيوم كل عام ، فأصبحت صالحة للزراعة . ومن ذلك العهد صارت الفيوم مقرًّا لملوك هذه الأسرة . وقد أدرك بعض من سبقه من

---

(١) هذا أيضا من الاسماء التى اطلقت على «أمنمحمت» ، وقد أطلق أيضا على رمسيس الاكبر

(٢) هذا الخزان هو المعروف ببحيرة موريس والترعة هى المسماة الان بحر يوسف

(٣) دلت الاحصاءات الحديثة على ان المياه التى كانت تخزن بهذه الطريقة تكفى لجعل مياه النيل فى المائة اليوم الاوائل من انخفاضه مثلى ما تكون عليه بدونها

ملوك الأسرة الثانية عشرة ثمرة هذا المشروع ، ولكن الفضل الأكبر فى انجازه راجع الى هذا الملك العظيم الذى كان من صغره مولعاً بمراقبة مدّ النيل ورصده

قصر لابرنت — وقد شيّد أمنمحعت على شاطئ الترعة التى ترد منها المياه الى الخزان ذلك البناء العجيب المسمى « لابِرَنْت » الذى اشتهر فى قديم الزمان ببداعته ، ولم يبقَ منه الآن إلاّ بعض أحجار بالقرب من هرم اللاهون . على أن « هيرودوت » المؤرخ اليونانى قال عنه : انه يحتوى على ثلاثة آلاف محل ما بين حجرة ورَدْهة ، نصفها تحت الأرض والنصف الآخر فوقها ، عدا ثمانى ساحات مسقفة متقابلة الأبواب . والظاهر أنه كان مقرًّا للحكومة تُدار منهُ جميع البلاد

وفى عهد امنمحعت أيضاً نُظِّمت التجارة ووُضعتْ وحدة مشتركة لقياس قيمة ما يشرى وما يباع ، وهى عبارة عن وزن خاص من النحاس وكانت تسمى « دِبن ». وباختصار كانت أيامه أيام سعادة ورخاء فى جميع أنحاء البلاد . وبوفاته دُفن بهرمه بِدَهشور ، وكأنَّ حظ مصر قد دُفن معه

فحكم من بعده « امنمحعت الرابع » ثم الملكة « سِبِكْنِفْرُورَع » ولكن مدتهما كانت قصيرة ، وأخذت فيها البلاد تتقهقر تقهقراً سريعًا حتى انتهت أيام الأسرة الثانية عشرة بعد أن استمرّت نحو ٢١٣ سنة

﴿ اضمحلال الدولة الوسطى ﴾

أتى بعد أيام الأسرة الثانية عشرة عصر مظلم جدًّا امتدَّ الى ظهور الدولة الحديثة. ومعظم ما نعرفه عن هذا العصر مستمد من القصص الدينية ومن الفروض التى لم تثبت للآن

الأسرة الثالثة عشرة — جلس أوّل ملوك الأسرة الثالثة عشرة على عرش مصر بدون فتن واضطراب ، ولكنه فُصل عن عرشه بعد أن حكم خمس سنوات فقط ، فتبع ذلك عصر شقاق

وفتن بين أمراء الأقاليم الذين كان يحارب بعضهم بعضاً فى التنازع على تولى الملك . وقد يتغلب أحدهم على غيره ويقبض على صولجان الملك فلا يلبث أن يظهر عليه آخر فيغلبه على أمره . نعم قد حكم بعضهم زمناً طويلاً ، ولكن معظمهم لم تزد مدة أحدهم على عام أو عامين ، ومنهم من حكم مدة ثلاثة أيام فقط . ولم يترك ملوك هذا العهد شيئاً من الآثار يذكر بسبب اشتغالهم بالحروب ، ولذلك لم نقف على كثير من أعمالهم . ولما كانت البلاد على هذه الحال من الشقاق والانقسام كان من السهل أن تقع غنيمة باردة فى أيدى الفاتحين من الأجانب ، ففى أواخر أيام الأسرة الثالثة عشرة (حوالى ١٦٧٥ ق . م) ابتدأت اغارة قوم فاتحين من آسيا لم يُعلم للآن أصل منشئهم يقيناً ، وهؤلاء الفاتحون هم الذين يُعرَفون الآن « بالهِكْسُوس » أو «ملوك الرُّعاة» * غارة الرعاة
ومما قيل فى اطلاق هذا الاسم عليهم ان المصريين لما تغلبوا عليهم فى آخر الأمر وطردوهم الى بلادهم كانوا يذكرونهم بالاحتقار والازدراء ، فلقبوهم «بالأجناس البربرية» و « بالكفرة » و « بالرعاة » أى الذين يرعون الغنم . وأرجح ما قيل فى أصلهم انهم قوم نشئوا من اختلاط العرب بالفينيقيين ، وربما كانوا من قبائل البدو المحالفين لملوك قادش (وهؤلاء الملوك هم الذين قاوموا « تُحُتْمُس الثالث » أشد مقاومة عند توسيعه نطاق الأملاك المصرية كما سيأتى بيانه فى الكلام على الدولة الحديثة)

وتُلخص الأسباب التى سهلت دخول الهكسوس مصر فيما يأتى :

(١) عدم السير على نظام ثابت فى الرى مما دعا دوام المشاحنة بين الأشراف

(٢) كثرة الضرائب الباهظة (٣) شدة استبداد الأحزاب المختلفة وظلمهم

ولما دخل الهكسوس مصر أسسوا بلدة لهم بالوجه البحرى تدعى « أوَاريس » (هوَّارة) لا يُعلم مكانها بعد باليقين ، وجعلوها مقراً لحكمهم . ولما انقرضت الأسرة الثالثة عشرة وخلفتها الأسرة الرابعة عشرة كان ملوكها مصريين كذلك ، وكان مقر الأسرة الرابعة عشرة

* وهم الذين يسمون فى كتب العرب بالعمالقة . وقيل ان كلمة « هكسوس » لا يقصد بها « رعاة » وأن اطلاق هذا الاسم عليهم من باب الخطأ

حكومتهم مدينة « إكسُويس » (سخا) بالوجه البحرى أيضًا . غير أنهم كانوا أشبه بولاة للهكسوس

وما زال نفوذ الهكسوس يزداد عامًا فعامًا حتى أخضعوا جميع البلاد فدفعت لهم الجزية

الاسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة من الهكسوس

ولما انقضت الأسرة الرابعة عشرة قبضوا على زمام الملك . ولذلك اعتُبرت الأسرتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة فى تاريخ مصر من هؤلاء الملوك الرعاة

وكانوا فى أول أمرهم ظالمين كثيرى الاعتداء على المصريين ، ولكنهم عدلوا عن ذلك فيما بعد وتطبعوا بكثير من الطباع المصرية ، وشيدوا كثيراً من المعابد والمبانى، واتخذوا لهم معبوداً جمع بين معبودهم الأصلى وأحد آلهة المصريين

ولو وصلت الينا الآثار التى تركوها أو النقوش التى عليها لعرفنا كثيراً من أخبارهم . ولكن المصريين بعد أن طردوهم من البلاد عبثوا بمعابدهم وعفَّوا آثارهم ، وكل أثر لم يمحوه أزالوا منه النقوش والمعالم التى تدل على أنه للهكسوس

ويقال ان قدوم سيدنا يوسف عليه السلام الى مصر وحدوث ما حدث له كان فى عهد الأسرة السادسة عشرة

وعلى توالى الأيام أخذ ملوك الهكسوس فى الاضمحلال . وفى زمن الأسرة السابعة عشرة انقسمت مصر الى عدة ولايات صغيرة كانت « طيبة » أهمها . فانتهز أمراء طيبة هذه الفرصة وشقوا عصا الطاعة على الهكسوس ، وما زال المصريون يحاربونهم حتى طردوهم من مصر ، وبذا تكوَّنت الأسرة الثامنة عشرة وهى مبدأ الدولة الحديثة

وقد كان لدخول الهكسوس فى مصر وبقائهم فيها مدة تأثيرٌ كبير فى المصريين فالهكسوس هم الذين أدخلوا الخيل فى مصر ، ومنهم تعلم المصريون الفنون الحربية وتعبئة الجيوش الجرارة . فمهما نال المصريين من مظالمهم فقد اكتسبوا منهم مزايا لا تحصى

الفصل السادس

الدولة الحديثة

(١٥٨٠ — ١١٥٠ ق . م)

﴿ امتداد سلطة مصر على غيرها من البلدان ﴾

تمهيد — تعلّم المصريون فن الحرب أثناء مكافحتهم للهكسوس ، فتهيأتْ بذلك مصر للدخول في طور حربي عظيم وسّعت فيه أملاكها ومدّت نفوذها على كثير من الممالك المجاورة لها ، وبلغ هذا المجد أقصاه في عهد « تُحُتْمُس الثالث » و « أمِنْحُتِب الثالث » من ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، غير أنهُ في أواخر أيام هذه الأسرة تولى المُلْكَ رجل ضعيف السياسة ، تلهّى بالمباحث الدينية عن شؤون الدولة فلحقها الضعف من كل جانب ، لولا أن أتاح الله لها رجالاً أشداء في الأسرة التاسعة عشرة أنقذوها من هذا السقوط ، ولكن بعد أيام رمسيس الثاني انقضى ذلك الدور أيضاً ودخلت مصر في دور اضمحلال مستمر ، وقد استفحل هذا الخطب بنهوض الأمم المجاورة لها من جهة ، وخمود الروح الحربية من المصريين من جهة أخرى

﴿ الأسرة الثامنة عشرة ﴾

(١٥٨٠ — ١٣٥٠ ق . م)

يظهر أن الأسرة الثامنة عشرة كانت لها قرابة بالسابعة عشرة . وأول غرض رمى اليه ملوكها استئصال شأفة الهكسوس ، فقام « أحْمِس » (أحَمْيس) مؤسس هذه الأسرة وغزاهم في عاصمتهم أواريس وطردهم منها ، ثم اقتفى أثرهم وغزاهم ثانية

فى « شارُوهين » بالجنوب الغربى من فِلَسْطين فافتتحهـا بعد حصار دام ثلاث سنوات . وقد قام هذا الملك أيضًا بحروب فى الشام وأخرى ببلاد النوبة ، ذلك الى الحروب التى انتصر فيها على الأمراء الوطنيين الذين حاولوا أن ينازعوه فى السلطة ، والحقيقة أنه أفنى معظمهم فلم يبق منهم إلاَّ أعوانهُ المخلصون، مثل أمير «الكاب» . وباستيلائه على الملك صارت جميع الأراضى مِلكاً خاصًا للمِلك

أما المِلك الذى خلفه فهو « أمِنْحُتِبْ الأوَّل » وله غزوات بالشام والنوبة . وفى سنة ١٥٤٠ ق . م خلفه « تُحْتَمُس الأوَّل » (طُوطْمِيس الأوَّل) . وقد انتصر تحتمس عدة مرار فى حروبه التى شنَّهـا على الشام وبلاد النُّوبة وأرض الجزيرة (ما بين النهرين) . وفى هذا الوقت كان قد مضى على مصر نحو ثلاثين سنة لم يحدث فيها اضطراب أو فتن داخلية ، فصار للحكومة من القوَّة والثروة ما يؤهلها للدخول فى ذلك الطَّوْر الحربى العظيم الذى تهيأت لها فيه تلك الفُتوح الكبرى الآتى ذكرها بعدُ . وقد ساعدها على ذلك استقلال المِلك بالأمر وإضعافه ما كان للأمراء من النفوذ والعظمة فى أيام العهد الإقطاعى

تحتمس الاول وفتوحاته

يدأ « تحتمس » بإخضاع بلاد الكوش (النوبة) فأدخلها فى طاعته ؛ وكانت هذه البلاد تمتد من « نباتا » بالقرب من الجنادل الرابعة (الشلال الرابع) جنوبًا الى مدينة « الكاب » شمالاً ثم صرف عزمه الى الشام فغزاها، وساق جيوشه حتى أوردها نهر « الفرات » حيث نقش تذكاراً لهذا الحادث . ولم يصلنا شىء كثير من أخبار هذه الحروب المكللة بالظفر ، وانما الراجح أن نفقاتها لم تكن باهظة ، وأن المصريين كانوا يعودون منها بالأسرى والغنائم الكثيرة ، فيزيدون فى ثروة البلاد

ووجَّه « تحتمس » شيئًا من عنايته أيضًا الى المبانى ، فزاد كثيراً فى معبد « الكرنك * » . وعند وفاته دُفن بوادى مقابر الملوك بطيبـة الذى يعرف الآن

* ما يسمى الان « معبد الكرنك » هو عبارة عن بناء هائل بجهة قرية الكرنك شيدت اجزاؤه على عدة دفعات ، وكان المعبد الاصلى فى أول الامر صغيراً وأسس بمدينة « طيبة » فى عصورها الاولى

« بيبان الملوك » ؛ فكان هو الأول لعدد عظيم من الفراعنة الذين دُفنوا بهذه البقعة

وفى أواخر أيامه حدث تنازع بشأن العرش ، فجلس عليه ابنه « تحتمس الثانى » مدة وجيزة لم يكن له فيها أثر يذكر . ثم آل الملك الى بنته (بنت تحتمس الأوّل) « حَتْشِبْسُوت » (حاتاسُو) بالاشتراك مع « تحتمس الثالث »

الملكة حتشبسوت

وكانت « حتشبسوت » على جانب كبير من قوّة البأس ، فما لبثت أن استأثرت بالسلطة وسلبت من « تحتمس الثالث » كل أمر . وساعدها على ذلك صغر سنّه ، فخضع لها كما خضعت لها مصر بأسرها . وقد أظهرت أثناء حكمها غروراً عظيماً وتيهاً متناهياً ، وتزيّت بزىّ الرجال

وكان جلّ مقاصد هذه الملكة موجهًا للأعمال السلمية ، فأكثرت من تشييد المبانى ونقشها وتدوين أخبارها ودعاويها العريضة عليها . وأهم ما شيدتهُ معبد « الدير البحرى » الفاخر بجهة طيبة على الجانب الغربى للنيل ، وزادت جزءاً فى معبد الكرنك ، وأقامت مسلتين عظيمتين عند مدخله

ومما يؤثر عنها أنها أرسلت بعثة بحرية الى بلاد « بُنْت » لإحضار أشجار منها لغرسها بمعبدها المذكور ، فنجحت البعثة فى الوجه الذى خرجت له وعادت بالأشجار المطلوبة وغيرها من نفائس تلك البلاد

تحتمس الثالث

وبوفاتها قبض تحتمس الثالث على الملك بعد أن مضى عليه منذ تتويجه نحو اثنتين وعشرين سنة خاملاً فيها . وعند ذلك ظهرت مواهبه العظيمة وما عنده من قوّة البأس والثبات والإقدام والمهارة الحربية التى جعلته فى عداد كبار الفاتحين فى العالم القديم

﴿ حروب تحتمس الثالث ﴾

(١٤٤٧ – ١٤٧٩)

كان ببلاد الشام فى تلك المدة عدة ولايات صغيرة غربى سورية ، وكانت خاضعة لنفوذ المصريين ، ولكن لما مضى على ملوكها زمن طويل لم يروا فيه الجيوش المصرية فى بلادهم تكبح جماحهم وتؤدبهم على ما كان يقع منهم من التمرد ، شقوا عصا الطاعة جملةً على المصريين بعد وفاة « حتشبسوت » ، وكان ملك « قادش » زعيم هذه الحركة . فخرج « تحتمس » من مصر فى أواخر السنة الثانية والعشرين من تتويجه قائداً لجيش عرمرم نزل به بعد نحو عشرين يوماً على السفح الجنوبى لجبال « الكَرْمِل » . وقد كانت جيوش الأعداء المتحدة قد سارت نحو الجنوب يقودها ملك « قادِش » ، حتى عسكرت فى « مَجِدُّو » ، وهى مدينة منيعة فى السفح الشمالى من جبال « الكرْمل » . فسار تحتمس نحو العدو ، وأقسم أن يكون هو فى طليعة الجيش ، فحمل به على الأعداء ظاهر المدينة ، فولوا مذعورين اليها تاركين معظم النفائس التى بمعسكر ملك « قادش » غنيمة باردة للمصريين

موقعة مجدو — ثم حاصر تحتمس مدينة « مجدّو » المذكورة ، فسلمت اليه بعد بضعة أسابيع أما الغنائم التى أُخذت من المدينة فكانت أفخر وأنفس من التى أُخذت خارجها(*) .

ثم اتجه نحو الشمال ففتح ثلاث مدن فى السفح الجنوبى لجبل لبنان وبنى حصناً فى تلك الجهة ليأمن به شر ملك قادش اذا زحف ثانية نحو الجنوب . ثمّ بدأ بتنظيم هذا الأقليم الذى فتحه ، فعزل ملوك الأسرات القديمة مخافة أن يعاودوا الخروج عليه ، ونصّب مكانهم آخرين

ثم عاد الى مصر بعد أن غاب عنها أقل من ستة شهور ، فكان لعودته أكبرُ

(*) من هذه الغنائم سرادق ملك قادش الفخم و ٩٢٤ عجلة حربية فيها عجلتا ملك قادش وملك مجدّو و ٢٢٣٨ جواداً و ٢٠٠ درع فيها درعا هذين الملكين

سرور فيها ، وأقيمت الحفلات العظيمة ، وقُرِّبت القرابين للمعبود أمون* تشكراً له وابتهاجاً بهذا الفتح الباهر . ثم أعاد الكرة على هذه البلاد فقمع ثوَّارهـا . وقد طار صيته وذاع نبأ فتوحه الأولى حتى وصل الى مدينة بابل . وكانت قد ابتدأت تأخذ فى الظهور ، فرأى ملكها ان أحسن سياسة ينبعها أن يتودد لفرعون ، فأهدى اليه الأحجار الكريمة الفاخرة وأرسل اليه الجياد البابليـة المُطَهَّمَة ، فوصلت اليه وهو فى ميدان القتال . ثم رجع تحتمس الى مصر وشرع فى التخطيط اللازم لتوسيع معبد الكرنك ، حتى يصير ملائماً لحال الدولة العظيمة التى يرغب فى تكوينها



تحتمس الثالث
(بدار الآثار المصرية)
رسم ف . د . بيريز

وفى السنة الخامسة والعشرين من حكمه غزا بلاد سوريا غزوة ثالثة ، ثم غزاها رابعة . وكانت أهم أعماله فيها تتميم إخضاع البلاد التى فتحها وتنظيمها . ثمَّ أوغل فى الغزوة الخامسة ، ففتح « أرواد » وغيرها من المدن الفينيقية ، وغنم منها ذخائر كثيرة

غزو أرواد

فتح قادش

وفى الغزوة السادسة حاصر « قادش » . ولمنَعَة موقعها لم تسلم له الاّ بعد حصار طويل ، وكأنَّ طولَ مدة الحصار قد غرَّر بأهل مدينة « أرواد » وما جاورها ، فظنوا ان قوة فرعون قد اضمحلت ، فشقوا عصا الطاعة . ولكن « تحتمس » ذهب اليهم فى السنة التالية ، وأدَّبهم وأخذ الجزية من جميع بلاد الشام

(*) راجع ديانة قدماء المصريين

وكان « تحتمس » طول هذه المدة يتأهب لغزو « بلاد النهرين » وما جاورها. وفى السنة الثالثة والثلاثين من حكمه مرّ بجيشه من مدينة « قادش » قاصداً « قرقميش » ، فتغلب على كل من اعترضه فى طريقه ، ثم عبر نهر « الفُرات » ، وأقام وراءه نَصْبًا بجانب النَصْب الذى أقامه « تحتمس الأوّل » دوّن عليه نبأ وصوله الى تلك البقعة . ثم اتجه جنوبًا وصار متبعًا مجرى النهر حتى وصل الى مدينة

فتح نينوى

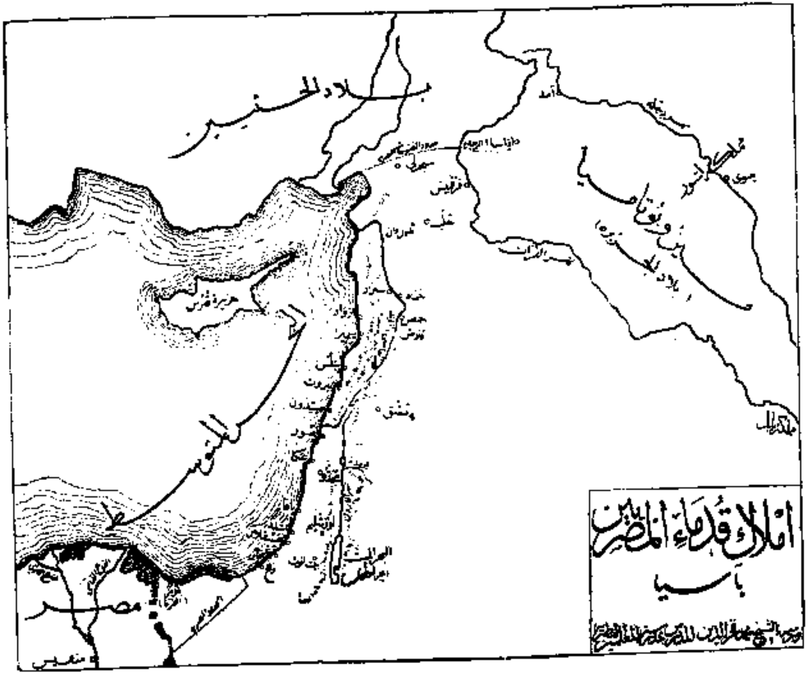
« نِينَوَى » ، وبعد أن فتحها لبث ثمة قليلاً للرياضة بتصيّد الفيلة . وفى غضون ذلك كانت تفد أمراء بلاد النهرين الى سُرادِقِهِ يقدّمون اليه الجزية اقراراً بخضوعهم له. وسرى الخوف من بطشه الى أهل الممالك المجاورة لأرض الجزيرة جنوبًا وشمالاً ، فبعث ملك بابل على بعد داره بالتحف والنفائس تزلُّفًا لفرعون ، وحذا حذوه فى ذلك أهل « خِيتا » الذين كانت تمتدّ أملاكهم الى أواسط آسيا الصغرى (والأرجح أنهم هم « الحِثّيُّون » المذكورون فى التوراة)

قوة اسطول تحتمس

وكما قويت سطوة جيوش تحتمس البرية كذلك عظمت مهابة أساطيله البحرية ، فأصبح ملك « قُبْرُس » أشبه بوالٍ له ، وصار الأسطول المصرى يلقى الرعب فى النفوس : فاكتسب مصر نفوذاً يمتد من شرقى البحر الأبيض المتوسط الى ما وراء بحر « إيجه » ، كما كان له فائدة كبرى فى تسهيل فتوح الشام : فانه باستيلائه على الثغور الفينيقية ضمن لتحتمس عدة مراكز منيعة يهاجم منها « قادش » وغيرها من البلاد الداخلية . وهذا أقدم مثال فى التاريخ يؤيد مزايا القوة البحرية ، فان تحتمس استغرق فى غزوته الأولى ٢١ يومًا للوصول براً من الأراضى المصرية الى « مجدّو » (وذلك يُعتَبر سيراً سريعًا جداً) ، مع أنهُ لم يستغرق فى غزواته التالية أكثر من بضعة أيام للوصول الى أى ثغر من الثغور السورية

وقد غزا « تحتمس » فى أيامه الأخيرة بعض غزوات فى بلاد النوبة . وتوفى فى السنة الرابعة والخمسين من حكمه بعد أن ملأ الشرق الأوسط شهرة وعظمة

وكان « تحتمس » ينتهز فرصة فراغه بين حرب وأخرى فيلتفت الى شؤون


أملاك قدماء المصريين
بآسيا
جزيرة قبرص
دمشق
مصر

بلاده الداخلية . وقد أظهر فى ذلك مقدرة عظيمة فى ادارة البلاد وضبطها ، فلم تغفل عينه لحظة عن أى جزء من أجزاء دولته العظيمة

ومن آثاره مسلتان عظيمتان أقامهما بعين شمس ، ثم نقلتهما « كِليوبَطْرَة » الى الاسكندرية ، ولذلك اشتهرتا « بمسلتى كِليوبَطرة » واحداهما الآن بلندن والأخرى بنيويورك . وما زالت بعدُ جثة «تحتمس الثالث» بدار العاديَّات المصرية. وهو أعظم ملوك الدولة الحديثة ، وقد قال بعض المؤرخين : انه أعظم ملِك فى تاريخ مصر بأجمعه

وبعد وفاة تحتمس الثالث تولى الملْك ابنه «أمِنْحُتِب الثانى» (أمينُوفِيس الثانى)، وكان أبوه فى آخر أيامه قد أشركه معه فى الملك . ومن أوائل أعماله أنه قاد جيشاً إلى سورية لتمرد أهلها مرة أُخرى ، فوصل فى سيره الى نهر الفرات ، وعاد الى طيبة ومعهُ غنائم كثيرة وسبعة ملوك أسرى ، فذبحهم وعلق جثث ستة منهم على سور المدينة، وأرسل الجثة السابعة الى « نباتا » حيث نُصبت هنالك لتُلْقى الرعب فى قلوب الإتيوبيين . وحكم هـذا الملك ستة وعشرين سنة ، ثم ترك الملْك لابنه « تحتمس الرابع »، وأشهر ما يعرف من أخباره أنه أزال الرمال من حول أبى الهول . وله حروب فى سورية وبلاد الكوش

أمنحتب الثالث

وفى سنة ١٤٠٠ ق . م تولى بعده ابنه «أمنحتب الثالث» (أمينوفيس الثالث) . وكان من أعظم مشيدى المبانى فى أنحاء البلاد ، ولا سيما طيبة ، فمن ذلك أنه أسس معبد الأقصر ، وزاد فى معبد الكرنك ، ووصل ما بينهما بحديقة جميلة شيَّد بها طريقاً على طول كل جانب من جانبيه صف من أصنام أبى الهول ، جسم كل منها شبيه بجسم الأسد ورأسه شبيه برأس الكبش ، ولذلك يُعرف هذا الطريق بطريق الكباش . ومن أجمل مبانيه بمعبد الأقصر الدهليز ذو الأربعة عشر عموداً ، فان فخامته لا تزال ظاهرة الى الآن

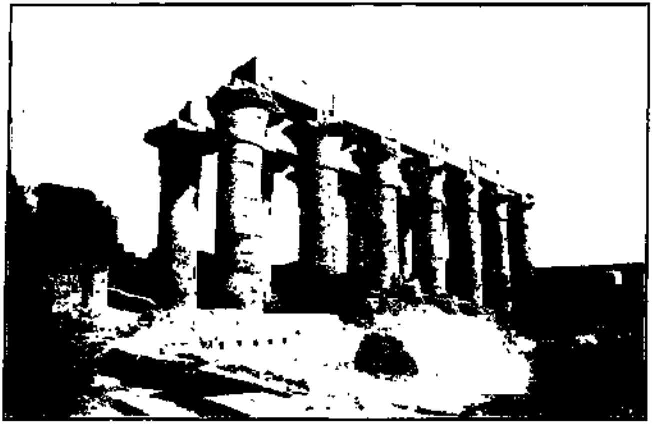
تقدم التجارة

وشنَّ « امنحتب » الغارة على اتيوبيا ، فكان نفوذه يمتد من « نباتا » الى نهر





بعض آثار امينوفيس الثالث { (١) طريق الكباش (رسم لكجيان)
(٢) تمثالا ممنون



الدهليز ذو الأربعة عشر عموداً

(رسم لكيميان)

الفرات . وكانت ملوك اشور وبابل وقبرس يهابونه ، ويتوددون اليه . أما ولاته فى الشام فكانوا على غاية الخضوع والامتثال لأوامره . وبالجملة لم يطرأ من الحوادث فى عصره ما يحمله على إثارة ملاحم عظيمة . فتفرغ بكل قواه الى تنظيم المصالح الداخلية ، وارتقت فى أيامه التجارة حتى وصلت الى حد لم تصل اليه من قبل ، فكانت تُجبَى الى مصر ثمرات جميع العالم المعروف إذ ذاك ، وأصبحت القوافل البرية وأساطيل البحر الأحمر تأتى اليها بالأخشاب النفيسة والعطرية وأنواع التوابل والأفاويه وما شاكلها من الشام ومن بلاد الشرق ، كما كانت تأتى اليها من فينيقية بالآلات الحربية والآنية المزخرفة . وكانت السفن الفينيقية فى البحر الأبيض المتوسط واسطة فى نقل البضائع بين مصر وقبرس وجميع جزائر بحر إيجه

تأثير الحضارة المصرية فى غيرها

وقد وُجد فى بلاد الإغريق وجزائرها بعض الآثار المصرية التى يرجع عهدها

الى ذلك العصر . ونتج من معاملة سكان هذه البلاد للمصريين ان أثرت الحضارة المصرية فى حضارتهم بعض التأثير ، فظهر ذلك فى محاكاتهم للمصريين فى الرسم والتصوير

عظمة المبانى فى عصر امنحتب الثالث

وفى زمنه ارتقى فن البناء والنقش والتصوير ، واتسعت مدينة طيبة اتساعاً عظيماً ، وكثرت فيها القصور الكبيرة ، وظهرت فى مبانيها هيئة التماثُل والوَحدة ، ووُجد فى عصره عدد عظيم من المهندسين ، منهم المهندس « أَمِنْحُتِب » الذى طار صيته فى الآفاق حتى كان الإغريق بعد مماته بنحو ١٢٠٠ سنة يمجدونه تمجيداً وصل بهم الى أن وضعوه فى صف الآلهة

ومن المبانى التى شيدها هذا الملك معبد له أقامه فى الجهة الغربية من طيبة ، ولم يبق منه الآن سوى تمثالين هائلين له كان موضعهما أمام مدخل المعبد ، يربو علو كل منهما على العشرين متراً ويُعرفان بتمثالى « مِمْنون »*. وشيد له فى الجهة الغربية قصراً جنوبى المعبد ، حفر بالقرب منه بركة عظيمة لزوجته ، كانت تركب فيها قارباً كلما قصدت النزهة

اغارة الاجناس السامية على الشام

قضى أمنحتب ذلك الزمن العظيم ، ولم يعكر صفو السلم فى بلاده فتن أو حروب . ولكن حدث فى أواخر أيامه أن هوجمت الشام من جهتين ، فدخلها « الحثيون » من الشمال ، وأغار عليها من الصحراء الشرقية أقوام آخرون ساميون . وعند ذلك انشق ولاة الشام الى فريقين : فريق اتفق مع هؤلاء المغيرين ، وساعدوهم على دخول البلاد ، وفريق بقى على الولاء لفرعون مصر فبادر باخباره بالخطر الذى يتهدد دولته . ومات « أمنحتب » فى السنة السادسة والثلاثين من حكمه قبل أن يتمكن من صد أعدائه

وكانت مصر فى هذه الأزمة فى أشدّ الحاجة الى رجل حازم قوى يسهر على ما فيه

* كانت تخرج من هذين التمثالين أصوات بديعة فى الصباح . ولكن لما حاول الرومان ترميمهما أيام حكمهم فى مصر بطل خروج تلك الاصوات ولم يعد يسمع منها شىء

صالح الدولة ، ويعمل على تماسك أجزائها ، ولكن الذى خلف « أمنحتب الثالث » هو ابنه « أَمِنْحُتب الرابع » المعروف « بإخْناتُون » (١٣٧٥ – ١٣٥٨ ق . م) ، وكان شديد التغلغل فى العقائد الدينية ، كثير التعمق فى الفلسفة الخيالية ، فانقطع لتحقيق مسائلها ، وتوفر على النظر فى أصولها ، فشغله ذلك عن تدبير دولته ، وتهاون فى صد الغزاة الذين أغاروا على الشام قبيل تولّيه الملك . فبقى نفوذه فيها يتقلّص شيئًا فشيئًا حتى كاد يذهب بأثره عند وفاته فى سنة ١٣٥٨ ق . م اخناتون

شُغل « اخناتون » طول حياته بالسعى وراء توحيد الديانة المصرية وحمْل الأمة على عبادة معبود واحد هو روح الشمس ، فان المصريين عبدوا الى زمن حكمه عدة معبودات كان أعظمها عند توليه العرش هو «أمُون» . وكان أجلّ معبد لهذا المعبود بمدينة «طيبة» عاصمة البلاد . فأدرك هذا الملك خطأ تعدُّد الآلهة ، واعتقد بوجود معبود واحد مسيطر على العالم بأسره، وقال انه هو روح الشمس التى تتوقف عليها حياة كل شىء ؛ وأطلق عليه اسم « أتُون » . ولشدة رغبته فى نشر مذهبه ونسْخ ما عداه من المذاهب نقلَ عاصمة البلاد من « طيبة » موطن عبادة « أمون » ، وبنى له حاضرة جديدة سماها « أخيتاتُون » تقرُّبًا لمعبوده « أتون » ، وموقعها الآن « تل العمارنة* » . ولما رأى أن اسم « امنحتب » مندمج فيه اسم « أمون » غيّر اسمه وسمّى نفسه « إخناتون » ومعناه « روح أتون » . ثم عمل على محوِ النقوش من جميع الآثار القديمة التى عليها اسم « أمونَ » حتى التى نُقش عليها اسم والده

استغرقت هذه الأمور كل أوقات « إخناتُون »، فلم يدع وقتًا للالتفات لشؤون دولته، فأخذت فى الانحلال السريع، فاستولى الحثيون على مدن سوريا الشمالية ، وأغار غيرهم من الأمم السامية على أطرافها الجنوبية . كل ذلك بالطبع جعله مُبغَّضًا

* وُجدت هنا الرسائل الأثرية الشهيرة المعروفة برسائل « تل العمارنة » وهى رسائل على قطع من الفخار ومحررة بخط بابل « المسمارى » تبودلت بين امنحتب الثالث والرابع وبين ملوك بابل وقبرس وغيرها ، وهى من أهم الآثار التاريخية

فى نفوس الأمة على اختلاف طبقاتها ، فحنق عليه كهنة أمون لما لحقهم من الأذى ، وسخط عليه جنود والده لما رأوا من انحطاط الدولة على يديه ، ونفرت منه العامة لأنهم لا يرضون بغير دينهم بدلاً

توفى « اخناتون » سنة ١٣٥٨ ق . م فخلفه بضعة ملوك من نسله حكموا مدداً قصيرة حاولوا فيها الاستمرار على نشر مذهبه ، ولكنهم لم يفلحوا . وبوفاة آخرهم سنة ١٣٥٠ ق . م أعيدت الديانة القديمة الى أصلها ، وعبد الناس معبوداتهم الأولى . وقد اشتدت كراهة القوم لاخناتون من بعده حتى أنهم لقبوه « بمجرم أخيتاتون » وأزالوا النقوش من جميع آثاره ، وأعادوا اسم « أمون » فى كل مكان ، فركدت بذلك تلك العاصفة الدينية التى أثارها ، ولم يبقَ الاَّ اصلاح شؤون البلاد وجمع شتات الدولة واعادة مجدها . وهذا ما عمل عليه ملوك الأسرة التاسعة عشرة كما سيأتى بيانه

﴿ الأسرة التاسعة عشرة ﴾

(١٣٥٠ – ١٢٠٥ ق . م)

حرمحب — بعد أن انقرض نسل « اخناتون » قبض على الملك رجل يدعى «حَرْمَحَب» (١٣٥٠ – ١٣١٥ ق . م) وكان فى أول أمره قائداً حربياً . ولما جلس على العرش وجّه عنايته لاصلاح ما نتج عن إهمال أسلافه ، فقام بكثير من الاصلاح الداخلى ، وبعث بعدة جيوش الى بعض الممالك المجاورة لمصر . ويعدّه بعض المؤرخين المؤسس للأسرة التاسعة عشرة

رمسيس الأول — وبوفاته جلس على سرير الملك «رَمْسيس الأوَّل» (١٣١٥ – ١٣١٤ ق . م) ولم تُعرَف علاقته بحرمحب ، بل يحسبه آخرون من المؤرخين المؤسس لهذه الأسرة . وقد تولى الملك وهو طاعن فى السن ، ولذلك لم يتمكن فى المدة القصيرة التى حكم فيها من القيام بكل ما فى نفسه من الآمال الكبيرة . وأهم أعماله انه بدأ تشييد ذلك



بهو الاعمدة العظيم بالكرنك (رسم لكجيان)



بهو الاعمدة – فى أيام رونقه – (عن صورة خيالية)

البهو العظيم بمعبد الكرنك المعروف ببهو الأعمدة نسبةً الى العَمَد الهائلة المصفوفة به، وهي التي بعظم حجمها وفخامتها جعلت هذا البهو من أفخر وأجمل الآثار المصرية

سيتى الاول

وبعد وفاته تولى الملك ابنه « سيتِي الأوّل » ، فبدأ أعماله باخضاع أهل البدو الذين أغاروا على فِلَسطين ، ثم استأنف المسير حتى وصل الى لبنان ، فخضع له الفينيقيون، وأهدى اليهِ أمراء الشام شيئاً كثيراً من خشب الأَرْز . ثم واصل السير حتى التحم جيشه بالحِثِّيين ، ولكن لثبوت قدمهم فى هذه الجهة إذ ذاك عقد محالفة مع ملكهم وبذلك انتهت حروبه . ولما عاد الى مصر وجَّه عنايتــه فى السنة التاسعة من حكمه الى الأعمال الداخلية ، فأصلح الطريق الموصل لمناجم الذهب بصحراء النوبة الشرقية ، واستتم العمارة التى بدأها والده بمعبد الكرنك ، وأصلح ما شوَّهه الملك « اخناتون » من المعابد والهياكل ، وشيد له معبداً فى « ابيدوس » وناوُساً فى وادى مقابر الملوك ، وكلاهما أجمل شىء فى نوعهما سواء أكان ذلك من جهة الهندسة أم الزخرف . ومما يُنسب اليه من الأعمال العظيمة أنه حفر خليجاً يُوصل البحرين الأبيض والأحمر مستمداً من فرع النيل الشرقى



(سيتى الأول)
عن جثته المحنطة بدار الآثار المصرية
رسم ف . د . بيريز

*

﴿ رمسيس الثانى وحروبه ﴾

(١٢٩٢ – ١٢٢٥ ق . م)

ادعاء رمسيس — خلف « رمسيسُ الثانى » والدَه سيتى الأوّل وهو صغير السن ، ويُعرف أيضاً برمسيس الأكبر لما اكتسبهُ من الشهرة الفائقة التى جعلت كثيراً من الناس يزعمون أنه أعظم ملوك مصر . والذى كوّن له هذه الشهرة الكبيرة تلك المبانى العديدة التى شيدها فى جميع أنحاء البلاد ، ونقش عليها أخبار حروبه وانتصاراته التى ظهر بعدُ أنه بلا شك مغال فيها

ولم يكتفِ « رمسيس » بنقش اسمه على المبانى الكثيرة التى شيدها بنفسه ، بل كان يمحو من كثير المبانى التى شيدها الملوك السابقون أسماء مشيديها وينقش عليها اسمه ، رغبةً فى الشهرة وطمعاً فى تخليد ذكره

تجديد مجد الدولة — ولما تولى رمسيس الملك وجد أن الدولة العظيمة التى كوّنها جَدُّه الأكبر « تحتمس الثالث » محاطة بالأخطار ، وان الحثيين غلبوا على معظم الشام ، فعزم على تجديد مجد مصر واسترداد ما فقدته من أملاكها ، فاتبع فى سياسته الحربية نفس الخطة التى اتبعها تحتمس الثالث ، وهى البدء بالاستيلاء على الشواطئ ليكون له أنزال على البحر تسهّل المواصلة بينهُ وبين مصر . وفى السنة الرابعة من حكمه نفذ ما فى عزمه فغزا هذه الجهات ، ونقش على احدى الصخور المطلة على نهر « الكَلْب » ما يدل على وصوله الى تلك البقعة

محاربة الحثيين — وفى أثناء ذلك كان ملك الحثيين يشتغل بجمع جيش عظيم من جميع أنحاء الشام ليحارب به مصر ، واستمال لذلك جميع ملوك الشام الذين كانوا أعداء لمصر فى قديم الزمان ، فانضمت اليه ملوك « أرواد » و« قادش » و« بلاد النهرين » و« حلب » وغيرها من الولايات السورية ، وضمّ اليه رجالاً من ولاياته التى فى آسيا الصغرى .

ولم يكتفِ بذلك بل استجلب بمال خزائنه الجنود المرتزِقة من آسيا الصغرى وجزائر البحر الأبيض. أما رمسيس فلم يألُ جهداً فى جمع جيش يضاهى جيش عدوه عَدَدًا وعُدَدًا ، وألحق بهِ الجنود المرتزقة من بلاد النوبة وسَرْدَانية ، وقسّمه الى أربعة أقسام جعل نفسه قائداً لأحدها . وسار فى مقدمة الجيش فاصلاً به من مصر فى السنة الخامسة من حكمه أى حوالى سنة ١٢٨٨ ق . م . فأوردهُ بعد شهر نهرَ « أُورُنْت » (العاصى) ، وسار شمالاً متتبعًا مجرى النهر حتى وصل الى التّل المشرف على ذلك السهل العظيم الذى فيه « قادش » حيث نصب معسكره . فمكث فى هذا المكان عدة أيام ، وكانت طلائع جيشه تخبره كل يوم أنهم لم يقفوا للعدو على أثر . وعقب ذلك أتى الى المعسكر المصرى اثنان من أهل البدو وقالا : إنهما شردا من الجيوش الحثية ، وان ملك الحثيين تقهقر شمالاً الى حلب . فصدق ذلك رمسيس ،

واقعة قادش



(رمسيس الثانى فى مركبته الحربية)

وقوّاه عنده ما أخبره به طلائعه من عدم رؤيتهم شيئًا يدل على أن العدو على مقربة منهم ، فنهض فى الحال ، وأخذ قسم الجيش الذى يقوده بنفسه ، وأسرع نحو قادش بعد أن أمر باقى الجيش أن يلحق به ، وعند ذلك اتضح أن ملك قادش هو الذى أرسل ذينك البدويين ليغررا برمسيس . فلما رأى أن حيلته قد أفلحت

مهارة رمسيس وشجاعته

غيَّر وجهة سيره ، وفاجأ رمسيس على غير استعداد ، ففصل بينه وبين معظم جيشه . ولولا شجاعة رمسيس الذاتية التى أدهش بها الأعداء لقضت عليه فرَق العجلات الحثية قضاء عاجلاً ، ولكنه تمكن بتلك الشجاعة النادرة من مقاومة الأعداء حتى تلاحقت به بقية جيوشه فنجا من الخطر المحدق به ، وصد جيوش الأعداء . وبالرغم من ذلك كانت خسارته بلا شك أكبر من خسارة أعدائه . ولم يكد يفرغ من صدم حتى جمع ما بقى من جيشه وعاد الى مصر

خروج أملاك مصر عليها

رجع رمسيس الى مصر عقب هذه الواقعة توًّا بدون أن يحاول محاصرة قادش ، فأثَّر ذلك فى ولاة الشام وفلسطين ونزع من قلوبهم خشية فرعون ، فخرجوا عليه ، وامتدَّ الخروج جنوبًا حتى وصل حدود مصر

ولذلك ابتدأ بعدُ باسترجاع دولته الأسيوية من جديد ، فقضى ثلاث سنوات فى إخضاع فلسطين . وفى السنة الثامنة من حكمه سار بجيش جرار حتى وصل وادى الأورُنت مرة أُخرى ، وهناك أوقع بالحثيين . ثمَّ غزا « بلاد النهرين » ففتح جانبًا عظيمًا منها ، ونصب بها تمثالاً له . ولم يلبث الحثيون ان أثاروا عليه أهل هذه الجهات مرة أُخرى ، فقمعهم جميعًا وخضعت له بلاد النهرين وشمالى سوريا وأرواد وبعض جهات من وادى الأورُنت . ثمَّ استمرَّت الحروب بينه وبين الحثيين حتى كانت السنة الحادية والعشرون من حكمه . وكان ملك الحثيين قد توفى ، وخلفه أخوه ،

عقد محالفة مع الحثيين

فعقد محالفة مع رمسيس على أن يمسكا عن الحرب ، وأن يكونا صديقين الى الأبد، وحدَّدا فى المحالفة حدود أملاكهما

وفى السنة الرابعة والثلاثين أي فى سنة ١٢٥٠ ق . م . حضر ملك الحثيين الى مصر لمشاهدة عجائبها وزوّج احدى بناته لرمسيس

ومن وقتئذٍ لم يخض رمسيس ميدان القتال، واكتفى فى المناوشات الصغيرة التى نشبت بينه وبين اللوبيين وأهل النوبة بارسال قوّاده للقيام بهـا ، وتفرَّغ هو للأعمال الداخلية

أما النتيجة النهائية لحروب رمسيس فهى أنه استردّ معظم أملاك مصر الأسيوية التى فتحها تحتمس الثالث، ولم يفقد شيئاً من ممتلكاته فى الجنوب، بل بقيت حدود مصر ممتدة جنوباً الى « نباتا » بالقرب من الجنادل الرابعة ، وزاد فى أيامه نفوذ مصر فى بلاد النوبة

أهم المبانى التى شيدها رمسيس

قلنا ان رمسيس شيد عدداً عظيماً من المبانى فى جميع أنحاء البلاد . وأهم ما قام به من ذلك انهُ أتم المعبد الذى بدأه والده بطيبة ، وبنى لنفسه هنالك معبداً جميلاً يعرف « بالرّمسيُوم » ، وأتمّ البهو ذا الأعمدة الذى بدأه جده رمسيس الأول بمعبد الكرنك

وقد أكثر رمسيس من اقامة المسلاّت وتزيين مبانيه بالتماثيل، ولا سيما تماثيله ذوات الحجم الهائل التى من أهمها التمثال الذى أقامه بمدينة « تَنيس » (صان) بالوجه البحرى ، وكان علوه نحو ٢٧ متراً ووزنه ٩٠٠ طن ، والتمثال الذى ما زالت بقاياه بالرمسيوم وكان وزنه نحو ١٠٠٠ طن . وقد عُثر حديثاً على تمثال له آخر هائل بالبدرشين ، وهو غاية فى الجمال . وله تمثال من المحبب بدار عاديات « تورين » بايطاليا لا يزال حافظاً رونقه الى الآن



(رمسيس الثانى)
عن جثته المحنطة بدار الآثار المصرية
رسم ف . د . بيرز

ولما كان همّ رمسيس تدبير أملاكه الكثيرة فى آسيا نقل مقرّ ملكه الى مصر السفلى . وبقيت « طيبة » العاصمة الدينية للبلاد ، وكثيراً ما كان يذهب اليها . وبانتقاله الى الوجه البحرى أرجع الى كثير من بلاده رونقها القديم ، فصارت « تنيس » مدينة عظيمة زاهرة ، وشيد بها معبداً من أفخر المعابد . وشيد رمسيس





الرمسيوم (رسم تكيباد)

بلدانًا جديدة بالوجه البحرى ، منها بلدة فى شمالى عين شمس تعرف آثارها الآن « بتَلّ اليَهُودِيَّة »

ومات بعد أن حكم ٦٧ سنة . وقد بلغ إعجاب خلفه به مبلغًا كبيرًا جداً ، حتى ان عشرة منهم سمّوا أنفسهم باسمه على التوالى

الفصل السابع

ابتداء اضمحلال مصر

تمهيد فقد المصريون بالتدريج بعد عصر « رمسيس الثانى » تلك الملَكة الحربية التى رُبِّيت فيهم منذ أيام « تحتمس الثالث » وغيره من مؤسسى الدولة الحديثة . فاضطُر الملوك فى الدفاع عن بلادهم الى استخدام الجنود المرتزقة والأُجَراء من الأجانب (وذلك من بوادر الانحلال فى الأمم) ، واقتصروا على خطة الدفاع بعد ان كان مأرب الذين من قبلهم توسيع نطاق الدولة وبسط نفوذها على غيرها من البلدان . ويا لَيتهم تمكنوا من مجرد المحافظة عليها ، فقد عمِلت على ضعف نفوذ الملك عدة عوامل بعضها داخلية وبعضها خارجية أفضت الى وهن الدولة ذاتها . فمن العوامل الداخلية ان الكهنة أخذوا يبتزُّون شطراً عظيمًا من الثروة ، وقبضوا على جانب كبير من السلطة ، كما قبضت الجنود المرتزقة على جانب آخر . ومن العوامل الخارجية ان البلاد المجاورة لمصر نمت وازداد عدد سكانها ، فعمدوا الى فتح بلاد جديدة يبتغون فيها الرزق ، فانهالت الغارات على مصر من كل جانب : فهاجمها اللوبيون من الغرب ، وزحف عليها سكان جزائر البحر الأبيض من الشمال ومن الشرق أيضًا عن طريق الشام . وظهر فى هذا العصر ملك قوى يدعى « رمسيس الثالث » فقضى حياته فى رد هؤلاء الأعداء . ولما أن توفى لم يقدر أخلافه من الملوك الضعفاء على صدهم ،

فهوت الدولة الى حضيض الاضمحلال بعد أن بلغت من المجد درجة لم تبلغها أمة من قبل

منفتاح

خلف رمسيسَ الثانى ابنُه « منِفْتاح » فحارب حروبًا كثيرة لحماية الملك ، فأطفأ نيران الثورة فى فلسطين وسوريا بعد أن صدّ هجمات اللوبيين الذين اتفقوا مع سكان بعض جزر البحر الأبيض وهاجموا مصر من الغرب ، فردَّهم على أعقابهم ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، وأسر عدداً كبيراً من رجالهم

وكان « منفتاح » مولعًا بالمبانى ، ولم يكتفِ بما أمكنهُ تشييده ، بل فعل ما فعله أبوه من قبله ، اذ كان يمحو أسماء الملوك من الاثار التى شيدوها وينقش اسمه مكانها . وقد فعل ذلك بكثير من آثار والده نفسه ، فكأنَّ أباه قد لاقى جزاءه على يد ولده . وقد قيل ان « منفتاح » هذا هو فرعون موسى ، وانهُ الذى خرج فى عهده بنو اسرائيل من مصر ، غير ان ذلك ما زال مفتقراً الى اثبات

وحكم بعد منفتاح « سيتى الثانى » ، ولم يتمّ فى أيامه شيء عظيم . وحدث بعده نزاع كبير فى شأن من يخلفه أفضى الى تقسُّم السلطة بين الأشراف وعمال النواحى ، وكثرت الفوضى والمجاعات ، وجلس على سرير الملك عدة أشخاص حكم أحدهم بعد الآخر مُدداً وجيزة . فانتهز اللوبيون هذه الفرصة وزحفوا على الوجه البحرى مرة أخرى ، الى أن استولى على الملك رجل قوى يدعى « سِتْنِخْت » فاستأصلهم من مصر وأعاد السكينة فى البلاد ، غير انهُ توفى بعد سنة أو سنتين ، فخلفه ابنه « رمسيس الثالث » الذى هو فى اعتبار أكثر المؤرخين أول ملوك الأسرة العشرين

رمسيس الثالث وحروبه

تولى « رمسيس الثالث » والدولة تهددها الأخطار من كل جانب ، فتمكن بجدّه وشدة بأسه من حفظها من الخطر وإعادة جانب كبير من مجدها

وكان يقطن جزائر البحر الأبيض فى ذلك العهـــد أقوام يسميهم المصريون « سكان البحر » أخذوا يغدون على مصر السفلى من « اقريطِش » (كريت) و « صقلية » وغيرهما ، ثم تحالفوا مع اللوبيين على غزو الوجه البحرى . وكان « رمسيس »

قد نظّم الجيش وعزّزه بالأشداء من الجنود المرتزقة ، فسار اليهم فى السنة الخامسة من حكمه ، وهزمهم شرّ هزيمة فى البرّ والبحر

وكان قوم آخرون من « سكان البحر » قد زحفوا على الشام بعجلاتهم الحربية ومعهم نساؤهم وأولادهم وبضائعهم وماشيتهم ، كأنهم ينوون الاقامة فيها . ووصلوا فى فتوحهم الى نهر الفرات بعد أن اصطلموا الحثيين وخرّبوا بلادهم . ثم همّوا بالزحف على مصر . فقاد رمسيس جيشاً وأسطولاً فى السنة الثامنة من حكمه ، وسار لملاقاتهم ، فهزمهم برّاً على نهر « العاصى » وبحراً على الشواطئ الفينيقية ، فخضعوا له ودفعوا اليهِ الجزية ، ولم يحاولوا الخروج عليهِ بعد ذلك قط

وفى السنة الحادية عشرة من حكمه أغار اللوبيون على شمالىّ مصر من الغرب ، وكان بعض قبائل المغرب قد أجلاهم اليها ، فردّهم « رمسيس » على أعقابهم بعد أن ألحق بهم خسائر كبيرة ، ولم يحاولوا بعد ذلك غزو مصر ، وان كانوا لم يمسكوا عن القدوم اليها طلباً للرزق بالخدمة فى الجيش وغير ذلك

وفى السنة الثالثة عشرة من حكمه ذهب « رمسيس » ثانية الى بلاد الشام ليتمّ إخضاع تلك الجهات . ثم نظّم ممالكه الأسيوية وحصّن حدودها(*) ، وبذلك عادت السكينة الى بلاد الدولة . ثم استراح بعد هذه الحروب الأربع والتفت الى شؤون بلاده الداخلية

رمسيس الثالث والكهنة

ولم يكن « رمسيس الثالث » حاكماً داهياً بقدر ما كان قائداً حربيّاً محنّكاً ، فقد كان للكهنة نفوذ كبير عليهِ ، فوهب للمعابد كثيراً من الثروة والأراضى فوق الكثير الذى حازوه بالتدريج من قبله ، حتى أصبحت ممتلكاتهم فى أيامه تقدّر بنحو ١٥ ٪ من مجموع الأراضى المصرية ، ولم تقل مواليهم عن ٢ ٪ من عدد سكان مصر ، وكان لهم ١٦٩ مدينة فى مصر وسورية وبلاد الكوش . وكان أعظم هؤلاء الكهنة ثروةً كهنة « أمون » بمدينة « طيبة » ، فقد كان لهم ما لا يقل عن

(*) الراجح أنها لم تمتد شمالاً وراء نهر العاصى

ثلثى ما لمجموع الكهنة . وقد ساعدهم ذلك فى عهـد الملوك الضعفاء الذين خلفوا « رمسيس الثالث » على ابتزاز كثير من السلطة السياسية ، حتى انتهى بهم الأمر الى تكوين أسرة ملكية منهم . وسنأتى على بيان ذلك فيما بعد(*)

وأدّى ازدياد قوة الكهنة بالطبع الى اضمحلال قوة الملوك . فاستعانوا على ذلك بالإكثار من الجنود المأجورة . وقد كان هؤلاء الجند والكهنـة سبباً فى كثير من الحروب التى نشبت بعد فى مصر

﴿ اشتراك الكهنة وامراء تنيس فى الملك ﴾

(١٠٩٠ – ٩٤٥ ق . م .)

ضعف نفوذ الملك فى أيام رمسيس الثانى عشر حتى ان « سِمِنْدِس » أحد أمراء « تنيس » تمكن من الاستيلاء على جميع مصر الشماليـة وجعل نفسه ملكاً عليها ، فكان بذلك مؤسس الأسرة الحادية والعشرين

فلم يسع « رمسيس الثانى عشر » الاَّ أن يتراجع الى « طيبة » . ولازدياد قوة الكهنة هنالك لم يكن له من الأمر سوى صبغة رسمية . ولما انتهت أيامه خلفه رئيس الكهنة « حِرْحُور » ملكاً على الصعيد . وكان ذلك سنة ١٠٩٠ ق . م . وفى هذه الأيام كانت مصر قد فقدت نفوذها فى مستعمراتهـا سوى بلاد النوبة ، حتى ان « حرحور » عند ما أرسل مندوباً الى بلاد لبنان ليحضر شيئاً من خشب الأرز لم يعامَل المندوب معاملة حسنة فى الطريق ، ولما قابل أمير الجهة التى أُرسل اليهـا امتنع عن اعطائه الخشب ، ثم قبل اعطاءه اياه على شرط أن يأتيه ببعض الهدايا النفيسة من مصر

المحافظة على جثث الملوك

وكان ملوك « تنيس » فى هذه الأيام يعترفون بزعامة رئيس الكهنة بطيبة . وقد تزوّج منهم من خلفوا « حرحور » ، فتمكنوا من الحصول على الألقاب الملكية ،

(*) قارن ذلك بحالة كهنة « رَع » فى الدولة القديمة

وبعضهم تمكن من الاستيلاء على جميع مصر، وكان من أهم شواغل هذه الأسرة المحافظة على جثث ملوك مصر الأقدمين، لما رأوه من عبث نباشي القبور بها . ولما أن أعيتهم الحيلة في نقلهم من مقبرة الى أخرى وضعوها في مكان خفي بالقرب من معبد «الدير البحري»، وهنالك بقيت نحو ثلاثة آلاف من السنين بدون أن تصل اليها يد السرقة ، حتى جاءت نهضة البحث عن الآثار القديمة في عصرنا ، فكُشف مكانها وانتهى الأمر بنقلها الى دار العاديات المصرية بالقاهرة حيث هي الآن

﴿ حكم اللوبيين في مصر ﴾

(٩٤٥ – ٧٢٢ ق . م)

قضى المصريون في عصر اضمحلالهم زمنًا طويلاً وهم يستخدمون في جيشهم جنود اللوبيين . وكان قادة هؤلاء الجنود من بني جنسهم فاستوطنوا المدن الكبيرة، وصيروا لهم مالاً وعتاداً ، في حين كان الحكام الوطنيون يضعف شأنهم يومًا فيومًا . وما زال اللوبيون يزدادون قوة وهؤلاء ضعفًا حتى قام «شِشُنْق الأول» (شيشاق) أحد قواد الجند اللوبيين المأجورين ، وقبض على زمام الملك، فأسس بذلك الأسرة الثانية والعشرين سنة ٩٤٥ ق م . وكان مقرّ حكومته «بُو بَسْطة» (تل بَسْطة) بشرقي مصر السفلى . وفي أيامه انتعشت مصر بعض الشيء ، وعاد لها بعض نفوذها في فلسطين ولكن ملوك هذه الأسرة لم يستطيعوا ادخال القواد الآخرين في طاعتهم، فانّ هؤلاء كوّنوا لهم عصبيات في أكبر بلاد الشمال . وآل الأمر بالتدريج الى وجود ولايات عديدة بمصر يحارب بعضها بعضًا على الدوام . وما زالت الأمة على هذه الحالة ، تئنّ تحت عبء الخلل والفوضى وغلبة المغيرين من النوبة وغيرهم حتى انتهى العهد اللوبي، وانقضت أيام الأسرة الثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين

﴿ إغارة الأتيوبيين والأشوريين ﴾

(٧٢٢ – ٦٦١ ق . م .)

ارتقاء الاتيوبيين على يد المصريين

تم للمصريين فى أيام الدولة الحديثة غزو بلاد النوبة الشمالية غزواً كاملاً، حتى أن سكان تلك الجهات تمصَّروا، بل وُجد بينهم كثير من السلائل المصرية. وما زالوا يرتقون ويتنورون حتى شعروا بحقوقهم، وأحسوا بأنهم مسلوبون خيرات بلادهم العظيمة وذهبها الكثير. فبقُوا يتدرّجون فى مراقى الرقى الى أن استقلوا بالملك، وكوّنوا لأنفسهم مملكة قائمة بذاتها، مقرّها « نباتا » بالقرب من الجنادل الرابعة. وعند ذلك ظهر ملكهم بجميع مظاهر الفراعنة المصريين، وشيد المبانى ونقش النقوش على الطراز المصرى، ثم استفحل أمرهم واستطار شرهم، فتمكن فى سنة ٧٢٩ ق . م . « بِعَنْخِى » أحد ملوكهم من الاستيلاء على الصعيد الى هِرَقْلُوبُوليس بجنوبىّ الفيوم. وفى أثناء ذلك كان ملوك الأسرة الثالثة والعشرين يزدادون فى الضعف، فلم يبقَ للملك « أُسُرْكُون الثالث » سوى منطقة « بسطة ». وكان فى كل مدينة كبيرة من مدن الوجه البحرى أمير ينازعه فى السلطة. فظهر من بين هؤلاء الأمراء رجل قوى يدعى «تَوْنخْت»، وهو أمير «سايس» (صا الحجر)[1]. فأخضع جميع الأمراء المجاورين له فى الجزء الغربى من مصر السفلى، ثم أغار على الصعيد حتى استولى على مدينة « هِرْمُوبُولِيس »[2]. وعند ذلك أرسل اليهِ « بِعَنْخِى » جيشاً أرجعه الى أرضه. ثم شرع بعنخى فى الزحف على الشمال، فنزل على منف واستولى عليها بعد عناء كبير فى البرّ والبحر. وعند ذلك جاء اليهِ ملوك المقاطعات المختلفة، وأظهروا له الطاعة،

استيلاء النوبيين على مصر

ومن بينهم « أُسُرْكُون الثالث » المنتمى الى الأسرة الثالثة والعشرين والذى لم تزد مكانته إذ ذاك على مكانة غيره من الأمراء. أما « تونخت » فامتنع أولاً عن تقديم

(١) بين طنطا وكفر الزيات (٢) بالقرب من مدينة المنية الحالية

الطاعة ، ولكنهُ قبل ذلك أخيراً وأصبح الحاكمُ على جميع مصر فرعوناً نوبياً . وبعد أن جلا « بعنخى » بجيوشه عن مصر وعاد الى نباتا عاصمة دولته ثار « بُخُوريس » ابن تونخت أمير صا الحجر ، فجمع السلطة فى يده نازعًا ما بقى من الرمق فى الأسرة الثالثة والعشرين . واستولى على سرير ملك مصر السفلى حوالى سنة ٧١٨ ق . م . وقد اعتُبر « بخوريس » مؤسساً للأسرة الرابعة والعشرين ، وان لم يُعلم لها ملك غيره . وبعد جلاء بعنخى عن مصر بنحو عشر سنين ظهرت سلطة النوبة فى الشمال مرة ثانية ، إذ قام « سَبَاكون » أخو بعنخى وخليفته ، وثبّت قدم النوبيين فى مصر . فبدأ بذلك عصراً حكم فيـهِ الملوك النوبيون بدون انقطاع ، وبهذا اعتُبر مؤسساً للأسرة الإتيوبية أو الأسرة الخامسة والعشرين

﴿ إغارة الأشوريين* ﴾

دولة الاشوريين

كان الأشوريون فى هذه المدة قد قويت شوكتهم ، وامتدت فتوحهم ، فاستولوا على الشام وفلسطين ، وأصبحت حدود مصر مهدّدة بإغارتهم . فلما أدرك « سَبَاكون » هذا الخطر أوعز الى ملوك الشام بالخروج عن طاعة الأشوريين ، فتمكن « سَرْجُون » ملك « أشور » فى ذلك الوقت من اخماد الثورة فى الشام وبابل والجزء الشمالى من دولته . وتوفى بعد أن ترك لابنهِ « سَنَحَاريب » فى سنة ٧٠٥ ق . م . دولةً من أكبر الدول الساميّة التى ظهرت فى التاريخ

استيلاء الاشوريين على مصر

ومن ذلك الوقت حدثت عدة معارك بين المصريين والأشوريين بسبب مساعدة مصر لثوار الشام ، الى ان كانت سنة ٦٧٠ ق . م . فدخل مصر « أشورآخى الدّين » ملك أشور بجيش قوى منظّم ساقه حتى أناخ بهِ على منف واستولى عليهـا . ففرّ « طَهَرَاقة » الملك الأتيوبى فى ذلك الوقت وتمّ استيلاء الأشوريين على مصر . ونصّب « أشورآخى الدين » ولاةً وطنيين على أقاليم مصر المختلفة ، أعظمهم « نِخَاو »

(*) ويقال لهم « الأثوريون » أيضاً

وهو من نسل تونخت ، وجعل فوقهم واليًا أشوريًا وعاد الى بلاده

فلم يلبث « طهراقـة » ان رجع من الجنوب وجمع حوله جيشًا عظيمًا أباد بهِ الحامية الأشورية . فأعدّ الأشوريون حملة أخرى دخلت مصر فى أيام ملكهم « أشُور بانيبَال » ، ففرّ « طهراقة » الى طيبة ، واكتفى بتولى حكم الصعيد . ثم خلفه بعد وفاته ابن أخيه « تَنْدَمَان » ، فقوبل بترحاب فى أعلى الصعيد ، ثم استولى كذلك على « منف » الى أن أخرجه حوالى سنة ٦٦٠ ق . م . أشور بانيبال من مصر السفلى وتبعه الى الصعيد حتى مدينة طيبة فدمرها . فكانت هذه آخر قوة كبيرة أرسلها الأشوريون الى مصر

الفصل الثامن

النهضة المصرية

(٦٦٠ — ٥٢٥ ق . م .)

الاسرة السادسة والعشرون

لما توفى « نخاو » أمير صا الحجر ومنف خلفه ابنـه « إبْسَمتِيك الأول » (٦٦٣ — ٦٠٩ ق . م) واليًا على أملاك والده تحت إشراف الأشوريين . فلما رأى أن دولة أشور مشتغلة بإخماد الثورات وتذليل البلاد المجاورة الخارجة عليها ، مثل « بابل » و « عيلام » ، وبلاد العرب ، وأنها آخذة فى الاضمحلال ، شرع فى تقوية سلطانه ، واستعان بملك « ليديا » (بآسيا الصغرى) على التخلص من حكم الأشوريين . ثم تغلب على باقى الأمراء المصريين ، فكان بذلك مؤسس الأسرة السادسة والعشرين

ابسمتيك الاول

ويعتبر « ابسمتيك » من أقوى فراعنة مصر وأعظمهم ، ففى أيامه نهضت مصر من سباتها ، وتخلصت من الضعف الذى لحقها من الفتن الداخلية والغارات الأشورية .

إلاّ أنها لم تكن فى أيام هذه النهضة كما كانت فى النهضات السالفة ، إذ أصبحت الأمة فى ذلك الوقت عديمة الميل للاشتغال بالأمور الحربية . ولم تولّد فيها الغزوات الأخيرة حباً للحرب كما ولدت ذلك فيها غزوة الرعاة . ولذلك أدرك إبسمتيك أن لا حيلة له فى تحقيق أمنيته وإرجاع مجد آبائه العظام الى بلاده إلاّ بالاستعانة بالجنود المرتزقة ، فكوّن جيوشاً من الأشداء ، معظمهم من بلاد الإغريق القديمة وجزر البحر الأبيض . وما فتئ يستعين بهم حتى أمن إغارة الأشوريين واستولى على بعض جهات فلسطين

الضرورة التى دعت الى استخدام الجنود المأجورة فى عهد ابسمتيك

أراد إبسمتيك أن يعيد للبلاد مجدها ، غير أنهُ لم يقتصر على إحياء الحضارة القديمة بأنواعها ، بل عمل على الانتفاع بحضارة الأمم التى أخذت فى الظهور وأربت على المصريين فى الابتكار والابتداع . فظهرت فى الفنون والصنائع دقة لم تُعرف من قبل ، وزال من الرسم والتصوير تلك الرموز والقيود الرسمية التى كانت تذهب فى الأزمنة الأولى بكثير من رونق الصور وروعتها

الحضارة المبتكرة فى زمن ابسمتيك

﴿ استيطان الإغريق الأوائل فى مصر ﴾

رأى إبسمتيك ضرورة الاختلاط بالأمم البحرية النازلة على شواطئ البحر الأبيض ممن ارتقت حضارتهم ، واتسعت تجارتهم ، وراجت صناعتهم : ولذلك جعل مقره مدينة «سايس» (صا الحجر) بشمالىّ مصر ، وسهل لهم التجارة فى بلاده ، فأصبح الوجه البحرى مورداً ترد اليهِ التجار من البلاد الفينيقية والسورية وخاصة الإغريقية

وقد ذكرنا فيما تقدم أن (سكان البحر) الذين منهم الإغريق كانوا يردون إلى مصر منذ القرن الثامن ق . م ، ولكن مجيئهم إذ ذاك لم يكن بهذه الكثرة ، ولم يقابَل بذلك الترحاب الذى قوبل به فى عصر إبسمتيك

ورود الاغريق

وفى هذا الوقت كان الإغريق آخذين فى الانتشار والاستعمار . فبعد أن ملكوا شبه الجزيرة الإغريقية وجزر الأرخبيل نزلوا فى عدة أماكن على شواطئ البحر

الأبيض . وكانوا كلما حلوا بجهة أوجدوا بها حركة تجارية وشيدوا المعامل الصناعية . فرأى إبسمتيك أن مجيئهم الى بلاده واستيطانهم بها مما يفيد البلاد ، فرحب بهم ومنحهم أراضي يقيمون بها بالقرب من « بسطة » ، وكان لهم أيضاً بمنف حي خاص بهم ، فاستوطنوا مصر ونشروا فيها تجارتهم وشيدوا مصانعهم . فهذا العدد العظيم ، مضافاً اليه جند الإغريق المأجورون بالجيش ، لم يخلُ أمرهم من التأثير في حالة البلاد . غير أن تأثيرهم الأكبر كان في الملوك لا في الأمة ذاتها ، وذلك لشدة تعصبها وتمدحها بمجد أجدادها السالفين . وقد بلغت شوكة الإغريق في مصر درجة كادت تُضعف سلطان الملك . على أن المصريين أنفسهم كان لهم تأثير محسوس في الإغريق ، فقد نقل هؤلاء عنهم شيئاً كبيراً من أصول التصوير وعمل التماثيل ، كما نقلوا كثيراً من علمهم وفلسفتهم ولا سيما ما يختص بالإلهيات

تأثير الاغريق في مصر

ازدياد شوكة الاغريق في مصر

تأثير مصر في الحضارة الاغريقية

النهضة المصرية في عهد الاسرة السادسة والعشرين

بعد أن توفي إبسمتيك خلفه ابنه « نخاو » (٦٠٩ — ٥٩٣ ق . م) فتبع خطة أبيه في السعي وراء استرجاع مجد مصر لاسترداد الممالك التي كانت لها في أيام تحتمس الثالث ورمسيس الثاني . فاستمر في ادخال الإغريق في مصر وترقية الفنون والصنائع ، وزاد كثيراً في عدد الجيش ، وبنى أسطولاً حربياً للبحر الأبيض ، وآخر للبحر الأحمر . وفي أول سنة من توليته شرع في استرداد ممتلكات مصر في سورية ولما كانت دولة الأشوريين اذ ذاك في أقصى درجات الضعف والاضمحلال تمكن من غزو جميع سورية واسترداد جميع الأملاك الأسيوية التي امتلكها أجداده من قبل . ولكن من سوء الحظ لم تبقَ هذه البلاد في يده طويلاً ، وفي أقل من سنتين تمكن البابليون والميديّون * من التغلب على دولة اشور واقتسام أملاكها ، فكانت سورية من نصيب « نَبُوبُولَصَّار » ملك البابليين ووالد « نَبُوخَذ نُصَّر » (بُخْتُنَصَّر) المشهور . فأرسل ابنه بجيش لمحاربة نخاو ، فهزم المصريين بجهة « قرقيش » (٦٠٥ ق . م) ولولا رجوع « بختنصر » قائد الجيوش البابلية الى بلاده بسبب وفاة والده لدخل

محاولة البابليين الاستيلاء على مصر

* انظر الفصل التالي

البابليون الديار المصرية . ومن بعد هذه الواقعة لم يحاول « نخاو » استرداد الأراضى الأسيوية وتفرغ للاصلاحات الداخلية

ومن أعماله أنه شرع فى كرى الخليج الموصل بين البحرين الأبيض والأحمر عن طريق فرع النيل الشرقى ، وهو الذى أنشأه سيتى الأول ورمسيس الثانى ، ولكنهُ لم يتمكن من اتمام عمله

الطواف حول افريقية

ومن أعماله أيضاً أنهُ أرسل عدداً من الملاحين الفينيقيين للطواف حول إفريقية ، فأتموا السياحة فى ثلاث سنوات

وبعد وفاته خلفه « ابسمتيك الثانى » ، ولا يُعلم عن أيامه شىء هام سوى انه غزا بلاد النوبة حتى بلغ الجنادل الثانية ، ولم يكن لذلك نتيجة باقية

ثم خلفه « أبْرِيس » (وهو فرعون المعروف على الآثار باسم حفْرَع) . وهذا الملك ورث عن أجداده الشجاعة وعلو الهمة وحب الفنون الجميلة ، وقد شيد بمدينة « سايس » معبداً من أجمل المعابد ونصب أمامه عدداً من التماثيل الضخمة وأصنام أبى الهول . وفى أول حكمه اشترك فى غارة على البابليين لم يجن من ورائها ثمرة سوى الاستيلاء على بعض المدن الفينيقية ، وفى أواخر أيامه أرسل قوّة لمساعدة اللوبيين على الإغريق المستعمرين لمقاطعة « قيرينيقيا » بشمالى إفريقية (برقة) ، ولم يرسل طبعاً فى هذه الحملة أحداً من الإغريق المأجورين ، فانهزمت الجنود الوطنية شر هزيمة واختاروا « أحْمِس الثانى » (أمَسيس) ملكاً للبلاد بالرغم من مقاومة جند « ابريس » اليونانيين . ولما تولى « أحمس الثانى » سنة ٥٦٩ ق . م . لم يحنق على الجند اليونانية بل نقلهم الى منف وجعلهم حرساً له . ثم عضد الحركة التجارية وأباح لتجار الإغريق الاستيطان بمدينة « نُقْراطيس » (نُقْراش) ، فكانت بمثابة مستعمرة لهم ، ومنها انتشروا فى جميع أنحاء مصر واتجروا مع المدن التى على شواطئ البحر الأبيض

استيطان الاغريق بمدينة نقراطيس

وكان فى أول أيامه على خلاف مع البابليين ، فأصلح ما بينهُ وبينهم ، واتفق معهم ومع الليديين وغيرهم من الأمم الغربية (٥٤٧ ق . م .) على مقاومة دولة

« فارس » التى ابتدأت فتوحها إذ ذاك تمتد شرقًا وغربًا ، ولكن اتفاقهم لم يفلح ، فأسقط « كورش » (ملك الفرس) دولة بابل ، وغُلِبَ الميديون على أمرهم . ولولا أن أحمس لحقتهُ المنية فى سنة ٥٢٥ ق . م . لرأى بعينه الجيوش الفارسية تقرع أبواب بلاده

مصر أحمس الثانى — وكان أحمس من أحزم ملوك مصر وأكثرهم نشاطًا ، وفى أيامه استولى المصريون على جزيرة قبرس فدفعت لهم الجزية ، وكانت البلاد فى عهده فى رقىّ ونعيم ، حتى قال هيرودوت انه كان بمصر وقتئذٍ ٢٠٫٠٠٠ مدينة

ومن أعماله أنهُ نقّح القوانين المصرية ، ولما حضر « صُولون » المشرّع الإغريقى الى مصر فى تلك الأيام اختار بعض تلك القوانين وعمل بمقتضاها فى « أثينا »

الفصل التاسع

الفرس وفتحهم لمصر

﴿ تمهيد ﴾

منشأ الفرس — الفرس أُمة شرقية ذات حضارة قديمة استوطنت « ايران » وأنشأت بها دولاً فى زمن غير معروف ، وأول ما عُرف من أمرهم يقينًا أنهم كانوا خاضعين لسلطان « الميديّين » ، وهم أُمة قريبة منهم جداً فى الجنسية كانت تمتد بلادهم شمالىّ بلاد الفرس وغربيها ، ويحدّها من الشمال الشاطئ الجنوبى لبحر « قَزْوِين » . غير أنهُ فى أواسط القرن السادس قبل الميلاد (٥٥٠ ق . م .) قام من بين الفرس رجل

الميديون — يدعى « كُورِش » تغلب على ملك الميديين وأسس دولة الفرس المملوءة التاريخ . ومن يوم انتصاره انتقلت العظمة والسلطان من الميديين الى الفرس

الليديون

وبعد ان استولى «كورش» على «ميديا» أخذ فى بسط سلطانه على ما جاوره من البلاد ، وما زال كذلك حتى وصلت فتوحه الى أبواب بلاد «الليديين» . والليديون هم أمة كانت تشغل جزءاً كبيراً من آسيا الصغرى ، وكانوا على جانب عظيم من الحضارة والتقدم ، ولهم شهرة فائقة فى الصنائع والموسيقى والتنعم والبذخ ، ولملكهم «كريسوس» (قارون) صيت هائل فى الغنى ، حتى ليضرب به المثل فى ذلك .

استيلاء الفرس على ليديا

فلاقى كورش صعوبة كبيرة فى التغلب عليهم ، ولكنه تمكن بعد من ذلك بفضل قوته ومهارته الحربية ، فانضمت ليديا أيضاً الى بلاد الدولة الفارسية سنة ٥٤٦ ق . م .

وفى سنة ٥٣٨ . ق م . تغلب على البابليين وضم بلادهم الى دولته ، وما زال يوسع نطاق هذه الدولة العظيمة حتى صارت تمتد من شواطئ «البسفور» غرباً الى نهر «السند» شرقاً . ولقد لقب كورش «بالأكبر» و «بمؤسس الدولة الفارسية العظيمة» لهذه الأعمال العظيمة التى قام بها

وتولى الملك بعده ابنه «قمبيز» ، ومن بعده «دارا الأول» ، وكان أيضاً ملكاً عظيماً ، فقام بتتميم ما بدأه «كورش» ، فوطد السكينة فى البلاد واستولى على «البنجاب» فى الهند وعلى بعض البلاد التى فى شمالى بلاد الإغريق

استيلاء الاسكندر على فارس

ثم تولى بعده «إجزرسيس» (أرتخششا) ومن بعده بفترة قصيرة «أرتجزرسيس الأول» (أرتخشيارش) ، ثم «دارا الثانى» ثم «أرتجزرسيس الثانى» ثم «أرتجزرسيس الثالث» ثم «دارا الثالث» وهو آخر ملوك الدولة الفارسية القديمة . وفى أيامه استولى الاسكندر على فارس سنة ٣٣٠ ق . م . كما سيأتى بعد*

ولنرجع الآن الى علاقة مصر بفارس فنقول :

* وبعد ذلك بقيت فارس مدة من الزمن تابعة لغيرها أو بعضها تحت حكم ملوك الطوائف حتى سنة ٢٢٧ بعد الميلاد حيث عاد لها استقلالها أيام الدولة الساسانية وأخذت فى توسيع نطاق ملكها فصارت دولة عظيمة . ثم أخذت فى أسباب الضعف بعد أيام «كسرى أنو شروان» أى من أواخر القرن السادس بعد الميلاد . وما زالت كذلك حتى استولى عليها العرب فى القرن السابع

﴿ اغارة الفرس على مصر ﴾

عند وفاة احمس خلفه ابنه « ابسمتيك الثالث » ، وفى أيام هذا الملك شرع الفرس فى غزو مصر بعد أن أعدّوا لذلك المعدات الكبيرة ، فجاء ملكهم « قَمْبِيز » بجيش جرّار لفتح البلاد التى طالما تاقت نفس سلفه الى اخضاعها . وكانت مصر اذ ذاك منيعة التحصين ، ويقول مؤرخو الإغريق أنفسهم ان أحد الجنود اليونانية خان المصريين ودلّ الفرس على أسهل الطرق التى يمكنهم منها أن يدخلوا البلاد ، فهوجمت مدينة « بِلُوز » (الفَرَما) بحراً ، وزحفت الجيوش الفارسية على مصر برًّا ، وبعد مقاومة شديدة بجهتى بلوز ومنف سقطت البلاد ، وأخذ « قبيز » ابسمتيكَ أسيراً ، فانتهت بذلك أيام الأسرة السادسة والعشرين .

استيلاء قبيز على مصر

وبعد أن استولى قبيز على مصر فى سنة ٥٢٥ ق . م أعدّ ثلاثة جيوش تقصد ثلاث جهات مختلفة : الأولى « قرطاجنَّة » والثانية واحة أمون (سيوة) والثالثة بلاد النوبة . فلم تفلح الأولى بسبب امتناع الفينيقيين عن العمل مع أنهم كانوا أهم رجال سفن الجيش الفارسى . وكانت الثانية طامة كبرى على قبيز ، اذ أن الجيش الذى أرسله فيها وقدره ٥٠،٠٠٠ مقاتل هلك فى الصحراء ولم يُسمع عنهُ شىء . أما الثالثة فتمكنت من غزو بلاد النوبة ، إلاَّ أنها عند عودتها صادفتها عاصفة رملية بالقرب من الجنادل الأولى كادت تقضى على جميع رجالها

وكان « قبيز » فى أول أمره سالكاً مسلكاً حسنًا فى معاملة المصريين ، يحترم دينهم وعاداتهم ، ولكنهُ لما لحقهُ كل هذه الخسائر ، ورأى شماتة المصريين بهِ أخذ منهُ الغضب كل مأخذ ، فحنق على البلاد ومن فيها ، وغيّر معاملته لهم بالمرة ، فبدت منهُ القسوة بجميع ضروبها ، وكرّ على المعابد والهياكل فهدَّمها ، وقتل بيده العجل أبيس أثناء أحد الاحتفالات الكبيرة . وعند عودته الى فارس مات فى الطريق سنة ٥٢١ ق . م .

دارا الأول

ولما تولى ملك فارس « دارا الأول » زار مصر وأراد أن يصلح ما أفسده قمبيز ، فأبدى احتراماً كبيراً لديانة المصريين ومعبوداتهم وشيّد هيكلاً عظيماً للمعبود أمون بواحة سيوة الكبرى . وعضد التجارة وشيد كثيراً من المدارس وفتح الخليج السالف الذكر الموصل بين النيل والبحر الأحمر ، وأصلح الطريق بين « قِفْط » وشاطئ البحر الأحمر المار بوادى الحمامات . وكانت الضرائب التى ضربها على المصريين ثقيلة ، إلاَّ أنها كانت تُجبى بسهولة لتوافر الخيرات بالبلاد

طرد الفرس من مصر

ورأى المصريون فى آخر أيامه ما لحقه من الخسائر فى واقعة « مَرَتون » فى حربه مع الإغريق * فخرجوا عن طاعته ، وطردوا الفرس من البلاد بقيادة أحد الأمراء الوطنيين سنة ٤٨٦ ق . م

غزوة الفرس لمصر من جديد

ولما تولى « إجزرسيس » ملك فارس غزا مصر من جديد ، فأصر المصريون على الثورة مرة أخرى ، وفى أيام خلفه « ارتجزرسيس » ثاروا على الفرس بمساعدة ملك « لوبيا » وأسطول إغريق ، فأخمدوا ثورتهم بعد قتال طويل

الاسرة السابعة والعشرون (فارسية)

وبعد ذلك بقيت البلاد هادئة فى زمن « اجزرسيس الثانى » ومعظم أيام « دارا الثانى » الى أن هلك ، فتمكن المصريون بمساعدة الإغريق من التخلص من حكم الفرس ، وكان ذلك سنة ٤٠٥ ق . م . ويعرف ولاة الفرس هؤلاء بالأسرة السابعة والعشرين

﴿ الأسرة الثامنة والعشرون الى الأسرة الثلاثين ﴾

خروج الفرس مرة ثانية

طرد « أمِرْتوس » (أمنروت) الفرس من مصر واستولى على سرير الملك ست سنين . ولم يخلفه احد من نسله ، بل آل الملك بعده الى ملوك الأسرة التاسعة والعشرين ومن بعدهم الى الأسرة الثلاثين التى أسسها « نَخْتَنَبُو الأول » (نَقْطانِب) . ولم تكن مصر على جانب عظيم من القوة فى الفترة التى بين خروج الفرس وبين أيام

* راجع حروب الفرس مع الاغريق

هذا الملك، ولكنها نهضت فى عصره من رقادها نهضة لم تكن إلاّ بمثابة صحوة الموت،
غزوة الفرس مرة ثالثة — اذ أنه فى أيام آخر ملوك هذه الأسرة المدعو «نختنبو الثانى» تمكن الفرس سنة ٣٤٠
ق . م من دخول مصر مرة آخرى بعد أن غابوا عنها ٦٥ عاماً . وبذلك انتهت أيام
الفراعنة بعد أن حكموا فى وادى النيل نحو ٤٠٠٠ سنة ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة

انتهاء دولة الفراعنة — فكأنّ مصر قد علّمت العالم سياسة الملك ونشر الحضارة ، فأظهرت فيه أمماً
قوية عديدة ، ولكنها هرِمت بعدُ ، وأصبحت غير قادرة على الجولان فى ذلك المضمار
الذى يتسابق فيه أبناؤها بما لهم من قوة الشباب وجديد الهمة . وهكذا حال الأمم،
تصعد ثم تنخفض : « فما طار طير وارتفع ، الأ كما طار وقع »

الفصل العاشر

كلمة فى الحضارة المصرية القديمة

ان الآثار الكثيرة المُنبثّة فى جميع أنحاء الدنيا تُفصح بأجلى بيان أن قدماء المصريين
بلغوا فى الحضارة درجة لم تسبقهم اليها أمة من الأمم القديمة . وهى وإن كانت
لا توازى حضارة العصور الحاضرة المشيدة على دعائم العلم وتذليل قوى الطبيعة ،
تُعتبر بلا شك عظيمة جداً بالنظر لوجودها فى تلك الأزمنة الغابرة . ولم تكن قاصرة
على ما يكون الغلَب فيه للقوة والسلطة والصبر والمثابرة ، كتشييد الصروح الشاهقة
وشقّ الأنهار واقامة السدود (الخزّانات) بل أضافوا الى ذلك أنواع الحضارة الأخرى
من مظاهر التنعم والرفاهية والتأنق وإيثار السرور ، وحب العلم ، والميل الى الفنون
والأشياء الجميلة . ونفصّل هذه الأمور بعض التفصيل فنقول :

﴿ الزراعة وتربية الحيوان ﴾

عند قدماء المصريين

موافقة البلاد للزراعة

كانت الزراعة ، ولا تزال ، هي الوسيلة الطبيعية لمعيشة المصريين وسعادتهم . ولذلك كان أشرافهم يُشرفون بأنفسهم على الزُّرّاع ويعملون بأيديهم كل ما يؤدّى الى طيب الزرع وخصب التربة

حاصلات مصر القديمة

ولم تكن طرق الزراعة تختلف كثيراً عما هي عليه الآن ، وكان أهم ما يزرعون القمح ثم الكتّان والذرة وحبوب أخرى . وكانوا يُعْنَوْن بالحدائق والبساتين ، وكان لها عندهم نظام دقيق تكثر به الفواكه وتفرُه ، وكان العنب والتمر اكرم الثمار التى اشتهرت بها مصر فى تلك الأزمان الخالية

أما ريّ الأرض فكانوا يستعملون فيه طريقة الأحواض فى الأرض التى يعلوها النيل ، وطريقة الدلو والدالية (الشادوف) فى غيرها

اشهر حيوانها

وكان لهم عناية عظيمة بتربية الحيوان ، ويقتنون من قُطعان البقر والغنم والمعز ما لا يزيد عليه إلاّ الإوزّ والدّجاج ، وكانت الحمير من دوابهم المشهورة ، يسخرونها فى كثير من الأعمال . أما الخيل فلم يُعرف أنهم استعملوها قبل عهد الرعاة . وقد

التفريخ الصناعي

ظهر الآن لعلماء أوربا أن مهارة المصريين فى التفريخ الصناعى لبيض الدّجاج ليست قاصرة على اختراعه فقط ، بل أن طريقتهم لا تزال أفضل الطرُق مع ما بلغتهُ الأمم الحديثة من التقدم فى العلوم الطبيعية

﴿ الصناعات ﴾

نسج الكتان

كان قدماء المصريين يُحسنون كثيراً من الصناعات ، مثل صناعة نسج الكتّان الرقيق والصفيق ، وصناعة الأنسجة وصناعة الخزَف والزُّجاج وسبك المعادن من النُّحاس والشَّبَه (البرنز) والفضة والذهب . ولم يرد للحديد ذكر فى آثارهم

صناعة الحلى — وكان لهم مهارة غريبة فى صناعة الحِلى . وفى دار العاديات بالقاهرة بعض حلى أمراء الأسرة الثانية عشرة فى حالة من الإتقان لا تمتاز عنهــا الحلى التى تصنع فى العصر الحاضر

النجارة — وكذلك كانت صناعة النجارة ، فلم يكد ينقصهم شيء من الآلات المستعملة فيها الآن ، فيتخذون المصنوعات الكبيرة الحجم من خشب الجُمَّيْز ونحوه ، والأثاث النفيس من الأخشاب الفاخرة المجلوبة من الممالك المجاورة ، كآبَنوس السودان وأرْز لُبنان وغيرهما*



(كرسى مصرى قديم)
بدار الآثار المصرية   رسم ف . د . بيريز
(مثال من دقة فن التجارة عند قدماء المصريين)

صناعة الجلود — وكانوا يُحسنون صناعة دبغ الجلود ويُدخلونها فى كثير من أثاث المنازل ، فيتخذون منها المساور والمخدَّات ومقاعد الكراسى والأرائك ، ويصنعون منهــا سيوراً لربط

---

* وقد عُثر بين آثارهم على صورة جميلة بها طائفة من النجارين يشتغل كل منهم فى العمل المختص به ، ويرى الناظر فيهم شخصاً مشتغلاً بقدر على نار يظهر أنها قدر اذابة الغراء

الجثث المحنطة منقوشة نقشاً جميلاً ، ويزينون بالجلد الملوّن كثيراً من الآلات كالقيثار وغير ذلك مما لا ينقص عما تُستعمل فيه الجلود الآن

صناعة الورق

ومن أهم الصناعات التي أجادها المصريون صناعة الورق المتخذ من نبات البَردي. فكانوا يشقّون سوقه شرائح يوضع بعضها بجانب بعض ، ثم يوضع كذلك فوقها طبقة أخرى شرائحها مقاطعة للأولى، وتُلصَق الطبقتان بالغِراء وتُكبَسان وتُصقَّلان . وبقيت هذه الطريقة مستعملة الى أوائل القرن الثالث من الهجرة ، وكان ورقها يسمى « القِرطاس المصرى »

استعمال النقود

وقد برع المصريون فوق ذلك فى صناعات كثيرة ، مثل بناء السفن والقوارب ، لقلة طرُق المواصلة عندهم غير النيل ، ومثل عمل التماثيل والأصنام من الخشب والحجر والطين والجص ، وصناعة الآلات الموسيقية والآنية المتخذة من المعادن وحجر المرمر والرخام، وصنع الآلات الحربية وغير ذلك مما أثبت بلا شك عظم تأثير مصنوعاتهم فى تقدم الفنون الجميلة الإغريقية

﴿ التجارة ﴾

تعوّد المصريون التجارة من أقدم أزمانهم، فكان النيل والتُّرع غاصة بالقوارب التى تحمل الحاصلات المختلفة ، ويجتمعون فى أسواق لا يقل ازدحامها عن ازدحام أسواق الوقت الحاضر. غير أنهم لم يعرفوا استعمال النقود فى بادئ الأمر ، بل كانوا يستبدلون بعض السلع ببعض ، ثم اتخذوا من الذهب والفضة حَلَقاً وسبائك وقضباناً يتعاملون بهـا فى تبادل الأشياء الكبيرة ، فكانت على ما نعلم أول نوع استعمله الانسان من النقود

جول البحار

وما زالت تجارتهم فى نموّ حتى سلكوا البحار ، ونظموا سير القوافل ، ووصلوا النيل بالبحر الأحمر ، وبعثوا بالبعوث البحرية للكشف عن البلاد المجهولة ، حتى صارت سفنهم تسلك البحار من المحيط الهندى الى بحر إيجة

المواد التي أتجروا فيها

وكانوا يجلبون من النُّوبة والسودان الذهب وريش النَّعام والآبنوس والعاج والجلود ، ومن بلاد « بنت » وما وراءها المرّ وأنواع الصموغ العطرية والأخشاب ذات الرائحة الذكية ، ومن الشام خشب الأرز ، ومن طور سينا المعادن وبعض الأحجار الكريمة

ويحملون الى الممالك المجاورة لهم مصنوعاتهم: من خزف وزجاج وكتَّان وورق ، وقد وُجدت آثارها في جزيرتي قبرص ورودس . وارتقوا في التجارة الى استنباط طرُق مسك الدفاتر ، وضبط المحاسبات ، وكتابة العقود والمشارطات والوصول والصكوك ، والنَّظِرة بها الى آجال مختلفة ، وغير ذلك من ضروريات التجارة الراقية

﴿ العلوم والمعارف ﴾

لا يزال الباحثون يزيدوننا كل يوم علماً جديداً بعظم مبلغ المصريين من العلوم والمعارف ، وستدوم الحال على ذلك دهراً طويلاً . فتلك آثارهم ومبانيهم الضخمة ، ونقوشهم البديعة ، وكتابتهم العجيبة في الصوّان من غير أن يستعملوا الحديد والفولاذ أو يعرفوا الآلات الرافعة التي تُستعمل الآن ، تدلنا على درجة نبوغهم في كثير من العلوم والفنون

الفلك

ولصفاء جو مصر كان المصريون من أقدم الأمم التي اشتغلت بعلم الفلك ، وإن لم يتفق كثير من آرائهم فيه مع العلم الحديث . وقد أجمع مؤرخو اليونان أن أمتهم لم تأخذ هذا العلم إلاَّ عن المصريين ، وانهم كانوا يشتغلون به في وقت لم ينافسهم فيه الاَّ الكَلْدَانيون . وقد عُثر في بعض المقابر على آلات للرصد ومصوَّرات عجيبة لشكل السماء ومواقع نجومها ، كما عُثر لهم على بعض حسابات دقيقة تدل على نُبْغهم في علم الميقات والتقويمات . فهم أول من حسب طول السنة بالتقريب ، وكان ذلك سنة ٤٢٤١ ق . م وهو أول تاريخ مدوَّن معروف . ويقال إن الهرم الأكبر كان له عندهم فائدة كبرى في حساب حركات الكواكب

العلوم الرياضية وفن الهندسة

أما العلوم الرياضية فالظاهر أنهم لم يبلغوا مبلغاً عظيماً فى النظرى منها ، سواء أكان فى علم الحساب أم الهندسة النظرية ، ولكنهم ضربوا بسهم وافر فى الفنون العملية المتعلقة بها كفن الهندسة والعمارة . وحسبنا دليلاً على ذلك أن « مينا » تمكّن فى ذلك العهد البعيد (٣٤٠٠ ق . م) من بناء سدّ عظيم حوّل به مجرى النيل ، وأن «مرنرع» و «أسرتسن الثالث» حفر كل منهما قناة فى صخر الصوّان ، الأول سنة ٢٥٧٠ ق . م والثانى سنة ١٨٨٧ ق . م . وأن « امنمحت الثالث » شيّد ذلك الخزان العظيم الذى ادّخر به جزءاً كبيراً من مياه الفيضان وأحيا بلاداً شاسعة فى اقليم الفيوم

الكيمياء

وأما علم الكيمياء وخَلط المعادن فقد كان لهم فيه قدم راسخة : يدل على ذلك اتخاذهم من الشَّبَه (البرنز) آلات صلبة يتيسر لهم بها قطع أحجار الصوان ، وكذلك تحنيط الموتى تحنيطاً أبقى أجسادهم ألوفاً من الأحقاب ، ثم تركيب الأصباغ الثابتة التى لا تتألف الا بعد دراية عظيمة بخواص الحُموض والأملاح والأصداء والعضويات

الطب

وساعدهم علمهم بالكيمياء فى صناعة الطب والجراحة ، فلم يفضلهم فيهما من الأمم القديمة الا اليونان بعد عصور طويلة ، وإن كانت دياناتهم قد عاقتهم عن فهم تركيب الإنسان فهماً صحيحاً بتحريمها التشريح

الفلسفة والقوانين

وهم كانوا مصدر العلوم الفلسفية والقوانين الإدارية ، وعنهم أخذتها الأمم المجاورة لهم ، وقد وفد اليهم من واضعى القوانين « ليكرْغ » و « صُولُون » ، ومن الفلاسفة « فيثاغورِس » و « أفلاطون » و « إقليدِس »

ومما يُؤسَف له أن معظم علم المصريين لم يُحفظ حتى يصل الينا ، لأن أكثر علمهم كان عملياً يتوارثهُ الولد عن والده بدون تدوين الا ما ندر ، لقلّة الجامعات والمدارس المفتحة الأبواب للخاصة والعامة بالنظام المعروف الآن . نعم ان « مَنف » و « طيبة » و «عين شمس» كانت مهداً للعلوم والمعارف، ولكنها كانت مقصورة على أولاد الملوك والأمراء وأبناء بطانتهم ، أو على الكهنة وتلاميذهم

﴿ المبانى ﴾

من أهم ما اشتهر به المصريون مبانيهم العظيمة الدالة على عظيم سلطانهم ، وسعة حضارتهم ، ورقيع رتبتهم فى العلوم عامةً ، وفن العمارة خاصة

مميزات المبانى المصرية

ولم تكن مبانيهم بالطبع فى مبدأ عصورهم بهذه الفخامة والعظمة، بل كانت تُبنى باللبن والآجر . ثم اقتلعوا الأحجار العظيمة خصُّوا بها بناء أهرامهم ومعابدهم ونحتوا منها مسلاَّتهم، وضنُّوا بها على بناء مساكنهم فلم يبق منها الاَّ بقايا متخربة. ومما تمتاز به مبانيهم ان قواعدها غالباً مستطيلة أو مربعة وأعلاها أضيق من أسفلها ، ولم يحاولوا زُخرُفها بتدوير زواياها أو اقامة القباب والمنائر والأبراج عليها . وبالرغم من كل ذلك تمتاز مبانيهم بأن منظرها مُشعر بعظم القوة ، وضخامة السلطان ، وسعة العلم ، ودقة الصنعة

﴿ التصوير وصناعة التماثيل ﴾

طروء الرمز والاصطلاح فى التصوير

كان للمصريين ولَع عظيم بالرسم والتصوير، وميل الى استعمال الأصباغ الزاهية التى يتألف من اجتماعها منظر أنيق لا يُكل البصر ولا يُفرقه . وكان لهم ذوق سليم فى رسم النبات والحيوان ، وكانت صوَر الأناسيّ وتماثيلهم غاية فى الاتقان وملاءمة الطبيعة ، غير انه طرأ عليها بعد عهد الأسرة الخامسة شىء من الاصطلاح والرمز أضاع بعض رَوعتها وتناسُبها وإن لم يذهب باتقانها . ومن أبدع التماثيل التى وصلت الينا من تلك العصور البعيدة علاوة على تماثيل الملوك الذين تكلمنا عليهم : (١) التمثال الخشبى المعروف بشيخ البلد . (٢) تمثال (رَعَ نُفر) أحد كهنة منف . (٣) الأميرة المصرية القديمة (نِفرْت) وزوجها . (٤) تمثال الكاتب . وجميعها من عهد الدولة القديمة ومحفوظ الآن بدار الآثار المصرية

(١)



(٢)



(٤)



(٣)



نماذج من التماثيل المصرية { (١) شيخ البلد (رسم علي افندي يوسف) . و (٢) الكاتب . و(٣) الاميرة نفرت وزوجها . و (٤) رع نفر (رسم ف. د. بيرن)

﴿ الكتابة واللغة ﴾

لا يكاد يوجد شك فى أن الكتابة المصرية أقدم كتابة فى العالم. والأرجح أن الفينيقيين أخذوها عن المصريين ببعض تغيير، وعن الفينيقيين أخذت الأمم. فكانت أساساً لكتابة جميع الأمم المتمدينة فى العصر الحاضر

تدرج الكتابة الهيروغليفية

ونشتهر الكتابة المصرية باسم « الكتابة الهيروغليفية »، وكانت فى أول أمرها مكوّنة من صور الحيوان والنبات والأشياء المتداولة : كل صورة منها رمز لمعنى أو معنيين أو أكثر. ثم دخل عليها بعض تنقيح واختصار، فنشأت منها الكتابة « الهيراطيقيّة »، ثم هذبت هذه أيضاً ونشأت الكتابة « الدِّيمُوتيقيّة »، غير أنهما لم تَنسَخا الأولى، وبقيت تُستعمل فى النقش على المبانى والآثار الدينية. وقُصِرت الحديثتان على المكاتبات التجارية والتأليف وكل ما ينبغى فيه السرعة

اللغة المصرية وآدابها

أما اللغة المصرية فقد تقلّبت فى أطوار عديدة انتهت باللغة القبطية الأخيرة التى بقيت الى حوالى القرن الرابع عشر بعد الميلاد. وبالرغم من اختلاف تلك اللغات كان لهم لغة رسمية تحاكَى فى كل عصر من عصورهم فى معظم كتاباتهم الأثرية. ويظهر من ألوف أوراق البَردى التى عثُر عليها ومن نقوش هياكلهم أنه كان لهم لغة ذات آداب راقية وشعر رقيق نظموا به كثيراً من القصص والأغانى، وكتبوا كتباً شتى، غير أن معظم ما وصل منها الينا ليس إلاّ قطعاً مشتتة لا يتأتى تأليف كتاب واحد منها. وأهم مجموعة وصلت الينا هو « كتاب الموتى » المشتمل على معتقداتهم وأخبار آلهتهم ومواعظهم وزواجرهم

﴿ العادات والأخلاق ﴾

وصل الينا كثير من عادات قدماء المصريين من أشهرها :

انهم كانوا يتوارثون الحِرَف والصناعات، ويتناولون ما ينقى المعدة كل شهر،

ويتزوجون بالاخت ، ويجمعون بين التمتع بطيب العيش والتخشن فيه ، وينهون عن الانهماك فى الترف

حب الموسيقى — ومن عاداتهم صنع الولائم فى المواسم والأعياد ونحوها فى وقت الظهر ، فيحضرها الرجال والنساء ، فيأكلون ويشربون على سماع الموسيقى وغناء الرجال والنساء ، ثم يدخل الراقصون والراقصات فتعزف الموسيقى ويصحبها تصفيق الأيدى حتى ينتهى الرقص

المعيشة المنزلية — وكان المصريون فى حياتهم المنزلية يميلون الى التمتع بالطعام الجيد ، والى فرش منازلهم بالأمتعة الثمينة وترتيبها على أحسن نظام . وكان أكثر المصريين يحلقون لحاهم وشواربهم ، وربما أبقى الملك أو العظيم عُثْنُونًا فى ذَقَنه . وكانت الملوك والأشراف يتزينون بالشعور المستعارة ويُعْنَون بترجيلها وتجعيدها . ومن العامة مَن يحلق رأسه ويلبس قلنسوة ، ومَن يرسل شعره على كتفيه

افضل الاخلاق فى نظر المصريين — أما أخلاقهم فيُستدل من كلماتهم المأثورة « أن أحسن الرجال فى نظرهم مَن كان قوى الجأش والإرادة ، مستقيماً ، محترماً لنفسه ، مجتنباً أخلاء السوء ، نشيطاً ، صادقاً لا يعرف الغش ولا التمويه ، حازماً ، متبصراً حافظاً لكرامة نفسه بلا تكبر ولا تعاظم » . وكانوا يميلون الى الثقة بأنفسهم ، وحب أعاظم الرجال وتقليدهم ، ويمقتون الحسد بوجه خاص

﴿ التربية والتعليم ﴾

بعض نصائح للأطفال — كانت الأمهات يقمنَ بأمر تربية الأطفال ، فاذا شبُّوا أُرسلوا الى الأساتذة ليتعلموا ما اختير لهم من صناعة أو علم . ومما أُثر عنهم قولهم للصبى : « انصرف الى العلم وأحِبَّه كما تحب أمك ، إذ لا شىء أثمن من العلم . ولا تصرف يوماً فى اللهو والكسل

وإلاَّ ضرِبت بالسوط » . وقولهم : « لا تنسَ احترام من هم أسنُّ منك أو أكبر منزلة ، ولا تجلس وهم واقفون »

قيمة المرأة عند المصريين

وكان أبناء الملوك والأمراء والأشراف يُعلَّمون فى مدارس تُنشأ فى منازلهم، ويُضم اليهم من فى سنهم من أبناء خواصهم

وكان للمرأة من العناية والتعليم والحقوق ما للرجل تقريباً؛ بدليل ان منهنَّ من شغلْنَ المناصب العامة وتولَّيْن الملك*

الالعاب الرياضية

وكان المصريون لا يهملون أمر الرياضة البدنية . فكانت الكُرة يلعبها الصغار والكبار ، وكان للصغار ألعاب أخرى منتظمة ، كما كان الكبار يحبون الصيد والقنص والمصارعة ، التى نرى منها نموذجًا بديعًا على مقابر بنى حسن

﴿ الحكومة وحالة السكان ﴾

كانت الحكومة المصرية القديمة فى جميع أطوارها ملكية غير دستورية . وكان الملك فيها ممجَّدًا محبوباً ، تعتقد الأمة أنهُ الواسطة بينها وبين الآلهة . وهو القابض على كل شىء : فهو الذى بيده التشريع والقضاء، وهو الذى يضرب الضرائب فيفرض منهاً ما شاء (وذلك مخالف بالمرَّة لشكل الحكومة عند الإغريق والرومان) . وكان يتخيَّر له من بين رجاله وزيراً يكل اليهِ الإشراف على جميع مصالحه ودواوينه

وقد تخلَّلت تلك الآلافَ من السنين فتَرَاتٌ كاد الأمراء والأشراف فيها يسلبون الملِكَ بعض سلطتهِ ، كما رأينا عند الكلام على العهد الإقطاعى ، ولكن انتهى الأمر باسترداد الملك سلطته ، فصار كما كان : المليكَ المُملَّك

طبقات السكان

أما سكان البلاد فكانوا على عدة طبقات : الأولى طبقة الأشراف ، وهم الذين كان يقلدهم الملِك مناصب الحكومة ، وكانوا يعيشون فى سعة وبَذَخ ، ولبعضهم من

* من ذلك أن « نيتوكريس » و « حتشبسوت » جلستا على سرير الملك وان امرأة أخرى تقلدت منصب رياسة كهنة « أمون » فى أيام النهضة المصرية

القصور والخدم والحاشية ما يضارع به الملك . وأما الطبقة الوسطى فكانت فى العصور الأولى مكوّنة من الصناع ، كالصاغة والزّجّاجين وغيرهم . وفى عهد الدولتين الوسطى والحديثة زاد عدد هذه الطبقة وكثرت ثروتها ودخلت فيها طائفة الكتبة . وأما الطبقة الدنيا فكانت أشبه بالموالى فى البلاد ، مع أنهم هم المولّدون فعلاً لثروة الأمة والبناةُ الحقيقيون لأهرامها . على أنه لم يكن هناك فاصل مانع بين هذه الطبقات ، فكثيراً ما كانت تتدرّج الأفراد من طبقة الى أخرى ، وقد حدث أن رجلاً من غير حملة الألقاب تدرّج حتى تولى عرش الملك . وفى عهد الدولة الحديثة دخل عدد كبير من الطبقة الوسطى فى الجيش ، فاكتسبوا لأنفسهم مالاً وجاهاً عظيمين ، وكوّنوا منهم أسرات شريفة

﴿ الديانة ﴾

تنوّعت ديانة قدماء المصريين على طول السنين ، فكانوا فى أول أمرهم يعتقدون بوجود إله واحد عظيم حيّ باقٍ ، ورمزت له كل قبيلة برمز خاص ، ثم رمزوا لصفات هذا الإله الواحد برموز صارت بعدئذٍ معبودات . ثم عبدوا الكائنات الطبيعية التى لها تأثير فى حياتهم ، كالشمس والقمر والأرض والنيل ، ورمزوا لصفات كل منها بأشكال خاصة صارت معبودات أيضاً ، حتى نسوا التوحيد وصار قاصراً على الكهنة . ثم اعتقدوا بحلول الآلهة فى أجساد الحيوان . فعبد كل قوم ما رأوا أن روح الإله حلت فيه كالقط والكلب والتمساح ونوع من العجول يسمى « أبيس » وهو أهم معبوداتهم الحيوانية*

وكان لكل من هذه المعبودات منزلة أكبر فى بعض الجهات منها فى غيرها .

* العجل أبيس هو فى اعتقادهم الحيوان الذى تنزل فيه المعبود « فتاح » وكانوا يختارونه من بين مولودات البقر باجتماع عدة أوصاف فيه كسواد جلده ووجود شامة بيضاء مثلثة الشكل على جبهته . وكان يوم الاهتداء اليه يوم سرور عام ، كما كان يوم موته ابتداء حزن عام يستمر الى العثور على عجل آخر فيه جميع الصفات المطلوبة . وكانوا يحتفلون بدفنه احتفالا عظيما ، ولهذه العجول مقبرة هائلة ما زالت تشاهد بسقارة الى الآن

وكثيراً ما حدثت فتن ومشاحنات بين سكان الجهات بسبب تفضيل بعض هذه المعبودات على بعض . وأكبر المعبودات فى الجملة ما كان مقره حاضرة المُلك

وكانوا يصورون هذه الآلهة بصور مختلفة . منها ذات الرءوس البشرية ، ومنها ما رأسه رأس بهيمة ، وما رأسه رأس طير، ويلقبونها بأسماء مختلفة، منها «فتَاح» للإله الأعظم ، و « رَعْ » و «أمُون» لإله الشمس و « أوزيريس » للشمس عند الظلام . وجعلوا لكل منها معابد وأوثاناً خاصة . وكان أهم معبد لرَع بمدينة «أون» (عين شمس)، كما كانت « طيبة » . مقر عبادة « أمون » ، و « منف » مقر عبادة « فتاح » . وكان تشييد هذه المعابد وتدوين الحوادث عليها من أكبر مطامع الفراعنة ومفاخرهم . وكان قدماء المصريين شديدى التمسك بدينهم : يعتقدون ببعث الأجسام بعينها ، ولذلك بالغوا فى تحنيط أجساد موتاهم وحفظها فى مقابر متينة . ويرجون الثواب ، ويخشون العقاب فى اليوم الآخر، فكان للدين تأثير شديد فى عاداتهم وأخلاقهم وعلمهم ومبانيهم وصناعتهم . ومن اهتمامهم العظيم بالدين وأمر الآخرة أن صار أكبر رغبة لأى شخص منهم أن يحتفل بدفنه احتفالاً عظيماً

الفصل الحادى عشر

كلمة فى الفينيقيين

الفينيقيون أُمة سامية قديمة كانت تنزل ساحل الشام من سفح لبنان الى البحر الأبيض المتوسط . وقد ابتدأ ظهور مدنيتهم فى عهد الدولة الوسطى من قدماء المصريين

موافقة البلاد الفينيقية للتجارة

ولما كانت بلادهم وسطاً بين الشرق والغرب وشواطئها كثيرة الفُرَض والمرافئ الصالحة لرُسوّ السفن وانشاء الموانئ التجارية ، انتفع الفينيقيون بهذه المزايا ، فتقدموا فى التجارة والملاحة حتى فاقوا غيرهم فيهما . ولما ضاقت بلادهم بهم اضطروا الى

غيرها ، فانشئوا لهم مستعمرات عديدة فى الممالك التى يعاملونها ، غير ناظرين إلى امتلاكها السياسى والحربى ، بل ينزلونها بالاتفاق مع أهلها مسالمة ، فكانت أشبه بأسواق ومحطات تجارية منها بممتلكات خارجية . ولشدة عنايتهم بالتجارة لم يهتموا بحالتهم الحربية أو السياسية ، فخضعوا لحكم المصريين ، ثم الأشوريين والبابليين ، ثم الفرس ، ومن بعدهم اليونان ، ثم الرومان

وجود عدة حكومات صغيرة بفينيقية

ولم تكن « فينيقية » مع صغر حجمها خاضعة لحكومة واحدة ، بل كانت كل مدينة بضواحيها وقراها حكومة صغيرة قائمة بذاتها . وكثيراً ما كانت تلك المدن تعترف بالزعامة لأقواها . وقد تولى هـذه الزعامة بالتناوب مدينتان عظيمتان : « صَيْداء » ، ثم « صور » . وبذلك كان تاريخ عظمتهم يرجع الى عهدين : العهد الصَيْداوىّ (٢٢٠٠ – ١٢٠٠ ق . م .) وفيه احتكروا تجارة المشرق براً وبحراً الى سنة ١٥٠٠ ق . م . ، ثم نافسهم اليونان فى بحر الأرخبيل وأجلوهم عن جزائره وكثير من مستعمراتهم الشرقية ، فانتهز الفلسطيُون فرصة ضعفهم فاستولوا على مدينتهم « صيداء » وخرّبوها ؛ والعهد الصورىّ (١٢٠٠ – ٥٧٤ ق . م .) وفيه خَلَفَتْ « صور » صيداء ، إلاّ أنهم حولوا وجهتهم التجارية إلى الغرب حتى جزائر برطانية الى أن أخضعهم الأشوريون ثم البابليون تحت قيادة بُخْتُنَصَّر، ثم الفرس ثم الاسكندر ثم البطالسة، وعلى أيدى هؤلاء انتهى تاريخهم من سوريا وتجدد فى إفريقية

أهم المدن الفينيقية

﴿ الفينيقيون والتجارة ﴾

كان الفينيقيون يسلكون مشارق الأرض ومغاربها برًّا وبحراً إلى جميع الأمكنة التي يمكنهم أن يتجروا فيها . فكانت قوافلهم تصل الى أشور وإلى بلاد العرب ومصر ، وسفنهم لا ينافسها في التجول في البحار سوى سفن « قَرطاجَنّة » التي هي احدى مستعمراتهم المستقلة بذاتها . فكانوا يتاجرون شرقًا مع الهند ، وغربًا مع اسبانيا وبرطانية ، بل مع بعض الجهات التي على شواطئ البحر البَلْطى . وقد سبق في الكلام على مصر ذكر طوافهم بأسطولهم حول سواحل افريقية ، فهم بذلك أقدم أمم الأرض البحرية التجارية . وكانوا يتّجرون بحاصلات بلادهم وحاصلات جميع البلاد التي يذهبون اليها . فكانوا يجلبون إلى فينيقية التوابل والأفاويه والصموغ من بلاد العرب ، والعاج والآبنوس والمنسوجات من الهند ، وخيوط الكتان والغلال من مصر ، والصوف والخمر من دمشق ، والأقمشة المطرزة من بابل ونينوى ، والفخار من بلاد اليونان ، والخيل والعجلات من أرمينية ، والنحاس من شواطئ البحر الأسود ، والرّصاص من اسبانيا والقصدير من جنوبى برطانية ، ثم يرسلونها الى البلاد التي تطلبها مع ما اشتهرت به فينيقية ذاتها من الحاصلات ، وخصوصاً الأصباغ وخشب الأرز والزجاج

اتجار الفينيقيين في حاصلاتهم وحاصلات غيرهم

وهذه التجارة الواسعة دعت الفينيقيين كما قدّمنا الى اتخاذ أنزال عديدة لهم في جهات مختلفة ، كقبرس وردوس وجزائر بحر الأرخبيل وصِقِلّيَة وجزائر البَلْيار وكِيلِكيا (في الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى) وبعض جهات اسبانيا ، وأهم ذلك جميعاً « قَرْطاجَنّة » التي أسسوها في شمالىّ افريقية على مقربة من تونس الحالية في القرن التاسع ق . م

المستعمرات الفينيقية

ولقد تقدمت هذه المدينة تقدماً عظيماً فيما بعد وصارت حاضرة لمملكة عظيمة ، نافست الرومان زمنًا طويلاً . وسيأتى ذكرها عند الكلام على الرومان

﴿ الفينيقيون والمدنيّة ﴾

كان الفينيقيون على جانب عظيم من الإقدام والنشاط ، فضربوا بسهم وافر في التجارة والملاحة ، وقد سبق الكلام عليهما . وكانت لهم أيضاً شهرة ذائعة في بعض الصناعات كالتّعدين والصياغة والحياكة والتطريز وتركيب الأصباغ وعمل الزجاج وبناء السفن . غير أنهم لم يكن لهم باع طويل في استنباط قواعد العلوم والمعارف ، وان كانوا قد خدموا الحضارة بنقلهم آراء بعض الأمم وعلومها الى بعض

أثر الفينيقيين للحروف الهجائية

وأعظم خدمة خدمها الفينيقيون للعلم والمدنية نشرهم الحروف الهجائية بين الأمم. ولم يُعرَف بعدُ بالجزم عمن نقلوا تلك الحروف ، ورأى بعض المؤرخين أنهم نقلوها عن المصريين . على أنهم استخدموا في حُسْبانهم حروفاً علّموها للإغريق ، ومن هؤلاء انتشرت في الأمم الأوربية الأُخرى مع تعديل قليل .

ملخص

أهم الحوادث التاريخية فى عهد الفراعنة

مصــــــر	التاريخ ق . م	البلاد الأجنبية
ابتداء استعمال التقاويم (أول تاريخ معروف فى تاريخ العالم)	٤٢٤١	
العهد الذى لا شك فى وجود حضارة فيه بمصر السفلى والعليا	٤٠٠٠	
ابتداء حكم « مينا » وتوحيد مملكتى الشمال والجنوب	٣٤٠٠	
الاسرتان الاولى والثانية — مدة حكمهما ٤٢٠ سنة ومقر ملكهما « طينة » — مقابرهما بجهة ابيدوس — استخراج المعادن من شبه جزيرة سيناء	٣٤٠٠ — ٢٩٨٠	
الاسرة الثالثة — مدة حكمها ٨٠ سنة ومقر ملكها « منف » — بنى « زوسر » هرم سقارة المدرّج – أرسل « اسنفرو » أسطولاً الى لبنان	٢٩٨٠ — ٢٩٠٠	
الاسرة الرابعة — مدة حكمها ١٥٠ سنة ومقر ملكها « منف » على الارجح — آثارها : أهرام الجيزة وأبى رواش	٢٩٠٠ — ٢٧٥٠	
أهم ملوكها : خوفو بانى الهرم الاكبر بالجيزة	٢٩٠٠ — ٢٨٧٧	
خفرع « « الثانى «	٢٨٦٩ — ٢٧٧٤	
منقرع « « الصغير «		
ازدياد نفوذ كهنة « رع » بعين شمس		
الاسرة الخامسة — مدة حكمها ١٢٥ سنة ومقر ملكها « منف » — آثارها : اهرام بوصير وسقارة	٢٧٥٠ — ٢٦٢٥	
أهم ملوكها : أوسركاف — وصوله الى الجنادل الاولى	٢٧٥٠ — ٢٧٤٣	
سحورع — أول حملة الى بلاد « بنت »	٢٧٤٣ — ٢٧٢١	
أوناس	٢٦٥٥ — ٢٦٢٥	
الاسرة السادسة — مدة حكمها ١٥٠ سنة ومقرها « منف » آثارها : أهرام بسقارة	٢٦٢٥ — ٢٤٧٥	
أهم ملوكها : بيبى الاول (خمس بعثات الى سيناء وبعثة الى فلسطين — بسط نفوذه فى شمالى النوبة)	٢٥٩٠ — ٢٥٧٠	
مرنرع الاول (قناة فى الجنادل الاولى — خضوع أمراء النوبة)	٢٥٧٠ — ٢٥٦٦	
بيبى الثانى (أطول حكم فى التاريخ — غزوة فى شمالى النوبة — علاقات تجارية مع السودان وبلاد بنت ولبنان وجزائر بحر ايجه	٢٥٦٦ — ٢٤٧٦	

مصـــــر	التاريخ ق . م	البلاد الأجنبية
الاسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة — اضطراب واضمحلال فى عهد ملوك ضعفاء — ابتداء نمو « طيبة »	٢٤٧٥ — ٢١٦٠	
الاسرة الحادية عشرة — مدة حكمها ١٦٠ سنة ومقرها « طيبة » . استولت على القوة شيئاً فشيئاً خصوصاً فى عهد « سنخرع منتوحتب » وهو آخر ملوكها	٢١٦٠ — ٢٠٠٠	قيام دولة أشور ظهور أول أسرة من ملوك بابل
الاسرة الثانية عشرة — مدة حكمها ٢١٣ سنة ومقرها « لشت » ومدينة بالفيوم	٢٠٠٠ — ١٧٨٨	ارتقاء دولة بابل وجود ميناء فينيقى عظيم
أهم ملوكها : (١) امنمحت الاول (بلوغ نظام الاقطاع أكمل الدرجات — هرم بجهة لشت)	٢٠٠٠ — ١٩٧٠	
(٢) أسرتسن الاول (غزو بلاد الكوش — هرم بجهة لشت)	١٩٨٠ — ١٩٣٥	« حورابى » ملك بابل (١٩٠٠)
(٣) امنمحت الثانى (هرم بجهة دهشور) } تقدمت البلاد	١٩٣٨ — ١٩٠٣	
(٤) أسرتسن الثانى (هرم بجهة اللاهون) } تقدماً عظيماً	١٩٠٦ — ١٨٨٧	
(٥) أسرتسن الثالث (قناة جديدة فى الجنادل الاولى — اخضاع بلاد النوبة الى الجنادل الثانية — غزوة فى الشام — اضمحلال قوة أمراء الاقاليم — أقدم شىء وصل الينا من الادبيات المصرية . كتاب الموتى — (هرم بجهة دهشور)	١٨٨٧ — ١٨٤٩	
(٦) امنمحت الثالث (نمو كبير فى موارد الثروة — تنظيم النيل — قصر لابرنت — انشاء أراض بالفيوم — هرم بجهة دهشور)	١٨٤٩ — ١٨٠١	
(٧) امنمحت الرابع } اضمحلال الدولة	١٨٠١ — ١٧٩٢	
(٨) الملكة سبكنفرورع } الوسطى وسقوطها	١٧٩٢ — ١٧٨٨	محاربة الحثيين لملك بابل وغزوهم بلاده
من الاسرة الثالثة عشرة الى السابعة عشرة — مدتها ٢٠٨ سنوات — اضطراب كبير وحروب داخلية — مدة حكم الهكسوس (١٦٧٥ — ١٥٨٠ ق . م تقريباً)	١٧٨٨ — ١٥٨٠	
الاسرة الثامنة عشرة — مدة حكمها ٢٣٠ سنة ومقرها « طيبة »	١٥٨٠ — ١٣٥٠	اضمحلال دولتى أشور وبابل

* وضع هذه العلامة قبل اسم الملك يدل على أن جثته الآن بدار الآثار المصرية

مصـــر	التاريخ ق٠م	البلاد الأجنبية
أهم ملوكها : * أحمس الاول (طرد الهكسوس حوالى ١٥٨٠ واستئصال شأفة الملاك من الامراء وارجاع الاراضى الى الملك — أول جيش قائم — غزوة بالشام)	١٥٨٠ — ١٥٥٧	خضوع غربى سورية لمصر
* أمنحتب الاول (غزوة بالشام) * تحتمس الاول (غزو بلاد الكوش والشام الى وادى الفرات)	١٥٥٧ — ١٥٠١	
تحتمس الثالث وحتشبسوت (تشييد مبان عظيمة – أرسلت الملكة بعثة الى بلاد بنت)	١٥٠١ — ١٤٤٧	تحالف الحثيين
تحتمس الثالث وحده (١٧ غزوة بآسيا من ١٤٧٩ الى ١٤٥٩ ق٠م — قهر ملك قادش ومد أملاك الدولة من وادى الفرات الى الجنادل الرابعة – نمو الاسطول المصرى — انشاء مبان عظيمة بالكرنك — ازدياد عظيم فى ثروة البلاد)	١٤٧٩ — ١٤٤٧	الحثيون والاشوريون والبابليون يعلنون ولاءهم لتحتمس الثالث — زعماء الموانى الفينيقية
أمنحتب الثانى (حفظ كيان الدولة)	١٤٤٨ — ١٤٢٠	
* تحتمس الرابع (« « «)	١٤٢٠ — ١٤١١	
* أمنحتب الثالث (أزهى عصور الدولة الحديثة — بلوغ « طيبة » أعظم مبلغ من الفخامة – انشاء معابد هائلة — خطابات تل العمارنة — ابتداء هجرة الاجناس السامية الى الشام وفلسطين – اغارة الحثيين على شمالى الشام)	١٤١١ — ١٣٧٥	
اخناتون (انقلاب دينى ونشر مذهب التوحيد — هجر « طيبة » وانشاء « اخيتاتون » (تل العمارنة) — خطابات تل العمارنة — غزو الاجناس السامية لمعظم الشام وفلسطين — انحلال أملاك الدولة فى آسيا — خلل عام وسقوط الاسرة الثامنة عشرة	١٣٧٥ — ١٣٥٨	
الاسرة التاسعة عشرة — مدة حكمها ١٤٥ سنة ومقرها « مدينة رمسيس »	١٣٥٠ — ١٢٠٥	
أهم ملوكها : حرمحب (الرجوع الى الديانة القديمة وعبادة	١٣٥٠ — ١٣١٥	

مصــــــــر	التاريخ ق . م	البلاد الأجنبية
« أمون » — اعادة تنظيم الحكومة)		
رمسيس الاول (بدء البهو العظيم بالكرنك)	١٣١٥ — ١٣١٤	
* سيتي الاول (استرجاع فلسطين – استمرار في تشييد البهو العظيم — استخراج الذهب من مناجم النوبة	١٣١٣ — ١٢٩٢	ازدياد نفوذ الحثيين في الشام
* رمسيس الثاني (حروب في آسيا خصوصا مع الحثيين من ١٢٨٨ الى ١٢٧١ — اتمام البهو العظيم بالكرنك – مبان هائلة في جميع انحاء البلاد)	١٢٩٢ — ١٢٢٥	
* منفتاح (غزوة في الشام — قهر اللوبيين)	١٢٢٥ — ١٢١٥	تأهب اللوبيين للزحف على
* سيتي الثاني (اخراج بني اسرائيل من مصر ؟)	١٢١٥ — ١٢٠٩	شمالي مصر
الاسرة العشرون — مدة حكمها ١١٠ سنة ومقرها « مدينة رمسيس »	١٢٠٠ — ١٠٩٠	
أهم ملوكها : * رمسيس الثالث (٤ حروب مع اللوبيين وسكان البحر في سنة ٥ و ٨ و ١١ و ١٣ من حكمه — ازدياد نفوذ الكهنة)	١١٩٨ — ١١٦٧	زحف « سكان البحر » على الشام وقهرهم الحثيين
الاسرة الحادية والعشرون — مدة حكمها ١٤٥ سنة ومقرها « تنيس » — اشتراك الكهنة وأمراء تنيس في الحكم	١٠٩٠ — ٩٤٥	استمرار زحف اللوبيين شرقاً
عهد اللوبيين	٩٤٥ — ٧٢٢	
الاسرة الثانية والعشرون — مدة حكمها ٢٠٠ سنة ومقرها « بوبسطة » — قيام دولة مستقلة بالنوبة في آخر هذا العهد	٩٤٥ — ٧٤٥	
الاسرة الثالثة والعشرون — مدة حكمها ٢٧ سنة ومقرها « بوبسطة »	٧٤٥ — ٧١٨	اتساع نطاق مملكة أشور غرباً حتى وصلت الى البحر الابيض
عهد الاثيوبيين والاشوريين	٧٢٢ — ٦٦١	المتوسط—حكم اشور آخي الدين
استيلاء « بعنخي » الاثيوبي على الوجه القبلي — اضمحلال أمير بوبسطة وظهور أمير « سايس » (صا الحجر) — خضوع الجميع للاثيوبيين	٧٢١	(٦٨١ — ٦٦٨) واتساع دولة اشور اتساعاً سريعاً
الاسرة الرابعة والعشرون — اسسها أمير « صا الحجر » بعد انجلاء الاثيوبيين — تولى ملكها ملك واحد ٦ سنوات بمدينة صا الحجر ثم عاد الاثيوبيون وابادوها	٧١٨ — ٧١٢	
الاسرة الخامسة والعشرون (اثيوبية) — مدة حكمها ٥٠ سنة	٧١٢ — ٦٦٣	

مصر	التاريخ ق . م	البلاد الأجنبية
ومقرها « نباتا » — دخول « اشور آخى الدين » (ملك أشور) مصر (٦٧٠) — رجوع الاثيوبيين وابادتهم الحامية الاشورية (٦٦٣) — استيلاء الاشوريين على البلاد ثانية وطردهم الاثيوبيين نهائياً (٦٦١ — ٦٥٤)		حكم اشور بانيبال ملك اشور (٦٦٨ — ٦٢٦)
النهضة المصرية	٦٦٠ — ٥٢٥	حكم « نبوبولصار » ملك بابل (٦٢٦ — ٦٠٥)
الاسرة السادسة والعشرون — مدة حكمها ١٣٨ سنة ومقرها « سايس »	٦٦٠ — ٥٢٥	سقوط دولة أشور (٦٠٨ — ٦٠٦)
اهم ملوكها : (١) ابسمتيك الاول (اقام مدة تحت حماية الاشوريين — عهد نهضة عظيمة ورقى — استيطان الاغريق بمصر)	٦٦٣ — ٦٠٩	استقلال دولة بابل ٦٠٦
(٢) نخاو (محاولة البابليين الاستيلاء على مصر وقهر « بختنصر » نخاو بجهة قرقيش (٦٠٥) — ضياع الشام من يد المصريين — الطواف حول افريقية)	٦٠٩ — ٥٩٣	حكم بختنصر ملك بابل (٦٠٥ — ٥٦٢) — تأسيس كورش لدولة الفرس (٥٥٠ ق . م)
(٣) احمس (عصر زهاء ورقى — ازدياد استيطان الاغريق بمصر — تنقيح القوانين المصرية)	٥٦٩ — ٥٢٥	— حضور صولون المشرع الاغريقي الى مصر
(٤) ابسمتيك الثالث — حكم بضعة أشهر ثم دخل الفرس مصر	٥٢٥	

الباب الثانى

عهد الاغريق والرومان

الفصل الأول

كلمة فى الاغريق

وحروبهم مع الفرس

هوميروس الشاعر الاغريقى القديم

أمة الإغريق أقدم أمم أوربا حضارة ؛ ومن حضارتهم أخذت أوربا كثيراً من أصول مدنيتها الحاضرة . وأقدم ما يُعرف من تاريخها مقتبس من أشعار «هوميروس» الشاعر الإغريقى القديم . ولا نعرف يقيناً العصرَ الذى وُجد فيه ذلك الشاعر الكبير ، وإنما الأرجح أن العصر الذى وصفه فى أشعاره ، والذى عاش لا محالة زمناً منهُ ، يمتد من سنة ١٠٠٠ الى سنة ٨٠٠ ق . م . ولا ريب أن أكثر الحوادث التى

التاريخ المستمد من شعر هوميروس

دوّنها فى شعره خرافية ، لكنها مع ذلك توقفنا على حقائق جمة من أحوال الإغريق فى تلك الأيام ، فمنها أن البلاد كان يحكمها ملوك يساعدهم مجلس من الأعيان ويعرضون أحكامهم الهامة على هيئة مختارة من جميع الأمة ، وأن الرجال كانوا يحترمون النساء (وإن كانوا لم يمنحوهن الحرية التامة) ، وأنهُ كان بالبلاد عدد عظيم من العبيد يُسخَّرون فى أشق الأعمال ، وأنهُ كان للإغريق معبودات عدّة تمثّل القوة الطبيعيــة . وكان القوم فى تلك الأيام يُعجَبون بالحرية والجمال وأصالة الرأى

وبعد أن انقضى عصر « هوميروس » جاء عصر مظلم لا نعرف عنهُ شيئاً ولا نسمع فيهِ لبلاد الإغريق ذكراً فى التاريخ حتى سنة ٦٠٠ ق م . وفى هذا العهد الجديد نراها مغايرة فى كثير من الوجوه لما كانت عليه فى العهد الهوميرى . فتأخرت حالة المدن العظيمة وأصبحت قرى صغيرة ، ودخلت البلادَ شعوب جديدة ، وفَنِيَ جانب كبير من فروسية تلك الأيام الأولى . ونذكر الآن شيئاً من حالة بلاد الإغريق منذ ابتداء التاريخ الصحيح فنقول :

ابتداء التاريخ الاغريق الصحيح

كانت بلاد الإغريق فى أول الأمر عبارة عن ولايات عديدة منفصل بعضها عن بعض بلا علاقة سياسية تربطها . ولما كانت البلاد جبلية، تقسمها الجبال الشاهقة الى وديان كثيرة ، تكونت فيهـا بالطبع عدة ولايات بقيت بسبب هذه الجبال وصعوبة المواصلات متقاطعة مدة طويلة . ولم يكن ما يسمى ببلاد الإغريق قاصراً على شبه جزيرة اليونان ، بل كانت تشتمل أيضاً على نواحٍ كبيرة من ايطاليا وجزيرة صقلية وآسيا الصغرى . فكلما حل الإغريق بأرض جال بفكرهم أنها جزء من بلادهم وأينما ذهبوا كوَّنوا لهم ولاية مستقلة حول كل مدينة كبيرة أو صغيرة . وكانت لتلك المدن حكومات وجيوش قائمة بذاتها ، وكثيراً ما كانت تضرب كل ولاية نقوداً لها مغايرة لنقود الأخرى

وجود عدة ولايات متقاطعة فى بلاد الاغريق

أما نظام الحكومة فى هذا العهد الجديد فقد تغير نوعاً ما عن نظيره فى عصر هوميروس ، فأصبحت « إسبرطة » وحدهـا تقريباً هى الولاية التى بقيت فيها الحكومة الملكية ، وكان فيها دائماً حاكمان . وأما الولايات الأخرى فبعضها كان يحكمها عدد من الأعيان وبعضها كانت القوة فيها للأمة . ولم تتغير الحالة الاجتماعية كثيراً عن عهد « هوميروس » ، فلم يزل مركز المرأة مستقلاً ، والرّق مباحاً ، حتى أنه فى بعض المدن الكبيرة مثل « أثينا » و « كورَنْثة » كان عدد الأرقَّاء اكثر من عدد الأحرار

الحالة العامة

معبودات الاغريق

وبقيت المعبودات كما هى منذ أيام هوميروس . وكان للإغريق عدة أماكن

يؤمّونها من جميع الولايات لمناجاة الآلهة واستفتائها ، وأهمها معبد « أبُولُّون » بجهة دِلْفِي » على سفح جبل « بِرْناسيس » ، فكان اجتماعهم هذا بمثابة رابطة تربط جميع الإغريق ، ولذا سمّوه بالجامعة الهلاَّنية نسبة الى الهِلاَّنيين » أو « الإغريق »

الالعاب الاولمبية ومن الروابط الأخرى التى كانت تربطهم « الألعاب الأولمبيَّة » ، وهى ألعاب رياضية كانوا يعقدون لها حفلة كل أربع سنوات بأرض «أولمبيا» بمقاطعة «بِلُوبُونِيز» تكريماً للمعبود « زِيُوس »* وهو أشهر معبوداتهم

﴿ ولايات بلاد الإغريق ﴾

الولايات الشهيرة التى كانت تتألف منها بلاد الإغريق الأصلية هى :

(ا) «إسبَرْطة» و « أرْجوس » و «مِسّينية» بالجزء الجنوبى ، وكانت تسمى « بلوبونيز » (مورة)

(ب) « كُورَنْثة » على برزخ كورنثة

(ح) « أثينا » و « طيبة » فى الجزء الأوسط من شبه الجزيرة

اسبرطة وكانت « اسبرطة » أهم ولايات بلوبونيز ، وكانت أهم عنايتها موجهة الى الأمور الحربية ، ولولا نبوغها فى ذلك لما أمكنها المحافظة على بسط كلمتها على الولايات المجاورة لها التى خضعت لسلطانها . ولم تكن أسبرطة أقوى ولاية حربية فى بلوبونيز فقط ، بل فاقت أيضاً جميع ولايات الإغريق الأخرى ، والفضل فى ذلك لنظامها العسكرى الذى لا يفرّق بين السلم والحرب من حيث تعليم الجند وتمرينهم . وأول من خط للإسبرطيين هذه الخطة «ليكُرْغ» ، وهو رجل حكيم عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد ليكرغ

وكان أجلّ عمل فى حياة كل رجل سليم البنيــة منهم اعداد نفسه للأعمال العسكرية ، فيعيشون عيشة خشنة ، ولا يفترون عن القيام بالألعاب الرياضية التى من شأنها اعدادهم لتأدية واجبهم الحربى الذى يشعرون به اهتمام اسبرطة بالامور الحربية

* ويسمى أيضا « زفس »

أما « أثينا » فلم تُعْنَ بالأمور الحربية الى هذا الحد، ولكنها استعاضت من ذلك الالتفاتَ الى الوسائل الأخرى الداعية الى الحضارة العالية والرقيّ الأدبي العظيم أثينا

وكانت « أثينا » فى أول أمرها يحكمها ملك ، فلم يدم ذلك فيها كما لم يدم فى غيرها ، ووقعت السلطة فى أيدى الأعيان ، وما زالوا يجمعون السلطة فى أيديهم حتى وصل إرهاقهم الأمة الى حد لا يطاق . فهمّوا بأن ينالوا حقوقهم بالقوة ، ولم يلبثوا أن ظهر فيهم المشرّع العظيم « صولون » ، فسن فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد (سنة ٥٩٤ ق . م .) قوانين جديدة للحكومة قلّل بها من استبداد الأعيان ، وان لم يسلبهم جميع نفوذهم . وكان المبدأ الذى جعله نصب عينيهِ أن يكون معظم السلطة فى أيدى أصحاب المصالح الحقيقيــة الذين يفقدون شيئًا عند الانقلابات العظيمة . وقد سن صولون قوانين أخرى غير الخاصة بنظام الحكومة . فسن قوانين خاصة بالحياة والحقوق الشخصية والزواج والرّق وغير ذلك . وقد قدم الى مصر فى أيام أحمس الثانى ، فيقال إنهُ اقتبس شيئًا من قوانينها صولون

ولم يستمر هذا النظام طويلاً بسبب سخط بعض الطبقات ، فالتفوا حول أحد الزعماء المدعو « بِزِسِتْرات » وجعلوه ملكاً مستبداً بالسلطة . فعدل فى حكمه ، وجمع حوله الأدباء والعلماء وعاضدهم ، ووسع مدينة أثينا وزاد فى جمالها ، ولكنه سلب جانبًا عظيمًا من حرية الشعب فخلعوه . ولما تولى ابنه « هِبيَاس » ثار بهِ أهل أثينا وطردوه منها

﴿ علاقة فارس بالولايات الإغريقية ﴾

(الحروب الفارسية)

علمنا فيما سبق كيف أسس « كورش » مملكةً فارسية عظيمة ، وكيف وسع نطاقها « دارا الأول » الذى تولى الملك فى سنة ٥٢١ ق . م . وقد كان للإغريق اذ ذاك عدة مدن على شواطئ آسيا الصغرى تغلّب عليها ملك « ليديا » . فلما خضع هذا استيلاء الفرس على المدن الاغريقية بآسيا الصغرى

لحكم الفرس أصبحت تلك المدن الإغريقية خاضعة أيضًا لفارس، وما لبثت هذه المدن طويلاً حتى شعرت بظلم الفرس، فتألبت كلها وشقت عصا الطاعة على فارس فى سنة ٥٠٠ ق . م . فأرسل أهل أثينا السفن والجيوش لمساعدة اخوانهم الإغريق، وتمكنت الأحزاب من إحراق « سارْدَة » عاصمة بلاد ليديا سنة ٤٩٩ ق . م . وبعد أن استمر القتال ست سنوات أخمد « دارا » الفتنة، ثم تمكن من غزو شاطئ (إيُونيا) بأكمله . ثم نهض الى معاقبة أهل أثينا على تدخلهم بين دولته العظيمة وبين مَن خرَج عليها من رعاياها، وعلى ذلك ابتدأت الحروب بين الفرس والإغريق فأرسل الفرس جيشًا الى بلاد الإغريق فى سنة ٤٩٢ ق . م . ففشلوا وانهزمت جيوشهم براً وعبثت بسفنهم العواصف فى بحر إيجة

أسباب الحروب الفارسية

واقعة مرتون

وبعد ذلك بسنتين، أى فى سنة ٤٩٠ ق . م، أرسل الفرس جيشاً آخر أقوى من الأول، وأنزل الأسطول الفارسى جيوشه بالقرب من « مَرَثُون » فى الجهة الشرقية من مقاطعة « أتِّيكا » بقصد الزحف على أثينا . ولكن الجيش الأثينى مع عدد قليل من رجال « بلاتى » (احدى المدن الصغيرة المجاورة لأثينا) وبقيادة « ملتيادِس » قابل الجيش الفارسى فى « مَرَثُون » وهزمه شر هزيمة على كبر عدده، فكان لهذه المعركة أكبر تأثير فى تاريخ أثينا والإغريق، بل فى تاريخ الشرق والغرب، اذ أخذت « أثينا » بعدئذٍ ترْقَى معارج السعادة حتى صار لها شأن أىُّ شأن، وبها سلِمت بلاد الإغريق من الوقوع فى أسر الفرس

وكان فى عزم « دارا » مهاجمة الإغريق مرة أخرى، لولا أن لحقتهُ منيّته فى سنة ٤٨٥ ق . م، فترك ذلك لابنه « إجْزِرْسيس »

مصر أيام الحروب الفارسية

وكانت مصر فى ذلك الوقت عمالة فارسية، فخرجت على فارس فى أواخر أيام « دارا »، وبقيت الثورة قائمة حتى تولى « اجزرسيس »، فبدأ بإخمادها . وبعد أن تم له ذلك وجّه همته الى غزو بلاد الإغريق

وفى سنة ٤٨٠ ق . م خرج « اجزرسيس » بنفسه ومعهُ جيش جرار لم تر الدنيا

مثله من قبل، اذ كان عدده على أقل تقدير نحو ألف ألف مقاتل. فمر هذا الجيش الكبير من آسيا الى أوربا على قنطرة من السفن عابراً « هلِسْبُنْت » (الدردنيل)، ثم اخترق ولاية « طَرَاقِيَة » و «مقدونية» و « تِساليا » بقصد النزول على «أتيكا» من الشمال، حيث يمكنه دخول أثينا وتخريبها، وهو غاية أمنيـة أجزرسيس. فعلم الإغريق أن الفرس سيمرّون من مأزق « ترْموبيل » لأنه هو الممر الظاهر الذى يمكن الجيوش أن تخترق الجبال منهُ. وترموبيل هذا ممر ضيق واقع بين جبل(أوتيا) وبين المستنقعات الممتدة على شواطئ خليج « ماليا »، فاجتمع معظم الولايات الاغريقية تحت لواء « إسبرطة »، ووضعوا عدداً من رجالهم فى هذا الممر لحمايته، فأرسل اجزرسيس أقوى رجاله لسحق هذا العدد القليل الذى جرُؤ على الوقوف فى طريقه. ولكن الاغريق (وفى مقدمتهم الاسبرطيون) حاربوهم مستبسلين، ودافعوا دفاعاً ضُربت به الامثال. فحار الجيش الفارسى، ووقف بلا حراك. فبينا الفريقان على هذه الحالة اذ دلّهم رجل خائن من الاغريق أعمى قلبـه ما أعطاه الفرس له من المال على طريق آخر من وراء الجبال، فما شعر الإغريق الاّ والفرس على قمة الجبل يزحفون عليهم، وعند ذلك أمر ملك اسبرطة الذى كان يقود الجيش الاغريقى بأن يبقى معهُ الاسبرطيون، وأن يتراجع رجال الولايات الأخرى لحماية « أثينا ». وهنا حارب الاسبرطيون (وعددهم ٣٠٠ رجل) بشجاعة أدهشت الفرس، غير أن الشجاعة وحدها لا تظهر على وفرة العدد. ثم قاوم الاسبرطيون كل المقاومة، وأفنوا عدداً عظيماً من الفرس، ولكن ذلك لم يؤثر فى جيشهم الجرّار، اذ وقفوا على بعد من الاسبرطيين وجعلوا يرمونهم بالسهام وهم واقفون لا يتزعزعون حتى ماتوا عن آخرهم عدا واحداً أو اثنين

واقعة ترموبيل

شجاعة الاسبرطيين

وبالرغم من أن الإغريق هزُموا فى هذه المعركة التى تعرف بمعركة «ترْمُوبيل» أظهروا للفرس أنهم رجال أشداء يموتون فى سبيل الدفاع عن وطنهم، فخشى الفرس بأسهم، وكان لذلك تأثير كبير فى المواقع التالية

وكانت واقعة « ترموبيل » فى أغسطس سنة ٤٨٠ ق . م. وفى أثناء هذه الواقعة كانت السفن الإغريقية تحارب الأسطول الفارسى على الشاطئ الشرقى من القسم الأوسط من بلاد الإغريق ، فلما سمع « تِمِسْتُكْلِيس» قائد الأسطول الأثينى بأن الفرس أخذوا ممر ترموبيل، وأنهم يزحفون على أثينا، انحاز بأسطوله الى الجنوب حتى وصل الى خليج « سَلاَميس » فى الجنوب الغربى من أتّيكا . ولما لم يجد « تمستكليس » سبيلاً الى مقاومة الفرس فى أثينا نقل جميع سكانها على السفن الى جزيرة سلاميس والى جهات أخرى ، فلما دخل الفرس فى أثينا وجدوها خالية من السكان ، فسلبوا ما فيها ثم أحرقوها

واقعة سلاميس وعند ذلك التقى الأسطول الفارسى بالأسطول الإغريقى بالقرب من جزيرة سلاميس ، وهنالك تمكن الإغريق بمهارتهم وخفتهم من قهر الأسطول الفارسى ، فحزن « اجزرسيس » لهذه الكارثة وعاد الى بلاده تاركاً جزءًا عظيماً من جيشه فى تساليا . وكانت واقعة سلاميس فى سبتمبر سنة ٤٨٠ ق م .

واقعة بلاتى وفى سنة ٤٧٩ ق. م حصلت معركة بين الإغريق وبين الجيش الفارسى الذى تركه اجزرسيس بقيادة « ماردُنيُوس » ، فقهر الإغريق الفرس فى واقعة «بلاتى» ، واقعة ميكال وفى اليوم عينه انتصروا عليهم براً وبحراً بجهة « ميكال » على شاطئ آسيا أمام جزيرة « سامُوس » (سيسام)

فكانت هذه الوقائع الثلاث (سلاميس وبلاتى وميكال) فاصلة بين الفريقين، ولم يقدم الفرس بعدها على غزو بلاد الإغريق ذاتها . وبعد ذلك بسنتين جلوا عن جميع المواقع التى احتلوها ببحر إيجه

❊ عصر بِرِكْلِيس ❊

أتى بعد واقعة « سلاميس » نصف قرن (٤٨٠ — ٤٣٠ ق . م .) كان أزهى عصر فى تاريخ أثينا ، لما امتاز به من تقدم العلوم والفنون والمعارف، ويمكن اعتباره

من أزهى العصور فى تاريخ الدنيا عامةً . ويسمى هذا العصر عصر « بِرِكْلِيس » نسبةً الى « بِرِكْلِيس » ذلك السياسي العظيم الذى كان فى أثنائه هو القائد لحركة الأعمال بأثينا

منشأ بركليس وصفاته

وُلد بركليس من أسرة كريمة ، وتربى تربية حسنة . وكان خطيباً مصقعاً وقائداً عظيماً وسائساً بعيد النظر . وكان شديد الحب لبلاده ، شاعراً بالواجب عليه لها ، أبيَّ النفس لا يأتى الدنايا ، ولا يقصد الى شيء من غير وجوهه الشريفة

عنايته بالشعب

عرف أهل أثينا هذه الصفات العالية فى بركليس ، فامتلأت قلوبهم بمحبته . ومازالت مزاياه تزيد من نفوذه حتى صار أشبه بملك على الرجال بدون سلطة أو حقوق وراثية

وكان من أجل رغباته تربية الشعب بأسره اعتقاداً بأن ذلك أهم الأسباب الداعية الى انتظام الحكومة . وكان بأثينا فى ذلك الوقت مكان يدعى « الإِكْلِيزِيا » يجتمع به رجال تلك المدينة للمداولة فى شؤونهم . فأباح الدخول والمناقشة فيه لجميع أفراد الشعب ، بل كان يُؤجر العامة على حضوره ، وعلاوة على ذلك سمح لهم بتذاكر يدخلون بها محال التمثيل بدون ثمن ، وكانت الأساطير التى تمثل بتلك المحال من أبلغ ما يكتب معنى وأسلوباً وتتناول البحث فى تاريخ الإغريق أو شؤون البلد العادية ، فاستفاد الشعب من ذلك فوائد جمة ،

مشاهير الرجال فى عصر بركليس



بِرِكْلِيس

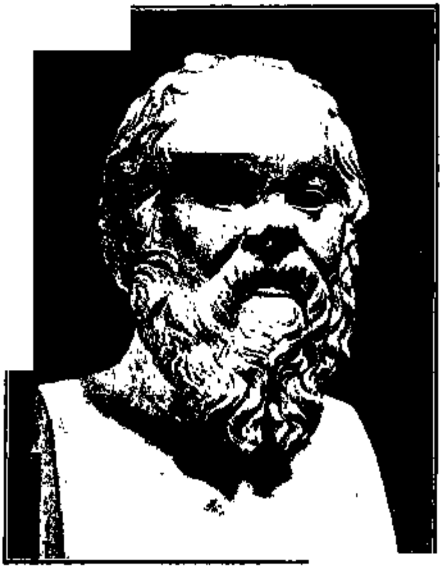
وكثر عدد النوابغ فى هذا العصر ، من كتّاب ومصوّرين ومؤلفين وغيرهم

والحق أن التاريخ لم يرَ عصراً مثل عصر بركليس : ظهر فيه على قصره ذلك العدد العظيم من النبغاء فى مكان واحد . ولو كان ذلك معيار الحضارة لقلنا ان أثينا فى ذلك العصر بلغت مبلغاً من الحضارة لم تبلغه هى ولا غيرها فى عصر آخر

ومن أشهر مشاهير ذلك العصر «فِدْياس» المصوّر و«أُورِيبيد» و«سُفُكْليس» الكاتبان للروايات التمثيلية و « هيرودوت » المؤرخ و « سُقْراط » الفيلسوف أستاذ « أفلاطون » الفيلسوف اليونانى الشهير

كثرة النوابغ فى عصر بركليس

ومعظم هؤلاء الرجال كانوا من أصدقاء بركليس . وقد كان بعض الفضل فى نبغهم لمعاشرتهم له والاستفادة من نصائحه الجميلة



(سُقراط)

جمال مبانى أثينا

أراد بركليس أن يظهر عظمة أثينا للعالم، فشيد بها المبانى الشاهقة والمعابد العظيمة، وزُين جميعها بالنقوش البديعة والتماثيل الجميلة بأيدى أمهر المصورين والنقاشين برياسة « فدياس » الآنف الذكر ، وما زالت بقايا هذه النقوش والتماثيل يدرسها كبار المصورين فى الوقت الحاضر وينظرون اليها كأنها غاية فى بابها

ومما يؤسف له أن ذلك العصر الزاهر لم يدم طويلاً ، بل انقضى بانقضاء أيام بطله . ولا شك أن من العوامل التى ساعدت على انقضائه ما غرسه بركليس بيده من اشراك العامة فى ادارة شؤون المدينـة وتسهيل السبل لهم الى حضور التمثيل والحفلات . فدب فى نفوسهم دبيب الترف والكسل ، وصاروا ينظرون الى الأشغال البدنية نظر الأنفة والازدراء. فأدّى ذلك الى انحطاط الشعب ثم الى اضطراب الحكومة

﴿ الإسكندر الأكبر ﴾

وفتحه مصر

حروب بلوبونيز

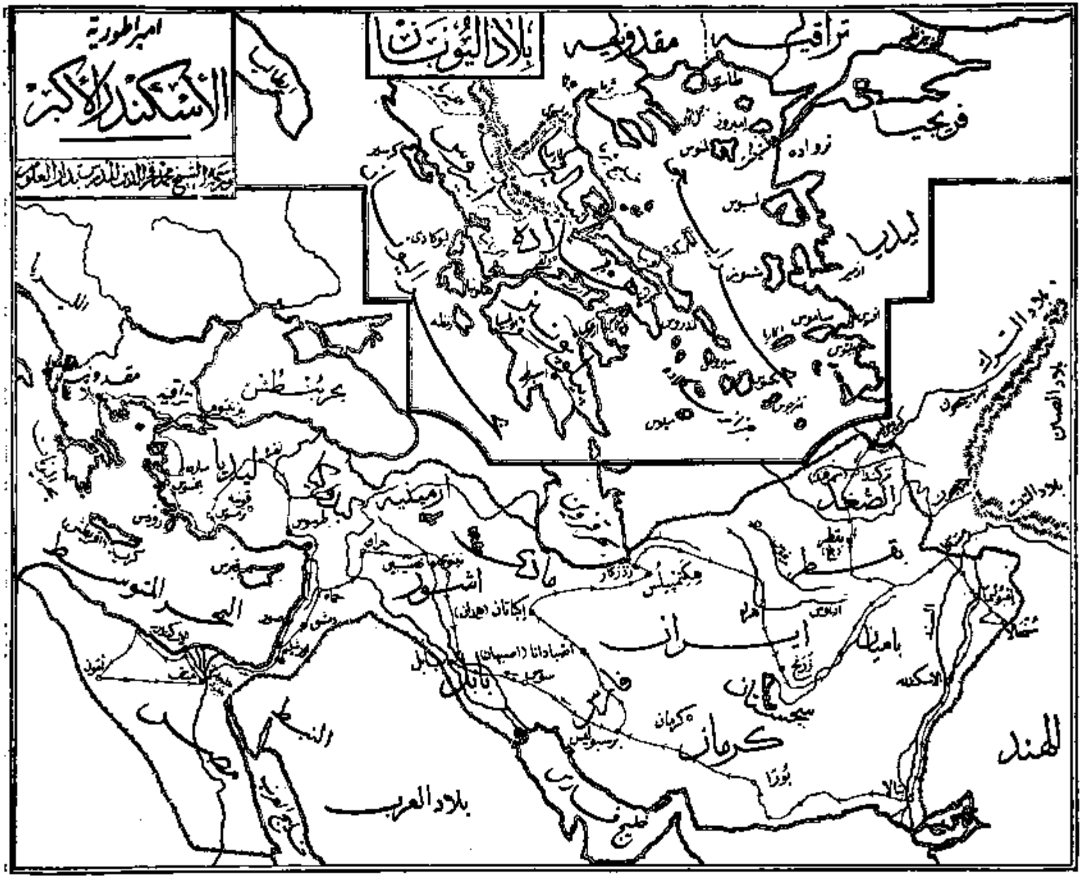
وقعت بلاد الإغريق بعد انتهاء عصر بركليس فى حروب أهلية طويلة وفتن عظيمة تعرف بحروب بِلُوبُونيز نسبةً الى شبـه جزيرة بلوبونيز ببلاد الإغريق (٤٣١ — ٤٠٤ ق . م) ، فعاقتها عن التقدم بل هوت بها الى هوّة الاضمحلال . ولكن بينما هذه الولايات مشتغلة بالحروب والقلاقل كانت بلاد « مَقْدُونية » آخذة فى أسباب التقدم والظهور

فليب المقدونى

ومقدونية هذه هى البلاد التى فى شمالى بلاد الإغريق ، وأهلها شديدو القرابة للاغريق : أقوياء الجسم عظيمو البأس . وكانوا فى أول أمرهم رعاة للأغنام وزُرّاعاً ، ولم يكن لهم ذكر هام فى التاريخ قبل أيام « فِلِيب المقدونى » (فِلِبس) . وكان هذا الملك على جانب عظيم من الذكاء وقوّة الجأش: تعلم الفنون الحربية والسياسية فى طيبة ، ثم عاد الى بلاده فأدخل فيهـا حضارة الإغريق ، وانتهز فرصة غفلة الولايات الاغريقية فهمّ ببناء دولته العظيمة

واقعة قيرونة

بدأ فليب بتوسيع ملكه فى الشمال ، ثم وجّه همته الى الجنوب ، فتغلب على جميع الصعاب التى اعترضته فى سبيله . وبانتصاره على الاغريق فى واقعة « قِيرُونَه » سنة ٣٣٨ ق . م خضعت له جميع ولاياتهم . ومن ذلك الحين اندمج تاريخ الإغريق فى تاريخ مقدونية


امبراطورية
الإسكندر الأكبر
بلاد اليونان
مقدونيه
تراقيه
فريجيا
ليديا
بحر بنطش
ارمينيه
اشور
ايران
كرمان
سجستان
فارس
بابل
الصغد
الهند
بلاد الصين
بلاد التبت
بلاد العرب
النيل
البحر المتوسط

تغلب مقدونية على الاغريق

ولما استتب الأمر لفليب فى بلاد الاغريق أراد أن يغزو بلاد الفرس انتقاماً لما فعله هؤلاء بأثينا فيما مضى، غير أن المنية حالت بينه و بين مآربه، فقتل سنة ٣٣٦ ق . م

وتولى الملك بعدَ فليب ابنه « الاسكندر » ، وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة فقط . فأصغره الإغريق زعماً منهم أنهُ لايمكنهُ على حداثة سنه ادارة شؤون المملكة العظيمة التى جلس على أريكتها ، وأنهُ فى نظرهم مثل أبيهِ بعيد عن الحضارة الإغريقية وإنْ ربَّاه أبوه أحسن تربية واختار لتعليمه « أرِسْطَاطَاليس » الفيلسوف العظيم الذى كان أكبر رجال العلم فى ذلك العصر

استخفاف الاغريق بالاسكندر تغلبه عليهم

استخف الإغريق بالاسكندر فثاروا عليهِ فى وقت واحد ، ولكنهُ برهن لهم وللعالم أجمع أنهُ أشد بأساً وأكبر بطشاً مما يظنون، فأخمد ثورتهم قبل أن تستفحل، وكانت « طيبة » زعيمة تلك الحركة فعاقبها أشد عقاب، فعادت جميع الولايات الإغريقية الى السكون ، واعترف أهلها للاسكندر بالسلطان على جميع بلادهم



(الاسكندر الأكبر المقدونى)
عن تمثال بدار آثار رومية

الاسكندر يأخذ بثأر الاغريق من الفرس

ولم ينظر الاسكندر الى البلاد الإغريقية نظرة الغالب القاهر، بل نظرة الرئيس الممثل لهم أمام الأمم الأخرى ، الآخذ بناصرهم ، فلم يكد يستتب له الأمر فى هذه البلاد حتى شرع فى الاستعداد لغزو بلاد فارس للأخذ بثأر الإغريق والانتقام من الفرس على ما فعلوه بها فى غارات دارا واجزرسيس

خرج الاسكندر لغزو بلاد الفرس سنة ٣٣٤ ق . م . ومعه خمس وثلاثون الف مقاتل . وهذا الجيش ، وإن كان صغير العدد بالاضافة الى المقصد الهائل الذى خرج من أجله : فان حسن نظامه ومهارة قائده كفلا نصراً قلّ أن يوجد له نظير فى التاريخ

الاسكندر باسيا الصغرى

سار الاسكندر فى هذا الجيش الى آسيا الصغرى ، فقابله الفرس عند نهر «غرانيق» فقهرهم بعد قتال عنيف . ثم واصل المسير حذاء الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى مستولياً على جميع المدن الاغريقيــة التى فى طريقه . ثم اتجه نحو أواسط آسيا الصغرى ، فلم يقف فى طريقه أحد من الفرس . ثم قصد بلاد الشام ، فلم يجد أى مقاومة فى طريقه حتى وصل الى مدينة « إسُّوس » على الطرف الشمالى الشرقى من شاطئ البحر الأبيض المتوسط . وهنالك قابل جيشاً فارسياً عرمرماً يقوده دارا الثالث ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق . م . ولكن كثرة العدد لم تجدِ نفعاً بجانب مهارة الاسكندر الحربية

واقعة اسوس

ونظام جيشه وقوته ، فشتت الاسكندر شمل الجيش الفارسى وفرّ دارا هارباً . وتعرف هذه الواقعة بواقعة « إسُّوس »

﴿ الاسكندر الأكبر فى مصر ﴾

الاستيلاء على صور

بعد أن هزم الاسكندر الفرس فى واقعة إسوس زحف على مدينة « صور » فأخذها بعد عناء كبير ، وبذلك تم استيلاؤهُ على الشام . ثم قدم الى مصر ، وكان الفرس قد استدعوا حاميتها منها بسبب حروبهم مع الاسكندر . فلما وصل الاسكندر إلى « بِلوز » (الفَرَما) فى سنة ٣٣٢ ق . م . رحّب بهِ المصريون لما سمعوه عن عدالة حكمه ولما لاقوه من الذل والهوان فى حكم الفرس . ففتحت له مصر أبوابها

دخول الاسكندر مصر

ودخلها بدون عناء . بل ان الوالى الفارسى لم يجرؤ على مقاومتــه وقابله فى منف بترحاب . ومن ثم سار الاسكندر الى « واحة أمون » الكبرى (واحة سيوه) ودخل معبد أمون ، حيث لقّبه الكهنة بابن أمون . وعند ذلك أبدى احتراماً كبيراً

لديانة المصريين وقدم القرابين لمعبوداتهم ، ولكنه مع ذلك لم يهمل العادات والتقاليد الإغريقية ، فأدخل منها فى مصر الموسيقى والألعاب النظامية

انشاء مدينة الاسكندرية

ولما رأى الاسكندر أن قرية « راقوتيس » (راقودَه)* ذات موقع بحرى موافق مكوّن لميناء جيد بين شاطئ البحر الأبيض وبين جزيرة مجاورة له تدعى جزيرة « فاروس » أنشأ عندها حاضرة جديدة له سماها « الاسكندرية » . ثم أمر بردم الماء بينها وبين الجزيرة المذكورة فنشأ من ذلك مرسيان جيلان

وما زالت مدينة الاسكندرية من أهم بلاد الدنيا الى وقتنا هذا . وكان السياح الإغريق يصفونها بأنها « مدينة جميلة » . وكان الرومان يعتبرونها أول المدن فخامة وعظمة بعد عاصمة بلادهم

فتوح الاسكندر الاخرى فى الشرق واقعة اربل

وبعد أن استتب الأمر للإسكندر فى مصر خرج الى فتوحه الاخرى فى الشرق ، فاخترق سورية مرة أخرى ، ومنها سار إلى « ميزوبوتاميا » « أرض الجزيرة » حيث التقت جيوشه بجيوش « دارا » الجرارة ، فبدد شملهم فى واقعة « إرْبِل » سنة ٣٣١ ، وفرّ « دارا » مقهوراً . فكانت هذه الواقعة الفاصلة ابتداء سقوط دولة الفرس

الاستيلاء على عاصمة فارس

وعند ذلك رحب البابليون بالاسكندر راضين بهِ ملكاً لهم ، ثم سار الاسكندر الى بلاد فارس ذاتها واستولى على عاصمتها « سيس » وغيرها من المدن وغنم منها ما لا يحصى من الذهب والفضة والأحجار الكريمة . وبعد أن استراح الاسكندر قليلاً واصل السير الى قاصية بلاد الفرس ، فاخترق الاقليم المعروف الآن بالأفغانستان والتركستان الروسية وما جاورها . ثم عبر مضايق جبال « الهِمَلايا » مع جزء من رجاله الأشداء ، فدخل شبه جزيرة الهند واستولى منها على مقاطعة « البَنْجاب » وكان يود مواصلة سيره شرقاً ، فامتنعت جنوده تعباً وخوفاً . فسار الى الجنوب متتبعاً نهر السند حتى وصل شواطئ المحيط ، ثم عاد الى بابل وأخذ ينظم فيها أمور

الاستيلاء على بنجاب بالهند

* هذه كانت قرية صغيرة بجوار موقع مدينة الاسكندرية الحالى

وفاة الاسكندر دولته العظيمة ، ولكنهُ أصيب بحمى قضت على حياته سنة ٣٢٣ ق . م . وكان عمره إذ ذاك ٣٢ سنة وثمانية شهور

صفاته وأعماله ولم يكن الاسكندر قائداً حربيًا فقط ، بل كان سائسًا ومديراً عظيمًا ، وكان فى نيته توحيد الشرق والغرب وجعلهما دولة واحدة تحت سلطانه ، وشرع فى ذلك فعلاً فملأ البلاد الشرقية التى فتحها بالتجار اليونانيين والحضارة الاغريقية ، وتزوج بزوجة فارسية وأوصى قواده بذلك أيضًا اعتقاداً منهُ بأن ذلك من أعظم الوسائل لامتزاج عناصر الشرق والغرب وتوحيد كلمتهم . وكان يهتم فى فتوحه باصلاح الأمور التجارية والعلميــة . ومن ذلك الأمر الأخير أنهُ أرسل الى أستاذه أرسطاليس مجموعات نباتية وحيوانية وغيرها من البلاد التى فتحها ، من شواطئ البحر الأبيض الى حوض نهر السند ، لفحصها فحصًا علميًا . ومن أهم نتائج فتوحه انتشار الحضارة اليونانية فى الشرق ، وصبغ البلاد التى فتحها بالصبغة الإغريقية ، وبقيت تلك الصبغة ظاهرة فيها حتى تغلب عليها الاسلام ، فكان له فيها أثر آخر

الفصل الثانى

البطالسة*

(٣٢٣ – ٣١ ق . م .)

تقسيم دولة الاسكندر لما توفى الاسكندر ترك وراءه ابنًا صغيراً وأخًا غير شقيق ، فتولى هذان الحكم على دولته العظيمة بوصاية « بِرْدِكَّاس » (أحد قواد الاسكندر الخلصاء) . وعيّن لكل جزء من الدولة وال يحكمه ، فاختار مصرَ بطليموسُ الذى سُمّى فيما بعد « بطليموس الأول »

* كان الأجدر أن يطلق عليهم لفظ « بطالمة » بدلا من « بطالسة » لولا شدة تداول اللفظ الاخير

بطليموس الاول

و « بطليموس الأول » هو مؤسس دولة البطالسة التى تولت الحكم فى مصر منذ وفاة الاسكندر الى استيلاء الرومان عليها . وكان بطليموس من أعظم قواد الاسكندر ومن أخلص المقرَّبين اليهِ . لأنهُ تربى معهُ فى قصر فليب ملك مقدونية . وكان قد نُفِى من بلاده فى أيام فليب ، فلما توفى أحضره الاسكندر وجعله أحدَ قوّاده السبعة الذين يحيطون بهِ فى الحرب ، ويقضون معهُ وقت السمر فى السلم . وكان بطليموس معروفاً بالحزم والحكمة والشجاعة . ولما تولى الحكم على مصر فى سنة ٣٢٣ ق . م قوبل فيها بالسرور والترحاب . وقد شعر منذ ابتداء حكمه بمصر بمنافسة « بردكاس » له فى السلطة ، ولكنهُ تمكن بقوته ودهائه من التغلب على نفوذه حتى صار ملكاً على مصر مستقل بالسلطان فيها . وأول عمل يؤثر عنهُ أنهُ أراد أن ينقل جثة الاسكندر من بابل الى مصر ، فعارضه بردكاس وقال انهُ يريد نقلها الى مقدونية ، لكنهُ لم يفلح وجيء بالجثة الى مصر فى موكب فاخر ودفنت فى منف ثم نقلت فى أيام خلفه الى الاسكندرية ، ويُظن أن مكانها الآن النبى دانيال . ولما اشتد غيظ بردكاس منهُ أتى الى مصر بجيش كبير لمحاربته فقهره بطليموس ، ثم سخط رجال بردكاس عليهِ لسوء مسلكه معهم فقتلوه . ومع كل هذا بقي بطليموس معترفاً بسيادة ابن الاسكندر وأخيهِ عليهِ ، وكان يكتب اسميهما على المبانى التى حسَّنها أو زاد فيها

النزاع بين بطليموس وبردكاس

فتوح بطليموس الاول

وفى سنة ٣٢٠ ق . م غزا بطليموس فينيقية وجزءاً من سورية واستولى على بيت المقدس . وقد قام بحروب كثيرة لتوسيع نطاق دولته انتهت باسترداده هذه البلاد السورية بعد فقدها واستيلائه على جزيرة قبرس ، وصارت لمصر بذلك السيادة البحرية فى البحر الأبيض المتوسط

أعماله السلمية

وفى سنة ٣٠٥ لُقِّب « بملك مصر » ، ومن ذلك التاريخ لم يدخل فى حروب كبيرة ، وانصرف لتنظيم بلاده وترقية شؤونها ، فزاد فى مبانى الاسكندرية . ويقال انهُ المؤسس لدار كتب الاسكندرية ودار تُحَفها المشهورتين . والذين ينكرون أنهُ

المؤسس لها يقولون بأنهُ هو صاحب المشروع ، وأن الذى قام بتنفيذه هو ابنه بطليموس الثانى

ومن المعروف عنه أنه احترم ديانة المصريين ، ووفّق بين دياناتهم وبين الديانة الإغريقية ، وظهر من أجل ذلك معبود جديد يدعى « سيرابيس » أُعد له معبد « السِّرابيُوم » بالاسكندرية الذى قيل انه كان أجمل بناء بتلك المدينة

وقبل وفاة بطليموس بسنتين تنازل عن الملك لابنــه بطليموس الثانى الملقب باسم « فيلادِلْف »

بطليموس الثانى — جلس بطليموس الثانى على سرير الملك ثمانية وثلاثين عاماً (٢٨٥-٢٤٧ق . م) لم يحدث فيها من الحروب أو الثورات ما هو جدير بالذكر ، فاتسعت فى أيامهِ ثروة البلاد وتقدمت التجارة وانتشرت العلوم والمعارف

أعماله — فمن أعماله أنه جدد الخليج القديم الذى حفرته الفراعنة من قديم الزمان ليوصل بين النيل والبحر الأحمر ، وأعاد سلوك الطريق التجارية بين « قِفْط » والبحر الأحمر مخترقة وادى الحمامات ، وشيد لها من المعاقل والمسالح ما جعل سير القوافل التجارية فيها سهلاً مأموناً ، فتقدمت التجارة المصرية حتىّ وصلت الى بلاد العرب والهند شرقاً ، والى اتيوبيا جنوباً

معاضدته التجارة — أما البحر الأبيض فكانت لمصر به تجارة ذات شأن مع بلاد الإغريق وكثير من البلاد الأخرى التى على شواطئه الكثيرة . وقد شيد بطليموس لهداية السفن منارة عظيمة بالطرف الشرقى من جزيرة فاروس اشتهرت فى التاريخ باسم « منارة الاسكندرية »، ولعظم ارتفاعها كانت تسطع أشعتها ليلاً من مسافة تربو على الثلاثين ميلاً ، ومكانها الآن حصن « قايتباى »

العلوم والمعارف فى عصره — ومن حرصه على نشر العلوم والمعارف والآداب أنه وسع نطـاق دار تحف الاسكندرية ودار كتبها ، وأمر بانجاز أمرين عظيمين فى تاريخ الأدب : أولها ترجمة

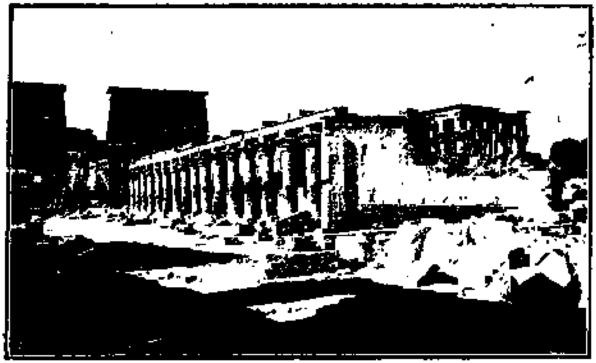
التوراة من العبرانية الى الاغريقية ، وثانيهما حمله « مانيتون » على تأليف كتابه الشهير فى تاريخ مصر القديم

مبانيه

ولم يهمل فيلادلف اقامة المبانى وتشييد الهياكل، ومن أهم الآثار التى أقامها جزء كبير من معبد جزيرة « فيلة » المعروف الآن بقصر « أنس الوجود » ، وهذا الجزء هو أجمل مبانى ذلك المعبد

الاغريق فى مصر

ومن المعروف عن بطليموس الثانى أنهُ سهل للاغريق انتجاع مصر وإنشاء أنزال جديدة بها ، وكان يهب لهم الأراضى لذلك ، وأهم مستعمرة لهم وقتئذٍ كانت بجهة الفيوم



(معبد فيلة قبل الخزان)

رسم لكجيان

بطليموس الثالث

وفى سنة ٢٤٦ ق . م توفى بطليموس الثانى فخلفه ابنه « بطليموس الثالث » ، وفى أيامه امتدت أملاك مصر الى ما كانت عليــه فى أيام الفراعنة ، فلم يلبث بعد توليه الملك أن ضم « قيرينيقية » (برقة) الى مصر . ثم نشبت الحرب بين مصر وسورية بسبب قتل أخته التى كانت متزوجة بملك سورية وقتلتها زوجته الأخرى ، فزحف بطليموس على الشام بجيش عظيم وأمر أسطوله بالسير ازاء الشاطئ السورى

ليساعد الجيش بالهجوم على المدن بحراً أثناء مهاجمة الجيش لها براً ، فخضعت له جميع سورية ، واستمر فى زحفه حتى وصل الى نهر الفرات سالكاً مسلك الفراعنة من قبله . وقد وُجد على بعض آثار هذا الملك أنهُ وصل فى فتوحه أيضاً الى بابل وفارس وميديا . وعند عودته الى مصر رجع بغنائم ونفائس كثيرة ، وأحضر معهُ تماثيل

اتساع ملك مصر زمن البطالسة



(معبد فيلة بعد الخزّان) رسم فرانى

المعبودات المصرية التى كان قد أخذها من مصر «قمبيز» وغيره من الملوك الأجانب الذين غزوا مصر زمن الفراعنة ، فزاد ذلك فى محبة المصريين له

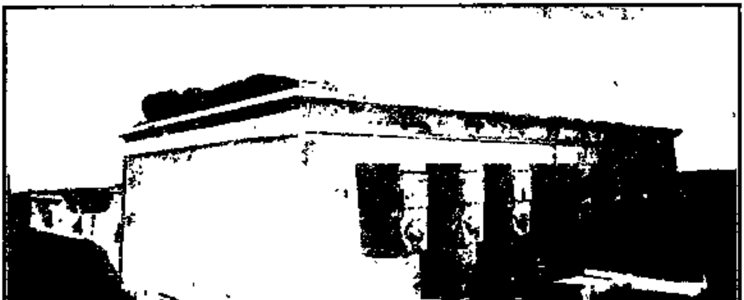
ومضت على مصر برهة من الزمن كوّنت فيها دولة واسعة الأرجاء تزيد سعتها على نظائرها أيام الفراعنة . فأصبحت ممتدة من شواطئ بلاد الإغريق شمالاً ، الى اتيوبيا جنوباً ، ومن قيرينيقية غرباً الى الحدود الهندية شرقاً

غير أن هذه الممالك لم يبقَ جميعها فى يد المصريين ، بل استرد السوريون جميع الأراضى الشرقية من بلادهم ما عدا إقليماً صغيراً ، واكتفى بطليموس بالمحافظة على



معبد ادفو

(رسم لكجيان)



معبد دندرة

(رسم لكجيان)

ممتلكاته الغربية والبحرية ، ومدّ سلطانه فى داخل بلاد النوبة

ولم يكن بطليموس الثالث محاربًا شديداً فقط ، بل كان مولعًا بالأدب محبًا لإقامة المبانى وتشييد المعابد . وهو أول ملك من البطالسة شيّد مبانى عظيمة ذات أثر خالد فى التاريخ ، فهو الذى شيد « معبد إدفو » الذى ما زال حافظًا لشكله ورونقه الى الآن ، وهو ومعبد « دندرة » أحسن نموذجين حيين للمعابد المصرية معبد ادفو

﴿ اضمحلال البطالسة ﴾

وبعد بطليموس الثالث تولى الملك « بطليموس الرابع » ، فالخامس . فالسادس وفى أيامهم استولى الضعف على مصر ، ولم يبق لها من أملاكها سوى قبرس وقبر ينيقية ، وكاد يقضى عليها لولا حماية « رومية » لها

ابتداء نفوذ رومية فى مصر

وكانت « رومية » إذ ذاك قد قويت شوكتها ، ورأت من مصلحتها حماية مصر . فبقيت منذ ذلك التاريخ صاحبة الشأن فى سياستها الخارجية حتى انتهت أيام البطالسة ، وغلبت عليها جُمْلة . ولذلك لم تكن لمصر فى هــذه الفترة منزلة سياسية فى العالم ، ومعظم الملوك الذين تولوا حكمها فى هذه المدة كانوا مُسْتَضْعَفين ، وكثيراً ما قتلوا إخوتهم وأقاربهم للانفراد بالمُلْك وان لم يُحدث ذلك إهمالاً كبيراً فى ترقية العلوم والمعارف أو فى تشييد المبانى والآثار

وما زالت مصر على هذه الحالة حتى كانت وفاة « بطليموس الثالث عشر » ، فخلفته ابنته « كِلْيُوبَطْرَة » الشهيرة فى سنة ٥١ ق . م . وسنأتى على ذكرها عند الكلام على علاقة « رومية » بالبطالسة

﴿ حالة مصر فى زمن البطالسة ﴾

كانت مصر زمن البطالسة على جانب عظيم من القوة والثروة ، ولم تقلّ أملاكها فى عهد معظم ملوكهم عن أملاك أعاظم الفراعنة الأقدمين . ثم اتسعت دولتهم فى املاك البطالسة

عهد بعض ملوكهم أكثر من اتساعها فى زمن آخرين ، ولكن مصر لم تفقد طول مدتهم سيادتها فى الجملة على « برقة » وقبرس وسورية وفلسطين . أما أعظم أيام ثروتها وعظمتها فكانت فى عهد الأربعة البطالسة الأوائل . إذ كانت زمن « فيلادلف » أغنى مملكة فى العالم . وكانت عظمة القصر الملكى بالاسكندرية وفخامته وأبهة الملك به أكبر ما رأت الدنيا الى ذلك الوقت

عظم ثروتهم وفخامة ملكهم

مميزات عصر البطالسة

ولعصر البطالسة فى مصر من الخواص والمزايا ما يجعله مغايراً لعصور الفراعنة . وأهم هذه الخواص ظهور العنصر الاغريقى ماثلاً فى عظمة مصر ، بل أن حضارة ذلك العصر هى فى الحقيقة إغريقية الأصل ، ولم تؤثر فيها بقايا الحضارة المصرية القديمة إلا فيما سمح به ملوك البطالسة عن قصد . فمثلاً كان ملوك البطالسة يظهرون فى الحفلات الرسمية بزى الفراعنة الأقدمين ، وكانوا يقدمون الهدايا والقرابين للمعبودات المصرية ويشيدون المعابد والهياكل على الطرز المصرى القديم[1] ، وأحسن مثال لذلك باب معبد « خُنسُو » بالكرنك ومعبد إدفو ومعبد دَنْدَره . كما كانوا يتزوجون بأخواتهم اسوة بالكثير من الفراعنة[2] : كل ذلك إرضاء للمصريين ورغبة فى أن ينسوهم أنهم محكومون بملوك غرباء عن بلادهم بعيدين عن نسل آبائهم وأجدادهم . كان ملوك البطالسة يظهرون بكل هذه المظاهر ، ولكنهم كانوا إغريقيين فى معيشتهم وعاداتهم الداخلية ، بل فى نظام حكومتهم وتشكيل جيوشهم

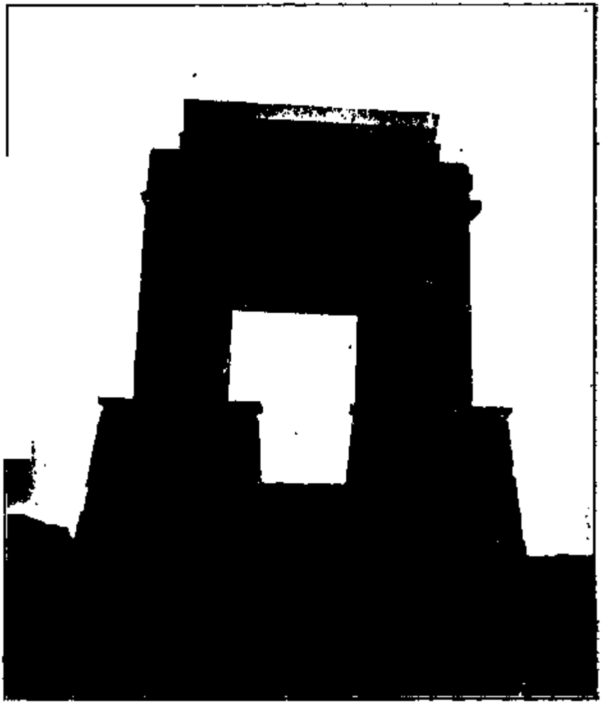
تأثير الحضارة المصرية فى حضارة البطالسة

اختلاط المصريين بالبطالسة

وكان المصريون فى أول الأمر بمعزل عن البطالسة ، ولما كثر ورود الإغريق الى مصر ، وانتشروا فى أنحاء البلاد ، (انتشار تجار اليونان اليوم فى قرى الأرياف) زاد الاختلاط بين العنصرين ، وتصاهروا ، وتعلم معظم المصريين اللغة الإغريقية التى صارت إذ ذاك اللغة الرسمية للبلاد

(١) كان معظم مبانى البطالسة على الطراز الاغريقى ، ولكنهم كانوا يقيمون كثيراً من المبانى (لا سيما الدينية منها) على الطراز المصرى القديم . ويشاهد فيها شيدوه من هذا النوع أنهم كانوا يحاكون الفن المصرى ، لكنهم لم يصلوا فى ذلك الى حد الاتقان الذى بلغه قدماء المصريين

(٢) كانت هذه عادة عند ملوك قدماء المصريين وكان القصد منها حفظ الدم الملكى فى الأسرة المالكة



باب معبد خنسو

(رسم لكجيان)

العلوم والمعارف في زمن البطالسة

وكان ملوك البطالسة يُعْنون بترقية العلوم وإحياء الآداب . وقد أنشئوا لهذا دار كتب عظيمة بالاسكندرية ومدرسة جامعة كبرى كانت تُعرف عندهم بدار التحف، وقد ذاع صيت الاسكندرية بهذين المعهدين حتى صارت كعبةً للعلوم يؤمها طلاّب العلم من جميع أنحاء العالم المتمدين

دار الكتب والتحف بالاسكندرية

وبدار التحف كانت تُلقى العلوم الراقية على نظام شبيه بنظام الجامعات في عصرنا . واختلف المؤرخون فيمن أسس هذا المعهد ، وأرجح الأقوال ان بطليموس الأول هو صاحب المشروع وأنهُ كان يذهب بنفسه الى البلاد الإغريقية ليجمع أعاظم الفلاسفة والعلماء من الإغريق ليذهبوا معهُ الى الاسكندرية ، فإن لم يكن المعهد قد فُتح في زمنهِ فهو الذي أعدّ له كل شيء ، وبفضل أعماله تمكن ابنه بطليموس الثاني من افتتاحه

وأما دار الكتب المشهورة في التاريخ فقد جمع فيها ملوك البطالسة من كتب الأمم القديمة ما وصلت اليهِ أيديهم ، وكانت قسمين : قسمًا مُلحقًا بدار التحف وهو الأكبر ، والقسم الآخر ملحق بمعبد السِّرابيُوم ، ويقال ان القسم الأكبر كان بهِ نحو ٧٠٠,٠٠٠ كتاب

وقد ساعدت هذه المعاهد على ازدياد عظمة الاسكندرية، فقصدها كبار العلماء والفلاسفة يَدْرسون بمدارسها ويشتغلون بالبحث والتأليف بمساعدة دارَي كتبها وتحفها . ومن بين هؤلاء عدد كبير حفظ ذكرهم التاريخ ، منهم «إقْليدس» صاحب كتاب الأصول في الهندسة . ومنهم « إيرَتُسْتِين » و « بطليموس » الجغرافيّان و « هِبَّارْك » الفلكي و « أبُولُونيوس » النحوي وغيرهم

ومما يؤسف له أن تاريخ هذه المعاهد مظلم جدًّا ، واكثر ما نعرفهُ عنها غير مقطوع بصحته لعدم عثورنا على ما يثبت ذلك من الآثار

غير أن من المجزوم بهِ وجودَ دارَي التحف والكتب ورئيسٍ لكلٍّ منهما ازدادت عظمة وظيفته باتساع نطاقهما . ومن المشهور أيضًا ان جميع ما له اختصاص

بهما ، من انتخاب قوَمة وعمّال ، ومن ترتيب ونظام، كان إغريقياً لا مصرياً، وان المصريين لم ينتفعوا بهما، وبقوا بعيدين عنهما حتى اندثارهما بسبب إحراق دار الكتب

احراق دار كتب الاسكندرية

وقد اختلف المؤرخون أيضاً بشأن إحراق هذه الخزانة العظيمة : فمن قائل ان يوليوس قيصر أحرقها مع أسطوله يوم بغته المصريون على غير استعداد ، ومن قائل انها أُحرقت بعده بنحو ١٠٠ سنة ، ومن قائل ان عمرو بن العاص أحرقها بأمر من الخليفة عمر رضى الله عنهُ ، ولكن كبار مؤرخى الإفرنج ينكرون صحة هذا القول الأخير

الادب فى زمن البطالسة

وكان لملوك البطالسة شغف زائد بالأدب ، وكانوا يكثرون من الاجتماع بأهله وتقريبهم منهم ، بل ان بعضهم كان يشتغل بنفسه بالكتابة والتأليف . فمن هؤلاء بطليموس الأول الذى كتب كتاباً فى تاريخ الاسكندر ، وبطليموس الرابع الذى ألّف أُسطورة تمثيلية ، وبطليموس التاسع فإنه مع ما اشتهر بهِ من سوء الخلق ألّف كتاب « المذكرات » عن نفسه فى أربعة وعشرين جزءا . وله انتقادات لشعر هوميروس . وقد كان لهذه العناية تأثير كبير فى ارتقاء الأدب الإغريقى وكثرة الكتابة والتأليف

الصناعة والتجارة فى زمن البطالسة

لما استولى البطالسة على مصر أدخلوا بالبلاد كثيراً من الإغريق انتشروا فى جميع أنحاء القطر ونشروا صناعتهم فيهِ ، فتعلمها منهم المصريون . وقد تمكن صُنَّاع المنصرين من الوصول بالصناعة الى الحد الذى يلائم تلك الحضارة العظيمة التى تحيط بهم

أما التجارة فقد وصلت الى درجة عظيمة جدًّا فى زمنهم، ولاسيما عهد بطليموس الثانى (فيلادلف) ، إذ كانت التجارة عظيمة بين مصر والبلاد التى على شواطئ البحر الأحمر حتى بلاد « بُنْت » جنوباً . وكانت السفن المصرية تسافر من السويس الى عدن وبلاد العرب، وقيل أيضاً انها كانت تصل الى بلاد الهند، كما أنها كانت تسافر الى بلاد عديدة على شواطئ قارة إفريقية . ومما ساعد على نموّ التجارة اصلاحُ طريق القوافل الموصل بين الوجه القبلى وشاطئ البحر الأحمر مخترقاً وادى الحمامات ،

وتأمين السابلة فيه ؛ وكانت ترد الى مصر حاصلات بلاد النوبة وبلاد السودان الشرقية كما كانت ترد فى الأزمنة المتقدمة . وأما التجارة بين مصر وبين المستعمرات الإغريقية الأخرى المنتشرة على شواطئ البحر الأبيض فكانت متواصلة ذات فائدة كبرى لمصر

ومن الأسباب المهمة فى رواج التجارة المصرية فى ذلك العصر وجود الكثيرين من الاسرائيليين بالاسكندرية ، وتمتعهم هم وغيرهم من الماليين بمزايا تجعلهم لا يضنّون باستخدام أموالهم فى التجارة ، بفضل استتباب الأمن بالبلاد ووجود جيش وأسطول حربى يحميان مصالح التاجر ويضمنان لأمواله السلامة

الفصل الثالث

كلمة فى الرومان (الروم)

كانت الرومان من أشد أمم الأرض بطشاً ، وأوسعهم ملكاً ، وأكثرهم تمدناً . وقد بقى لحضارتهم بعد أن بادوا أثر كبير فى مدنيّة أوربا ولا سيما الأمور المتعلقة بالقوانين وتشكيل الحكومة وغير ذلك مما نشروه من حضارة الإغريق . ولذا اعتُبرت دولتهم أعظم من كثير من الدول القديمة التى ظهرت فى أزمان التاريخ

وسُمّيت هذه الدولة بدولة الرومان نسبةً الى « رومية » التى كانت مهدَ نشأتهم . ولسنا نعرف قطعاً وقت بنائها ولا المؤسسين لها ، وإن كانت الأقاصيص الخاصة بذلك كثيرة ، وكلها تشير الى أن مؤسسها هو « رُومِيلُوس » ، وان تأسيسها كان فى القرن الثامن قبل الميلاد

وكانت « رومية » فى أول أمرها مدينة صغيرة على نهر « التّبْر » يسكنها قوم من اللاّتينيّين ، ثم عظمت شيئاً فشيئاً . وكان اللاتينيون منتشرين أيضاً فى القرى المجاورة منشأ روميا

لها ، فاتحدوا جميعاً تحت رياسة « رومية » للدفاع عن أنفسهم اذا هاجمهم غيرهم . ويُعرف ذلك « بالاتحاد اللاتينى »

﴿ أطوار تاريخ الرومان ﴾

ينقسم تاريخ الرومان الى ثلاثة أطوار :

١ – « طور الملكية » . ويمتد من تأسيس « رومية » الى سنة ٥١٠ ق . م .

٢ – « طور الجمهورية » : ويمتد من سنة ٥١٠ الى سنة ٣٠ ق . م

٣ – « طور الامبراطورية » . ويمتد من سنة ٣٠ ق . م الى سنة ١٤٥٣ م

طور الملكية — كانت حكومة « رومية » ، ملكية فى العهد الأول ، فطغى بعض ملوكها وظلم ، فأخرجه الرومان من المدينة وألفوا حكومة جمهورية حوالى سنة ٥١٠ ق . م

طور الجمهورية — وكان القابضُ على زمام الأمور فى أيام الجمهورية رئيسين يدعى كل منهما «قنصُلاً» ليمنع أحدهما الآخر محاولة الجَور والاعتساف . وكانت تنتخبهما جمعية عمومية لمدة سنة واحدة . ومن حق هذه الجمعيــة النصح للقنصلين والنظر فيما يريدان سنّه من القوانين . وعلاوة على ذلك كانت تشمل هيئة الحكومة مجلساً آخر يقال له « مجلس الشيوخ » أو « السِّنَاتو » ، وأعضاؤه من رؤساء أُسرات الأشراف ، غير أن رأيهُ كان استشارياً محضاً . وفى الأوقات الحرجة التى يُخشى على البلد فيها مما قد يقع من النزاع بين القنصلين كان يُعيّن لرياسة الحكومة شخص مطلق السلطة على الجيش يسمى « دِكْتاتُوراً » . ولا تزيد مدة حكمه على ستة أشهر

النزاع بين طبقتى السكان فى رومية — وكان برومية فى أوائل أيام الجمهورية طبقتان من السكان : الأشراف ويسمون « البطارقة » ، والعامــة ويسمون « البليبان » (السوقة) وكانوا أذلاء محتقرين محرومين من التحاق بعمال الحكومة ، وممنوعين من التزوّج بأحد من أُسرات البطارقة . وكان هؤلاء يستعبدونهم لشدة فقرهم واضطرارهم الى اقتراض المال منهم فلما سئموا هذه الحالة هاجروا جملةً من « رومية » سنة ٤٩٤ ق . م الى مكان يدعى

« الجبل المقدس » حيث كانوا يريدون انشاء مدينة جديدة لهم . فهال الأشراف هذا الأمر ، لأنهم فقدوا به طبقة العملة والخدم وأصبحوا لا يستطيعون المعيشة فى هناء ، فخضعوا لمطالبهم وعينوا منهم حاكمين يسمى كل منهما « تريبونا » (أطْرَبُونا) للمحافظة على حقوقهم ، وكان من حق التريبون أن يمنع سن القوانين المضرة بمصلحة البلبيان ، وكل من تعدّى على حقه جوزى بالقتل . فعاد البلبيان الى « رومية » وأخذ الحاكمان المحافظان على مصالحهم يزيدان فى حقوقهم شيئاً فشيئاً ؛ ففى سنة ٤٥٠ ق . م . دُوّنت القوانين بعد ان كانت مفهومة إجمالاً يتلاعب الأشراف فى تطبيقها كيف شاءوا . وفى سنة ٤٤٤ خُوّل للبلبيان حق انتخاب القناصل منهم اسوة بالأشراف وان كان لم ينتخب أول قنصل منهم الاّ سنة ٣٦٦ ق . م . وما زالت حقوقهم تزداد شيئاً فشيئاً حتى انتهى الأمر بمساواتهم بالأشراف من كل وجه سنة ٣٠٠ ق . م . وبالتدريج نُسِى الفرق بين الطبقتين

﴿ نمو سلطان رومية وامتداده على غيرها من البلدان ﴾

غزو اترووريا

لما قويت حكومة الجمهورية أخذت فى توسيع نطاق « رومية » وبسط سلطانها على ما جاورها من البلدان . وكان يمتد على الشاطئ الغربى من ايطاليا شمالى «رومية» مقاطعة عظيمة تسمى « إتْرُورْيا » يُعرف أهلها بالإتْرُسْك ، وهم من أشد أعداء الرومان ، فنشبت بينهم حروب طويلة انتهت باستيلاء الرومان على « فياى » أمنع حصونهم سنة ٣٩٦ ق . م ، فقضى ذلك على قوة « الاتْرُسْك » ، وأعقبهُ غلبة الرومان على جميع بلادهم بلداً فبلداً

هجوم الغاليين على رومية

وفى سنة ٣٩٠ ق . م . حدث أمر أوقف فتوح الرومان وكاد يقضى على مجدهم . وذلك ان « الغاليين » (وهم جنس بربرى سكن ايطاليا شمالى نهر « بو ») زحفوا جنوباً نحو « رومية » ابتغاء السلب والنهب ، فبرزت اليهم الجيوش الرومانية ولاقوهم على نهر « إلْيا » بالقرب من مدينة « رومية » ، فدارت الدائرة على الرومان وولوا

مُدْبرين الى المدينة ، فاقتحمها الغاليون عليهم قبل أن يستمد أهلها للدفاع عنها ، واستباحوها سلباً وتحريقاً، ولم يمسكوا عن تدميرها جميعها الاَّ بعد أن ألهام عنها أهلها بالكثير من المال

السمنيون — ولما انتعش الرومان مما أصابهم من الوهن بعد هذه الهزيمة عادوا الى السير فى طريق الفتح . وكان « السَّمْنِيُّون » أكبر أعدائهم فألَّبوا عليهم اكثر سكان ايطاليا من « الاتْرُسْك » و « الغالبين » و « الإغريق » ، وبذلك خاضت « رومية » سنة ٣٤٣ ق . م حروباً طويلة استغرقت اكثر من قرن ، وانتهى الأمر بفلْج الرومان وفوزهم على جميع أعدائهم فأصبحوا أرباب السيادة على شبه جزيرة ايطاليا الاَّ قليلاً

حروب بيروس — وبقيت بعد هذه الحروب مدينةٌ ذات ثروة هائلة فى جنوب ايطاليا تسمى « تارَنْتو » لم تخضع هى أو لواحقها من المستعمرات الإغريقية لنفوذ الرومان . واستنجدوا « بيرُوس » ملك « أبيروس » (مقاطعة ببلاد الإغريق) . وكان بينه وبين الاسكندر قرابة ، فطمع « بيروس » فى تكوين دولة عظيمة بالمغرب تضارع التى أسسها قريبه بالمشرق ، فهمّ الى مساعدة أهل « تارنتو » وقهرَ الرومان فى واقعة «هِرَقْلَة» سنة ٢٨٠ ق . م . ثمَّ قهرهم ثانية فى «عَسْقَلاَن» سنة ٢٧٩ ق . م ، ولكنه خسر خسارة عظيمة يُضرب بها المثل أضاعت عليه ثمرة انتصاره . وفى سنة ٢٧٥ ق . م . هزمه الرومان فى واقعة « بِنِفِنْتُم » هزيمة قضت على آماله ، وتراجع بجيوشه من ايطاليا . وفى سنة ٢٧٢ ق . م سقطت « تارنتو » فى قبضة الرومان ، وبذلك تم استيلاء « رومية » على جميع أنحاء ايطاليا

ولما أن تمت لرومية السيادة المطلقة على شبه جزيرة ايطاليا ولَّت وجهها الى ما وراء ذلك ، فلم تجد أمامها أمة عظيمة تخشى اعتراضها فى طريقها سوى القَرْطاجَنِيِّين

﴿ النزاع بين رومية وقرطاجنة ﴾

أسس الفينيقيون مدينة « قَرْطَاجَنَّة » على شاطئ إفريقية الشمالى بالقرب من موقع مدينة « تونس » الحالية فى القرن التاسع قبل الميلاد . وأنشئوا حولها مستعمرة جميلة . ثم أخذت هذه المستعمرة فى التقدم حتى صارت دولة عظيمة شديدة البأس، وأصبحت بعد أن ضعفت شوكة الفينيقيين أنفسهم فى الشرق أعظم دولة تجارية فى البحر الأبيض المتوسط . فكان القرطاجنيون أوفر من الرومان مالاً وأكبر منهم أسطولاً ، ولأسطولهم السلطان الأعظم على البحر الأبيض من جزيرة صِقِلِّيَة الى مجاز جبل طارق . وكانوا يملكون فيه جزءا من صقلية وسَرْدانِيَة وقُرْشُقَة وعدة ولايات على شاطئ اسبانيا . وأما أملاكهم فى إفريقية فكانت تشمل معظم الأراضى المعروفة الآن بتونس والجزائر ومُرَّاكُش قرطاجنة

﴿ الحروب البونية وأسبابها ﴾

يُعلم مما تقدم أنه لم يكن بد من حدوث تنافس بين دولتى قرطاجنة ورومية ، إذ الأولى لها السيادة على البحر الأبيض المتوسط ، والثانية آخذة فى توسيع نطاق أملاكها وتجارتها فى ذلك البحر ، فنشبت بينهما بسبب هذه المنافسة حروب طويلة تسمى « الحروب البُونِيَّة » أو (البُونِيقِيَّة) ، ومعناها الفينيقية لأن القرطاجنيين فينيقيو الأصل . وهى ثلاث حروب .

﴿ الحرب الأولى ﴾

(٢٦٤ – ٢٤١ ق . م .)

بدأت هذه الحروب بسبب تدخُّل الرومان فى جزيرة صقلية وارسال جنودهم اليها وقبضهم على مدينة « مسَّانا » (مسِّينى) . وهذه الحرب عظيمة الشأن من استيلاء الرومان على صقلية

حيث كانت أولى الحروب البحرية التى دخلت فيها رومية . ولم يكن للرومان إذ ذاك أسطول ما ، فلما أدركوا عظيم بلائه فى هذه الحروب شيدوا (على ما قيل) ما يربو على مائة سفينة فى شهرين وحاربوا القرطاجنيين بحراً فى «ميلى» بالجزيرة المذكورة سنة ٢٦٠ ق . م . فقهروهم واستولوا على جزيرة صقلية، فكانت هذه أول مستعمرة لهم وراء شبه جزيرة ايطاليا . ولم تنته الحرب عند ذلك بل لبثت سجالاً عهداً طويلا، وانهزم فى خلالها الرومان انهزاماً عظيماً فى « إفريقية » بقيادة « رِيجُولُوس » سنة ٢٥٦ ق . م . ثم اقتصرت الحرب على جزيرة صقلية كما كانت من قبل ، وفى أثنائها انهزم الرومان بحراً فى واقعة « جِبَانُم » ثم انتصروا على القرطاجنيين فى موقعة فاصلة بالقرب من جزائر « إجيت » سنة ٢٤١ ق . م . فعقد الصلح بين الفريقين وبه تمّ للرومان الاستيلاء على جزيرة صقلية

﴿ الحرب الثانية ﴾

(٢١٨ – ٢٠١ ق . م .)

بعد الحرب البونية الأولى حدثت فتن وقلاقل فى « قرطاجنة » كادت تقضى عليها . لولا أن رجلاً عظيماً فيهـا يدعى « هَمِلْكَار » أخمد تلك الثورة وأعاض خسارة صقلية باستيلائه على الجزء الأكبر من اسبانيا ، وهناك درّب جيشاً عظيماً تأهب للانتقام لبلاده من أعدائها . وكان الرومان قد انتهزوا فرصة حدوث الفتن فى « قرطاجنة » واغتصبوا « سَرْدَانِيَة » و « قُرْشُقَة » من القرطاجنيين ، فكان هذا أدعى لاستئناف القتال بين الفريقين . والسبب الذى دعا الى نشوب الحرب ان القرطاجنيين حاصروا مدينة « سَغَنْتُم » الإغريقية بأسبانيا ، وكانت موالية لرومية فابتدأت بذلك الحروب البونية الثانية

وهذه الحروب هى أهم الحروب البونية جميعها ، للحوادث العظيمة التى حدثت

فيها والشهرة الطائلة التى نالها بطلها وهو « أنِيبَال » بن « هَمِلْكَار » السالف الذكر

وكان « أنيبال» من أشد الناس وفاء لوطنه وأكثرهم تفانياً فى خدمته والانتقام له . وكان قائداً حربياً كبيراً تحبه جنوده ، وتهابه أعداؤه ، على شدة بأسهم وقوة جيوشهم . وهو بلا شك من أعظم القواد الذين ظهروا فى أزمان التاريخ



أنيبال

وتوقّع الرومان أن تكون الحرب فى أسبانيا ، فأخذوا يمدّون الجيوش لغزوها وأغفلوا مهارة أنيبال النادرة ومبدأه فى الحرب ، وهو « أن الهجوم أحسن وسيلة للدفاع » . فبينما هم كذلك إذ أنيبال قد انقض على سهول ايطاليا

وذلك أن « أنيبال » سار سنة ٢١٨ ق . م . فى جيش من الرجال الأشداء عبر به جبال « البرَانِس » ، ثم اخترق بلاد « الغال » المعروفة الآن بفرنسا ، واقتحم جبال « الألب » ونزل منها الى وادى نهر « بُو » . فكان مسيره هذا من أغرب ما يمكن لقائد أن يأتى به ، بل لم يرَ التاريخ الى الآن عملاً حربياً أبدع ولا أحكم منهُ بالاضافة الى خشونة المُعدَّات وقلَّة المواصلات . ذُعر الرومان من ذلك ، فهرولت جيوشهم الى الشمال لصدّه . فقهرهم أنيبال فى موقعتين فى وادى نهر « بو » ، ثم عبر جبال أبنّين وسار نحو رومية . وكان إذ ذاك قد انضم الى جيشه عدد كبير من أهل الغال . ولما أن تبعته الجيوش الرومانية هيّأ لهم خديعة هزمهم بها شرّ هزيمة فى واقعة بحيرة « ترازيمين » سنة ٢١٧ ق . م . حيث قُتل قنصلهم ، وقضى فيها على رجالهم وربما كان الأجدر بأنيبال إذ ذاك أن ينقضّ على «رومية» ، ولعلهُ رأى أن يؤجل

مسيره الى ايطاليا

واقعة ترازيمين

ذلك الى أن يزيد من ضعفها بالاستيلاء على الجهات المجاورة لها . وفى السنة التالية جمع الرومان أكبر جيش استطاعوا جمعه وساروا بهِ لمقاتلة أنيبال ، فتقابل الجيشان فى واقعة « كان » بالجنوب الشرقى من ايطاليا سنة ٢١٦ ، أظهر فيها أنيبال من المهارة والمقدرة ما أفنى به الجيش الرومانى (وكان عدده ٨٠٠٠٠ مقاتل) فلم ينج منهُ الاَّ من وقع فى الأسر . ولو كان مجد الرومانيين مشيداً على القوة الحربية فقط ، ولم يكن لهم الحظ الأكبر فى السيادة ونظام الحكومة ، لكانت هذه الواقعة قاضية على سلطانهم

واقعة كان

واقعة متوروس

بقى أنيبال بايطاليا خمسة عشر عاماً (من سنة ٢١٨ الى سنة ٢٠٢ ق . م .) وهو يقهر الرومان المرة بعد الأخرى ، غير أنهُ لم يستطع الاستيلاء على رومية ذاتها . وفى أواخر تلك المدة كان بالطبع فى حاجة الى نجدة من قرطاجنة ، فسار اليه أخوه فى جيش من اسبانيا ، فقابله الرومان فى الشمال الشرقى منها وقتلوه وهزموا جيشه على نهر «مِتُورُوس» سنة ٢٠٧ ق . م . فكان لهذه الواقعة تأثير كبير فى الحروب البونية ، بل فى تاريخ رومية والنزاع بينها وبين قرطاجنة ، إذ بسببها مُنعت عن أنيبال الأمداد التى كان ينتظرها والتى كان فى أشد الحاجة اليها . على أن أنيبال بقى ثابت الجأش يواصل القتال فى جنوبى ايطاليا حتى استُدعى الى بلاده لحماية « قرطاجنة » ذاتها

وذلك أن القائد الرومانى «شِيبْيُون» (الذى لُقّب فيما بعد بالإفريقى لفتحه إفريقية) ترك ايطاليا وذهب بجيش الى إفريقية . ولما رأت قرطاجنة نفسها فى خطر منهُ استدعت أنيبال فرجع اليها مسرعاً . ولكن حدث ما كان يخشاه بعد قتل أخيه ، فانتصر شيبيون على أنيبال انتصاراً عظيماً فى واقعة « زاما » بالقرب من قرطاجنة سنة ٢٠٢ق . م . وعند ذلك عقد الصلح بين الدولتين على شرط أن تتنازل قرطاجنة عن اسبانيا وجزائرها التى فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن تدفع لرومية جزية سنوية كبيرة ، وأن تسلّم أسطولها اليها ، وأن لا تحارب أحداً إلاَّ باذنها . وعندئذٍ اضطر أنيبال الى الفرار من قرطاجنة . ثم ألب ملك مقدونية وملك سورية على محاربة

واقعة زاما والصلح

الرومان، وحارب بنفسه في جيوشهما ، ولما لم يفلح تناول السم فقضى على حياته سنة ١٨٣ ق . م مخافة أن يقع في أيدي الرومان أعدائه

﴿ الحرب الثالثة ﴾

(١٤٩ – ١٤٦)

اتفق أن أحد ملوك إفريقية المجاورين لقرطاجنة تعدّى عليها وأهانها مراراً عديدة فهمّت « قرطاجنة » بالدفاع عن نفسها ، فاعتبر الرومان ذلك مخالفاً لشروط الصلح الذي تم بينها وبينهم سنة ٢٠١ وشنّوا عليها الغارة . فلما أنِست « قرطاجنة » من نفسها الضعف طلبت من الرومان الصلح بالشروط التي يختارونها ، فطلبوا منها تسليم جميع أسلحتها وأسطولها ، وبعد أن فعل القرطاجنيون ذلك طلب منهم الرومان الجلاء عن المدينة واتخاذ مكان جديد لهم يبعد عن البحر بنحو عشرة أميال . فهال القرطاجنيين ذلك ، وانقلب ضعفهم الى شجاعة اليأس ، فقاموا رجالاً ونساء ، كباراً وصغاراً، للدفاع عن مدينتهم ، وبنوا لهم أسطولاً جديداً وردوا هجمة الرومان ، فبقي هؤلاء سنتين كاملتين غير قادرين على أخذ المدينة ، ولكنهم تمكنوا أخيراً من الاستيلاء عليها وأحرقوها ، وبذا قضوا على أكبر أعدائهم وأعظم عائق لاتساع احراق قرطاجنة ملكهم . فكان ذلك ابتداء سيادتهم في المغرب

﴿ فتوح الرومان ﴾

لم تكن أطماع الرومان قاصرة على الغرب ، بل لم تنته الحروب البونية حتى استولت رومية على مقدونية (سنة ١٦٨ ق . م .) وبسطت سيادتها التامة على بلاد الإغريق (١٤٦ ق . م .) وجزء كبير من آسيا الصغرى ، فوق ما استولت عليه من قبل من صقلية وسردانية وقرشقة وجنوبي جبال الألب من بلاد الغال ، واسبانيا وإفريقية . وقد واصلت فتوحها في الشرق حتى تم لها على يد «بومبي» (بومبيوس) الاستيلاء على جميع سورية وأكثر آسيا الصغرى سنة ٦٣ ق . م

ثم فتح يوليوس قيصر ما وراء جبال الألب من بلاد الغال (٥٨ – ٥٠ ق . م .) ثم برطانية سنة ٥٥ ق . م

وفى سنة ٣١ ق . م . استولى أكتافيوس على مصر عقب واقعة « اكتِيُوم »، وسيأتى ذكر ذلك فى الكلام على علاقة الرومان بالبطالسة

﴿ اضمحلال الجمهورية وتأسيس الامبراطورية ﴾

أسباب الضعف — لما أخذت الدولة الرومانية فى هذا الاتساع العظيم أصبح أعضاء الجمعية العمومية غير قادرين على إدارة سياستها لعدم درايتهم بشؤون تلك الممالك الواسعة البعيدة عن بلادهم ، فأخذ أعضاء مجلس السناتو ينفردون بادارة الدولة ، فدبّ فيهم روح الطمع واغتصاب الأموال الطائلة والانغماس فى الترف والتنعم، ثم انهم قصروا المناصب الكبيرة على أقاربهم أو من على شاكلتهم من الأشراف. فأصبحت حال الطبقات الأخرى سيئة جدًّا ، لسوء أعمال طبقة الأشراف ، ولانتشار الرقيق انتشاراً عظيماً لكثرة أسرى الحروب العديدة التى نمت بها أملاك الدولة . فكان هؤلاء الأسرى يُسخّرون فى زراعة الأرض فيرخص بذلك المحصول فلا يستطيع المزارع الحرّ الصغير استدامة زراعة أرضه ، لأن المال الذى يكتسبه منها أصبح لا يفى بحاجته ، فانتشر الفقر فى البلاد بين الطبقات الدنيا، وأصبح كثير من الناس اعطالاً، وهرعوا الى مدينة رومية ليعيشوا من السؤال وتبرعات الأشراف. ولم تُوفَّق حكومة الجمهورية الى حسن ادارة تلك الأملاك الشاسعة، وعجزت عن سن النظام الكفيل بذلك ، فأدت هذه الحال السيئة بالطبع الى القلاقل والفتن بالرغم من مساعى المصلحين . ووقعت البلاد

الحروب الداخلية — فى حروب داخلية استمرت مدة طويلة . وقد ساعد على ذلك ما قام من المنافسة بين كبار قوّاد الجيش ، فان الواحد منهم كان اذا عاد من غزوة منتصراً عمل على نزع السلطة من غيره وجمعها فى يده ، فمن ذلك أن « مَرْيوس » تمكن بفضل انتصاراته بين سنتى ١١٣ و ٩٠ ق . م من تقلّد منصب القنصليـــة سبع مرات ، ثم قام قائد

آخر يدعى « سَلاّ » وقاومه حتى أخرجه من « رومية » ، ولما عاد هو منتصراً من حروبه بآسيا الصغرى سنة ٨٢ ق . م نُصِّب « دِكْتاتوراً » * على الدوام

ومن ذلك أيضاً أن « بومبى » لما تم له صدّ غارة داخليــة فى اسبانيا ، وأخمد ثورة كان قد قام بها المصارعون فى رومية ، جُعل قنصلاً سنة ٧٠ ق . م . ولما عاد من فتوحه العظيمة فى الشرق سنة ٦١ ق . م . اتفق مع اثنين آخرين من القواد وهما « يُولِيُوس قَيْصَر » و « كِراسُوس » على أن يغتصبوا السلطة من الجمهورية تدريجيا ويقسموها بينهم ، فظفر كل منهم بمأربه . ويعرف ذلك «بالحكومة الثلاثية الأولى» وبعد قليل مات كراسوس ، فبقيت السلطة للاثنين الآخرين . وكان «قيصر» قد أُعطِىَ القيادةَ فى بلاد الغال ، فقضى فى فتحها من سنة ٥٨ الى سنة ٥١ ق . م حتى أخضع أهلها ، ونشر بينهم الحضارة الرومانيــة . وكان « بومبى » قد أُعطِىَ حكمَ اسبانيا ، فأناب عنهُ من يحكمها ، وبقى هو برومية يبغى القبض على زمام الأمور بها ، حتى نصّب بعدُ قنصلاً . ولما خشى من ازدياد شوكة « قيصر » عمل بالاتحاد مع رجال السناتو على سلب السلطة منه

الحكومة الثلاثية الاولى

يوليوس قيصر وبومبى



(يوليوس قيصر)

ولكن «قيصر» لم يكن بالرجل الذى يُغلب على أمره ، بل كان من أعاظم رجال التاريخ قيادةً وسياسةً وبلاغةً ، فهجم قيصر بجيشه بغتة على ايطاليا فاستولى عليها فى ستين يوماً . ثم قهر قواد بومبى فى اسبانيا سنة ٥٢ ق . م . وفى السنة التالية تبع بومبى الى بلاد اليونان فهزمه فى واقعة « فَرْسالِيا » . سنة ٤٨ ق . م . ثم فرّ « بومبى » الى مصر ، فتبعه اليها بعد أن بدّد شمل جيشه

واقعة فرساليا

* ومعناه صاحب الكلمة المطلقة

فكان من أمر قتله ما كان مما سيأتى ذكره عند الكلام على انقراض دولة البطالسة ثم تغلب قيصر على الحزب الموالى لبومبى . وما زال يجمع لنفسه من النفوذ والسلطان بمهارته وحسن سياسته حتى قبض على جميع الأعمال فى رومية، وصار أشبه بملك منفرد بالحكم، وهو بلا شك كان ينوى تأسيس أسرة ملكية يتناول فيها الحكم الولد عن أبيه . وقد سلك سبيل الإصلاح باذلاً ما فى وسعه لتوطيد السكينة فى البلاد ، غير أن فئة من المحافظين لم يَرُق ذلك فى أعينهم، واتهموه بأنه يعمل على استعباد الرومان، فألفوا منهم عصابة سرية بزعامة « بُرُوتوس » وقتلوه فى منتصف شهر مارس سنة ٤٤ ق . م

قتل قيصر

على أن زعماء هـذه الحركة لم يجنوا فائدة من وراء فعلتهم ، بل أضرموا بذلك حرباً داخلية أخرى ، فنقم عليهم ثلاثة من القوّاد المنتصرين لقيصر ، وهم « أُكتافيوس » (وكان من أُسرة يوليوس قيصر) و « لبيدوس » و « أنطُونيوس » (انطوان) ، وكونوا منهم «الحكومة الثلاثية الثانية» وقهروا الثائرين فى موقعة «فِلبى» (بمقدونيــة) سنة ٤٢ ق . م . ثم فصل لبيدوس منهم وبقى الحكم فى أيدى أُكتافيوس وأنطونيوس . ثم وقع بين هذين من التنازع ما أفضى أخيراً الى واقعة « أكتِيُوم » سنة ٣١ ق . م . التى كانت نتيجتهــا انتصار أُكتافيوس واستيلاء الرومان على مصر جملةً

الحكومة الثلاثية الثانية

واقعة فلبى

الفصل الرابع

علاقة الرومان بالبطالسة

ما كادت دولة « الرومان » تظهر بين ممالك الأرض حتى أخذت العلائق تنشأ بينها وبين دولة البطالسة فى مصر ، ولبثت بين الدولتين مدة طويلة ، من أيام مجد البطالسة الى انقراضهم ، تقلبت أثنــاءها فى عدة أطوار : ابتدأت بمصادقة الرومان للبطالسة، ثم انتقلت الى حمايتهم لهم، ثم السيطرة عليهم، ثم انتهت باستيلائهم على مصر .

ويُلخص سير هذه العلائق من مبدئها فيما يأتى : —

بطليموس الثانى يخطب ود الرومان

ابتدأت العلائق بين الدولتين بإرسال « بطليموس الثانى » وفداً الى « رومية » ليخطب ودّها (فكأنه كان يعرف مالها من المستقبل العظيم) . فقبلت رومية صداقة مصر ، ومن ذلك الحين كثرت التجارة بين ايطاليا والاسكندرية

ثم أخذت هذه العلائق تتدرّج فى أطوار جديدة بدخول ملوك البطالسة فى طور الضعف والاضمحلال : ففى سنة ١٧٣ ق . م . أراد « أنطِيُوخُوس » ملك سوريا الاستيلاء على مصر استخفافاً ببطليموس « السابع » الذى لم تتجاوز سنّه اذ ذاك الخامسة عشر ، فحاصر « أنطيوخوس » مدينة الاسكندرية . فتدخّل الرومان فى الأمر وثبّتوا « بطليموس » فى عرشه وردّوا « أنطيوخوس » الى بلاده . ثم ان « بطليموس » هذا طرده أخ له من مصر بعد ذلك ببضع سنين . فذهب الى « رومية » فى حالة رثّة يطلب المعونة . فاتفق مجلس « السناتو » على أن يعاد الى « بطليموس » ملك مصر وأن يُعطى أخوه « برقة » ، فرضى الأخوان بهذا الحكم احتراماً لروميه ، وان لم ينطبق تماماً على رغبة كليهما

الرومان يحمون بطليموس السابع

يطلبون مشاركة مصر لهم فى الحرب

وفى عهد « بطليموس التاسع » حضر القائد الرومانى « شِبيُون الإفريقى » الى مصر لمشاهدتها واختبار أحوالها ، فقوبل بترحاب كبير ، وان كانت زيارته لم تأت بنتيجة معيّنة . كذلك أرسل « سلاً » سفيراً سنة ٨٧ ق . م . ليطلب من « بطليموس العاشر » مساعدة الجمهورية فى الحروب الكثيرة التى كانت اذ ذاك قائمة بها ، فلم يجب « بطليموس » ملتمسه ، وإن كان قد أكرم سفيره اكراماً كبيراً

رومية تؤيد بطليموس الثالث عشر

وفى سنة ٨١ ق . م . قام « بطليموس الثالث عشر » مطالباً بالملك بدون أن يكون له حق ظاهر فيه ، وكانت شوكة « الرومان » حينئذ قد قويت فأصبح الذى يطالب بالملك يضمنهُ متى عزّزته رومية . فرشا بطليموس رجالها بمال كثير ، ففاز بالحكم مدة من الزمان ، وإن كان « يوليوس قيصر » قد حاول أن يحظى بمصر لنفسه

ثم قام المصريون أنفسهم ونفوا « بطليموس الثالث عشر » من البلاد ، فشغل

الرومان بشأنه، وخطب خطيبهم «شيشرون» مدافعاً عنهُ واقترح إعادة الملك اليهِ، فأرسل « بُومبي » وحاكم سورية الروماني جيشاً لتنفيذ ذلك، فهزموا الجيوش المصرية وأعادوا بطليموس الى عرشه . فكان ذلك من أكبر مظاهر قوّة « رومية » ومقدار ما وصل اليهِ نفوذها في مصر حتى بات ملوك مصر لا يأمنون على ملكهم بدونها

ارسال صورة من وصيته الى رومية

وعند وفاة « بطليموس الثالث عشر » سنة ٥١ ق . م أوصى بأن تخلفهُ في الملك ابنته « كِلْيُوبطْرة * » ، وحفظ صورة مختومة من هذه الوصية في مصر وأرسل صورة أخرى الى « رومية » حرصاً على تنفيذها بعد مماته

وفي أيام « كليو بطرة » تم استيلاء الرومان جملةً على مصر ، فأصبحت ولاية رومانية كما سيأتي بيانه :

﴿ كليو بطرة ﴾

تولت « كليو بطرة » الملك بعد وفاة أبيها سنة ٥١ ق . م . وكانت سنها إذ ذاك ١٦ سنة . فأشركت معها في الملك أخاها بطليموس الرابع عشر طبقاً لوصية أبيها . ولكن بعد مضي أربع سنوات عليها أوعز الأوصياء الى أخيها بأن ينفرد في الملك ، وكان قد بلغ إذ ذاك ١٤ سنة ، فسمع لهم . ولمَّا لم تقدر كليو بطرة على اضطهاد الشعب لها ذهبت الى سورية وجمعت جيشاً في بضعة أشهر وعادت الى مصر سنة ٤٨ ق . م لتسترد عرشها . فتقابل جيشها مع جيش أخيها على الحدود ، وعند ذلك وصل «يوليوس قيصر» الى مصر، فصرف كلٌّ من المتحاربين جيشه ورفعا أمرهما الى قيصر

قيصر يحكم بين كليوبطرة واخيها

وكانت كليو بطرة ذات جمال وافر ورشاقة بديعة . وكانت على جانب عظيم من الدهاء والفطنة ، ولها إلمام بلغات عديدة واطلاع واسع في الأدب ، فأثَّر كل ذلك في قيصر ، وقرر أن تتولى الحكم مع أخيها وأن تتزوَّج بهِ طبقاً لعادة الكثير من الملوك المصريين

* بعض المؤرخين يسميها كليوبطرة السادسة والاخر يقول انها السابعة ، وقد أطلنا الكلام عليها نوعاً للشهرة التي نالتها في عالم التاريخ والروايات

وكان أحد القواد المصريين قد قام وقتئذٍ لإخراج قيصر من مصر، وَبَعَثَهُ بالاسكندرية بجيش كبير. ولم يكن قيصر على تمام الأهبة، فاضطر لإحراق أسطوله خشية أن يقع في يد المصريين. ويقال ان مكتبة الاسكندرية أُحرقت أيضاً بهذا السبب. ثم استمر القتال طويلاً بين قيصر والقائد المصري، ولما وصل الى قيصر المدد تمكن من التغلب على الجيوش المصرية، وفي احدى هذه الوقائع غرق بطليموس

وبعد انتهاء الحرب صفح قيصر عن المصريين، وغادر البلاد بعد أن ترك فيها حامية برياسة أحد قواده. وأمر بأن يتولى الحكم مع كليوبطرة أخوها الثاني، وسماه بطليموس الخامس عشر وزوّجه بها

وعند ذلك خشيت كليوبطرة أن يضيع نفوذها وسلطانها على قيصر بمضي الزمن، فتبعته الى « رومية » حيث أُعدّ لها قصر عاشت فيه لحين قتل قيصر في سنة ٤٤ ق . م . فعادت الى مصر بعد أن توفي أخوها (وزوجها) في رومية في نفس السنة التي قتل فيها قيصر

كليوبطرة وانطونيوس

ولما تنازع قواد قيصر بعد مماته كان النصر لأنطونيوس وأُكتافيوس اللذين أمدّت كليوبطرة خصميهما. فاستدعاها أنطونيوس اليهِ لتجيب عن عملها. وكان إذ ذاك بجهة «طرَسُوس» بمقاطعة « كيليكيا »، فذهبت اليهِ في سفينة فاخرة، جمعت فيها من أنواع الزينة والزخرف وآلات الطرب والخدم والحاشية ما يذهب بالألباب. فوقعت مقابلتها لأنطونيوس في قلبه موقع السهام، فأفقدته كل إرادته وصيَّرته خاضعاً لها الى آخر أيام حياته، فصفح عنها وذهب معها الى الاسكندرية حيث عاش في لهو ولعب وترك كل واجباته العسكرية، ولما رأى « اكتافيوس » أن أنطونيوس منصرف عن أخته التي كان قد زوَّجهُ بها، وأن انقطاعه لكليوبطرة أنساه كل شيء، أثار عليه الشعب الروماني، وأعلن آكتافيوس الحرب على كليوبطرة، فخرج كل من أنطونيوس وكليوبطرة للقتال (سنة ٣١ ق . م .) وكانت كليوبطرة تقود أسطولها بنفسها، ولكنها لما رأت أنها ستُغلب على أمرها بالقرب من «أكتيُوم» (غربي بلاد اليونان)

رجعت بأسطولها الى الاسكندرية وادّعت أنها الغالبة

واقعة اكتيوم سنة ٣٠ ق . م

عند ذلك أدركت كليوبطرة أن نجم انطونيوس قد أفل، وخشيت أن تقع فريسة فى يد « اكتافيوس » ، فحاولت التغلب عليه بالحيلة والدهاء، فلم تفلح، فصممت على قتل نفسها، وأرسلت الى انطونيوس تخبره بذلك، فظن أنها انتحرت بالفعل، فطعن نفسه بمدية . ولما أخبر أنها ما زالت على قيد الحياة طلب أن يُحمل اليها وهو على تلك الحالة، فمات عندها ودفنته باحتفال عظيم

ولما اشتد خوفها من « اكتافيوس» همّت بقتل نفسها، فوضعت حيّة على صدرها لدغتها فماتت



(كليوبطرة)
كما رسمت على الآثار المصرية

معبد دندرة

ومن أهم آثارها «معبد دَنْدَرة» : أسسته هى وزِيدَ فيه بعدها، وما زال حافظاً لشكله ورونقه كما ذكرنا

وبهلاك كليوبطرة انتهت أسرة البطالسة فى مصر بعد أن حكموا نحو ٣٠٠ سنة، وصارت البلاد من بعدهم جزءا من الامبراطورية الرومانية



داخل معبد دندرة

(رسم لكجيان)

الفصل الخامس

كلمة فى الامبراطورية الرومانية

قبض اكتافيوس على زمام الدولة الرومانيـة فنهج منهج الحكمة والاعتدال . ولم يظهر بمظهر الملوك ، خشية أن يثور عليه الرومان كما ثاروا على يوليوس قيصر من قبل ، فلم يغيّر شيئاً من نظام الحكومة الظاهر ، ولكنه فى الحقيقة أخذ يجمع السلطة فى يده بالتدريج حتى صار هو القابض على كل شىء بدون أن يثير عليه أحداً . وقد لقب بلقب « إمبراطور »* و « أغُسْطس » ، فكان حكمه مبدأ حكومة الامبراطورية ومنتهى أيام الجمهورية

اغسطس وزماء عصره

وحكم « أغسطس » ٤٤ سنة كانت من أزهى عصور الرومان ، فساد فيها السلم وارتقت العلوم والآداب، وظهر الكثير من نبغاء الكتّاب والمؤلفين، فمن ذلك «فرْجِيل» و « هورَاس » و « أُفيد » الشعراء و « ليفى » المؤرخ الشهير

ثم استمرت الحكومة الامبراطورية بعد عهد أغسطس . واستولى عليهـا عدة امبراطورين الواحد بعد الآخر ، منهم العادل والظالم ومنهم القوى والضعيف . وآخر من استولى على الملك من أسرة أغسطس (أى من نسل يوليوس قيصر) هو « نيرون » الذي اشتهر بالظلم والقسوة والاستبداد . ومما ينسب اليه أنه أحرق مدينـة رومية . واتفق المؤرخون على أنه يوم إحراقها كان يشاهد النيران تأكل المدينة وأهلها فيُسر بهذا المنظر ، كأنه ينظر الى رواية تُمثَّل فى ملهى من الملاهى

نيرون

ومن أشهر الملوك الذين تولوا الملك بعده الامبراطور « ترَاجان » (٩٨-١١٧م) وفى مدته بلغت أملاك الرومان أبعد مدى وصلت اليه ، فكانت الدولة الرومانيـة تمتد من نهر الفرات شرقاً الى شواطئ المحيط الأتلنتى غرباً ، ومن شمالى انجلترا شمالاً

تراجان

---

* ومعناه القائد

الى مدار السرطان جنوباً ، وقد قُدرت أراضى هذه الدولة الشاسعة بما يزيد على ١،٦٠٠،٠٠٠ ميل مربع معظمها من أعمر الأرض وأخصبها

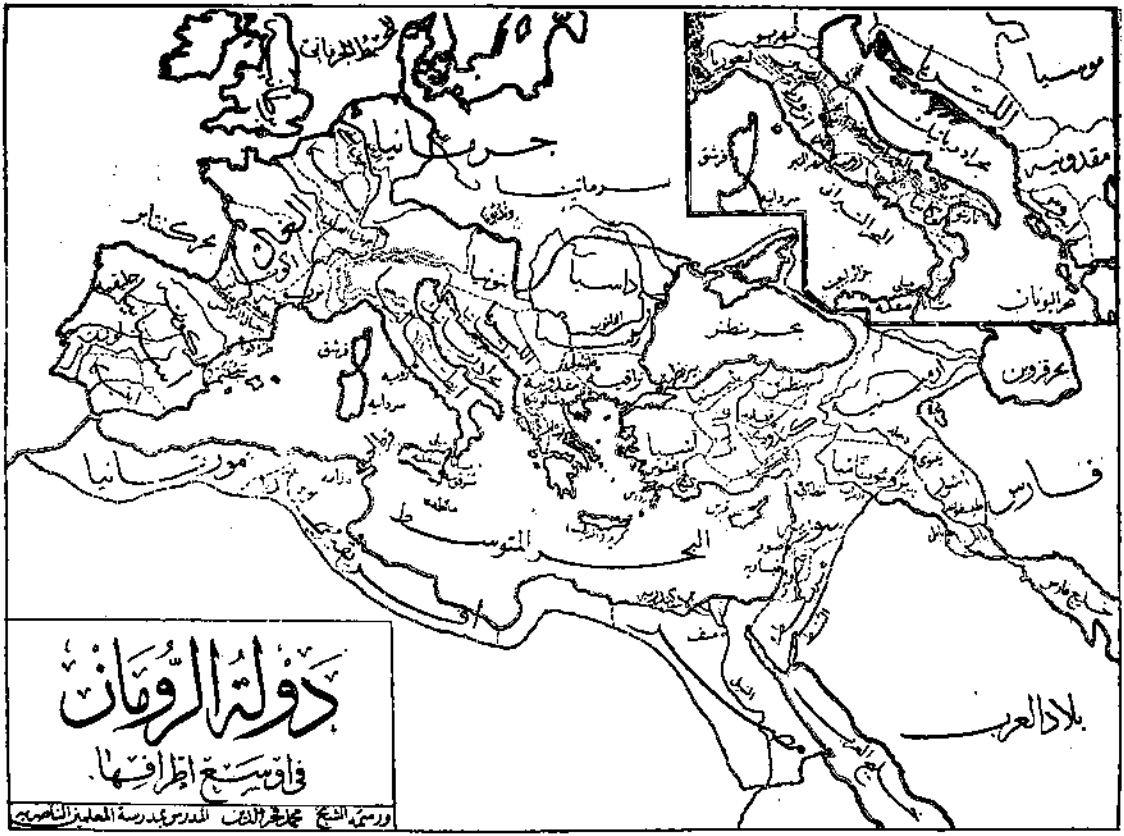
بلغت الدولة الرومانية نهاية كمالها ، ولكن علة الهرم كانت قد دبّتْ فيها من قبل ، فأخذت الأمم البربرية ، ولاسيما الألمانية منها ، تكثر من غاراتها على الحدود الشمالية . وحقاً أخذت الدولة فى التقهقر بعد سنة ١٨٠ ميلادية ، ولم يؤجل سقوطها النهائى الآ ظهور بعض الامبراطورين المصلحين الذين كانوا يسكّنون باصلاحهم تيّار الاضمحلال من آن لآخر . ومن أشهر المصلحين الذين ظهروا فيها اذ ذاك الامبراطور « دِقْلِدْيَانُوس » (٢٨٤ – ٣٠٥ م) . ومن اصلاحاته أنهُ قسم الدولة الى أربعة أقسام لاتساعها الشاسع ، فولى كلاً منها أميراً ورأس بنفسه أحد الأقسام . فأحدث هذا النظام اصلاحاً فى هيئة الحكومة ، وان لم يدم نفعه طويلاً ، فبعد أن توفى دقلديانوس اشتدّ النزاع بين الحكام ، فأفضى ذلك الى حروب داخلية انتهت بغلبة « قُسْطَنْطِين» الأكبر على الجميع . فانفرد قسطنطين الأكبر (٣٢٣–٣٣٧م) بالملك ، ولكنهُ حافظ على باقى اصلاحات دقلديانوس . ومن أعماله أنهُ جعل المسيحية الديانة الرسمية للبلاد ، فكان بذلك أعظمَ نصيرٍ لها فى الأرض منذ وُجدت، وان كان لم يحرّم الوثنية

(دقلديوناس واصلاحاته)

(جعل المسيحية الديانة الرسمية)

﴿ نقل العاصمة الى القسطنطينية ﴾

ومن أعمال قسطنطين أيضاً أنهُ نقل عاصمة الدولة من رومية الى « بُوزَنْطِيَة » على شواطئ البسفور . وهذه المدينة قديمة ، أسسها نزلاء الإغريق فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، ثم تقلبت فى عدة أطوار كانت فيها خاضعة للإغريق إلى أن استولى عليها الرومان ، فبقيت تابعة لهم الى أن أعجب قسطنطين مناعة موقعها وصلاحيته للتجارة ، فنقل عاصمة الدولة الرومانية اليها سنة ٣٣٠ م ، وسُميت من ذلك الحين بالقسطنطينية تنسبةً الى قسطنطين الأكبر



دولة الرومان
في أوسع أطرافها
جرمانيا
سرماتيا
داسيا
بحر نطش
بحر قزوين
فارس
آسيا
سوريا
موريتانيا
البحر المتوسط
بلاد العرب
بحر اليونان
مقدونيه

نتائج نقل العاصمة الى القسطنطينية

وقد كان لنقل العاصمة الى القسطنطينية عدة تأثيرات فى الدولة : منها أن الدولة أخذت تظهر عليها المَسْحة الإغريقية، لانطباع هذه المسحة فى العاصمة الجديدة من مدة طويلة، ومازالت تتأثر بذلك شيئًا فشيئًا حتى حلّت اللغة الإغريقية محل اللاتينية وصارت اللغةَ الرسمية للدولة . ومنها أن نقل قوة الدولة الى الشرق حمى الشرق من غزوات الأمم المتبربرة وسهل عليهم غزو الجهات الغربية . ومنها أن مدينة رومية لما هجرها الامبراطور نظرت الى « البابا » (الرئيس الدينى) نظرة الممثل لها ، ومن ذلك العهد ابتدأ نمو سلطة البابوية

الدولتان الغربية والشرقية

وبعد وفاة قسطنطين قُسمت الدولة بين أولاده الثلاثة ، ثم اتحدت بعدُ ، ثم انقسمت مرة أخرى ، الى أن تمّ تقسيمها النهائى سنة ٣٩٥ م الى قسمين: الدولة الغربية وعاصمتها رومية ، والدولة الشرقية وعاصمتها قسطنطينية . وقد استمرت الدولة الشرقية بعد ذلك نحو ١٠٠٠ سنة تمكنت فيها بفضل مناعة موقعها من رد غارات الأمم المتبربرة الأوربية من القوط والسلاف وغيرهم ، كما صدت غارات الفرس والعرب ، ولكنها لم تستطع الدفاع عن معظم أملاكها : فنزع العرب من يدها شرقى آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ومصر وبرقة وأفريقيــة وجزائر البحر الأبيض الشرقية، وابتدأ ذلك من سنة ٦٢٢ م فى عهد القيصر « هِرَقْل » . ثم بقيت فى نزاع مستمر مع العرب وأمم أوربا، ثم مع الترك، حتى أزالها من الوجود الفاتح الأعظم السلطان محمد الثانى بفتحه مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م فأصبحت من ذلك الوقت حاضرة لملك سلاطين آل عثمان الى وقتنا هذا

سقوط الدولة الشرقية

سقوط الدولة الغربية

أما الدولة الغربية فلم تعمر طويلاً ، اذ كثرت غارات الأمم المتبربرة عليهـا واستولوا شيئًا فشيئًا على أملاكها . وأخذت قوة امبراطورها فى الضعف حتى كادت تكون اسمية فقط، وفى سنة ٤٧٦ م اغتصب « أُوذَوَكَر » زعيمُ القوط ما بقى من القوة فى يد « روميليوس أُغُسطلوس » الامبراطور الرومانى ، وبذا سقطت الدولة الرومانية الغربية

الفصل السادس

مصر فى عهد الرومان

استولى أغسطس على مصر سنة ٣٠ ق . م . فكانت ثمرة انتصاره . ولذلك اعتبرها جزءا من أملاكه الخاصة ، فمنع رجال السناتو برومية من التدخل فى شؤونها ، وحرّم عليهم ولاية شئ من أعمالها ، بل الرحلة اليها بدون اذن منه

اشتهار مصر بتصدير الحبوب

ودخلت مصر باستيلاء الرومان عليها فى عهد خمول سياسى طويل امتد نحو ٦٧٠ سنة (من ٣٠ ق . م . الى ٦٤١ م) لم يكن لها فيه شئ يذكر فى التاريخ ، بل كانت بمثابة حقل لإنتاج الحبوب وتصديرها إلى رومية لسدّ أهم جزء من الخراج



(المعبد الرومانى بمدينة آبو) رسم لكجيان

المبانى والفنون الجميلة

كذلك قصر فيه تشييد المبانى العظيمة من هياكل وغيرها ، ولا سيما ما كان منها على الطراز المصرى القديم ، فإنهُ بعد أن أقام الرومان على هـذا النمط بضعة من المعابد الصغيرة ، وشيدوا أجزاء جديدة فى بعض القديمـة ، مثل معابد

« مدينة آبو* » و « فيلة » و « دَندرَة » و « قِفْط » وغيرها ، أخذوا يشيدون المبانى على الطراز الإغريقى أو الرومانى . ولم يكن ما شيدوه من هذا النوع أيضاً بالكثير، لما أصاب البلاد من الفقر فى أواخر أيامهم باشتداد ظلمهم وعسفهم. أما الرسم والتصوير وفن البناء ذاته فقد لحقها الاضمحلال والانحطاط فى العصر الرومانى ، غير أنهُ ظهر فى هذه الفنون نوع جديد ما بين إغريقى ومصرى ، وهو جميل فى بابه (انظر شكل التابوت) . وأخذ اهمال النقوش الهيروغليفية يزداد يوماً فيوماً حتى نُسيت تلك الكتابة بالمرة فى آخر العصر الرومانى ، وبقيت النقوش والكتابات الكثيرة التى على الآثار المصرية غير مقروءة الى أن حُلّت رموزها بعد العثور على حجر رشيد كما ذكرنا فى أول الكتاب



(تابوت من العصر الرومانى)

نظام الحكومة

وأما نظام الحكومة فلم يغيّر الرومان منه شيئاً كبيراً ، شأنهم فى المالك التى يستولون عليها ويجدون بها حكومة منتظمة . فأبقى أُغسطس معظم أنواع الأنظمة الداخلية التى اختطتها البطالسة ، ونصّب من قِبَله والياً على البلاد ، فبقى جوهر هذا النظام متبعاً حتى انتهاء الحكم الرومانى فى مصر

وكان مقرّ الوالى مدينة الاسكندرية ، وينتقل فى أنحاء البلاد لسماع المظالم واصلاح المخاصمات

* غربى طيبة . وقد يطلق على الاثر الذى أوردنا رسمه هنا « المعبد الرومانى » والحقيقة أن السور الخارجى والنقوش التى على قوائم الباب هى التى من عمل الرومان . أما البرجان والسودان فمن آثار البطالسة

وجمع الخراج والإشراف على الجيوش وعمل الاحصاءات ، وكانت المملكة مقسمة الى عدة مديريات يرأس كلاً منها مدير ، وكان للوالى مساعدان فى أول الأمر وثلاثة فيما بعد يستعين بهم فى الإشراف على إدارة أقسام مصر الثلاثة : العليا والوسطى والسفلى

وكان معظم هذا النظام متبعاً فى زمن البطالسة ، وحقاً لم يغير أغسطس من نظام البلاد شيئاً يذكر سوى إلغاء مجلس مدينة الاسكندرية ، إذ أراد أن يفهم أهلها (وكان معظمهم من الإغريق) انهُ لا ينبغى لهم أن يرتكنوا على قرابتهم من الفاتحين ، وينظروا الى أنفسهم كأنهم أرقى من باقى السكان . فألغى مجلس مدينتهم الذى كان أشبه بحكومة محلية تدير شؤونهم ، ومنح اليهود جميع الحقوق والامتيازات التى كانوا قد اكتسبوها فى زمن البطالسة . وبذلك ساواهم بالإغريق إن لم يكن قد وضعهم فى مستوًى أرقى من مستواهم

كثرة الفتن والقلاقل الداخلية

وفى زمن الرومان كثرت الفتن والثورات الداخلية بسبب اختلاف عناصر السكان ومذاهبهم فى أنحاء مصر، خصوصاً الاسكندرية . وقد تشكلت هذه الفتن والمشاحَّات فى أطوار مختلفة : فكانت فى أول الأمر بين الإغريق واليهود ، ثم بدخول الديانة المسيحية فى مصر فشا النزاع بين المسيحيين والوثنيين ، ثم انتقل الى الطوائف المختلفة التى نشأت فى المسيحية ذاتها بتعصب الحكومة الرومانية الى فريق دون فريق

وإذْ بيَّنَّا شيئاً من الحالة العامة فى مصر أثناء هذا العصر الرومانى حَسُنَ بنا أن نأتى على بعض الحوادث الهامة التى حدثت فى ذلك العصر فنقول :

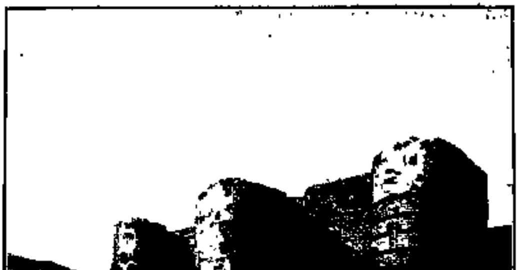
القرن الاول الاصلاح التدريجى

كان القرن الأول من العصر الرومانى (٣٠ ق . م – ٦٨ م) زمن إصلاح تدريجى فى البلاد ، ففيهِ صُدَّت الغارات عن الحدود الجنوبية ، واتسعت حركة تجارة مصر مع الهند والشرق بطريق البحر الأحمر ، وازدادت الزراعة (فى عصر أغسطس ثم نيرون) للاعتناء بكَرْى الترع والخُلجان التى كانت أُهملت من قبل .

وقد قامت فى هذه المدة عدة ثورات بين اليهود والإغريق بالاسكندرية ، أهمها ما حدث سنة ٣٨ م ، إذ نهب الإغريق الحىّ الاسرائيلى من المدينة ، وذبحوا عدداً كبيراً من سكانه . وانتهى الأمر باصلاح الامبراطور بين الفريقين ، ولكن ما لبثت المشاحنات أن تجددت بينهما

القرن الثانى المحافظة على التقدم

أما القرن الثانى (٦٨ – ١٨٢ م) فكان معظمه عهد تقدم كبير أيضاً فى مصر إذ أن الرقىّ الذى وصلت اليه البلاد فى أواخر القرن السالف وبلغ أقصاه فى أيام « نيرون » (على ما له من سوء السمعة) حافظ عليه ملوك القرن الجديد ، فظهرت نتائجه فى ثروة البلاد وراحة أهلها وتجارتها التى اتسعت فى الشرق حتى وصلت الى الصين . ومن أعظم ملوك هذا القرن الامبراطور « ترَاجان » (٩٨ – ١١٧ م) الذى حفر خليجاً من النيل الى البحر الأحمر لتوسيع نطاق التجارة فى الشرق . وفى مدته جُدِّد بناء حصن بابليون ، وهو حصن قديم لا يُعرف مؤسسه*



(حصن بابليون)

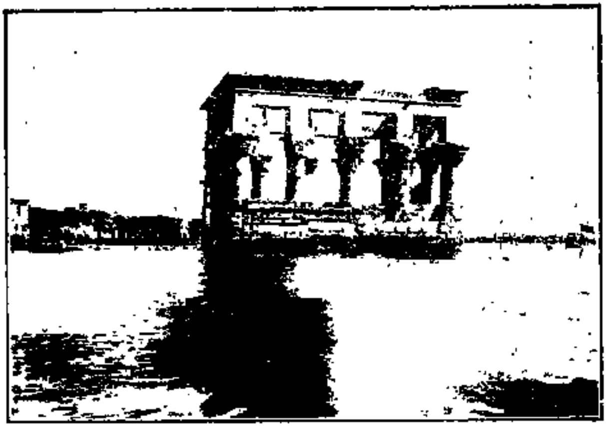
رسم سنة ١٧٩٨

---

* قيل هو من بناء الفرس

جدّده تراجان على الطراز الرومانى ، ولا تزال بعض مبانيه باقية الى الآن بالقرب من كنيسة مارى جرجس بمصر القديمة . وهو الحصن الذى قاوم العربَ مدة طويلة أثناء فتحهم مصر

وفى أيام تراجان تم بناء معبد فيلة ، وشُيدت مبان أخرى عديدة فى أنحاء البلاد



(فيلة – معبد تراجان)

رسم نزانى

عهد تراجان

وفى عهده أيضاً حدث فى البلاد قحط بسبب انخفاض شديد فى النيل، فتداركه الإمبراطور بإرسال عدة سفن من رومية الى الاسكندرية محملة بالغلال . وفى أواخر أيامه حدثت فتن كبيرة بين اليهود والإغريق قام اليهود فيها بذبح كل من وصلت اليه أيديهم من الإغريق وطاردوهم ، فالتجئوا الى مدينة الاسكندرية حيث انتقموا لأنفسهم ممن عثروا عليه من اليهود داخل المدينة . واستمر القتال بين الفريقين عدة أشهر . وانتهى الأمر بطرد اليهود الى الصحراء بعد أن سُحق معظم من كان منهم بالاسكندرية

الثورة الداخلية

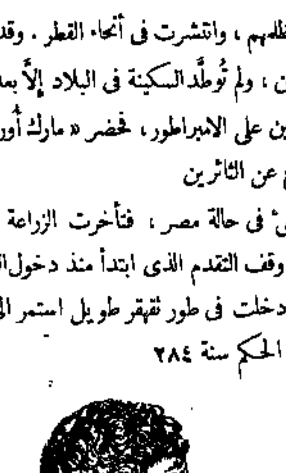
ومن أهم حوادث هذا القرن قيام ثورة داخلية فى عهد الامبراطور «مارك أوريل» (سنة ١٧٢ م) بدأت فى بعض فرق الجيش ثم انتشرت فى أنحاء البلاد ، فكانت أولَ شيء من نوعها فى زمن الرومان ، إذ أن جميع الفتن التى حدثت قبل ذلك كانت قاصرة على الاسكندريين ، وكانت بين بعض الطوائف وبعضها الآخر ، بخلاف هذه ، فانها كانت على الرومان لظلمهم ، وانتشرت فى أنحاء القطر . وقد لاقى الرومان مصاعب كبيرة فى إخضاع الثائرين ، ولم تُوطَّد السكينة فى البلاد إلا بعد عدة سنوات . ثم ثار أحد كبار القواد الرومانيين على الامبراطور ، فحضر « مارك أوريل » بنفسه الى الشرق ، فأخمد الثورة وصفح عن الثائرين

عهد مارك أوريل

وقد كان لهاتين الثورتين تأثير سيء فى حالة مصر ، فتأخرت الزراعة وأخذ الفقر يدبُّ فى البلاد . ومن ذلك الحين وقف التقدم الذى ابتدأ منذ دخول الرومان وما لبثت البلاد طويلاً بعد ذلك حتى دخلت فى طور تقهقر طويل استمر الى أيام الامبراطور « دِقْلِدْيانوس » الذى تولى الحكم سنة ٢٨٤

كراكلا

ومن أخبار ذلك العصر السيء أن الامبراطور « كَرَاكَلاَّ » لما تولى الملك سنة ٢١١، وكان ظالماً ضعيفاً، سخر منه الاسكندريون وعرَّضوا باسمه فى نكاتهم وهزلهم . فأتى بنفسه الى الاسكندرية لينتقم منهم ، فجمع عدداً كبيراً من شبانهم خارج المدينة وقتلهم . ثم أقام جداراً بالمدينة قسمها به الى قسمين ، وحرّم على سكان أحد القسمين الاختلاط بالقسم الآخر ، وأبطل الألعاب التى كان يقيمها الاسكندريون


الامبراطور كَرَاكَلاَّ

ومن أخبار ذلك العصر أيضاً أن الامبراطور « اسكندر سَفِيرُوس » أرسل

واليًا الى مصر من المشاغبين المغضوب عليهم فى رومية . ومن ذلك يُعلم مقدار انحطاط منزلة مصر فى نظر الرومان حتى أصبحت منفًى للمذنبين

استيلاء زنوبيا على مصر

وفى سنة ٢٦٨ م . أغارت زَنُوبيا[1] ملكة « تَدْمُر » من شمالى بلاد العرب على الشام ومصر ودخلت البلاد بعد مقاومة شديدة من الرومان ، وساعدها على ذلك بعض قبائل « بِلِمِّى » (البُجَة)[2] . وكانت هذه القبائل كثيرة الإغارة على الحدود الجنوبية ، فظاهروا أهل تدمر لما بينهم من القرابة الجنسية ، واستولت زنوبيا على معظم البلاد المصرية أكثر من سنتين الى أن تمكن الرومان من جمع جيش كبير وأخرجوها منها

صد هجمات البجة

بقيت البلاد على هذا الضعف حتى أتى « دِقْلِديانُوس » المتولى سنة ٢٨٤ م فنالت مصر جانبًا من الاصلاحات التى قام بها فى أنحاء الدولة الرومانية ، فصد هجمات البجة وغيرهم من القبائل العربية التى كانت لا تزال تغير على شرق الصعيد وأقام بعض قبائل النوبة حراسًا على تلك الجهات . ثم أصلح مالية البلاد ونظم ضريبة الغلال من جديد ، فخصص جزءًا منها لرومية ، وجزءًا لبذر الأرض ، والثالث لأهل الاسكندرية ، إعانة لهم على ما نالهم من الفاقة بسبب كثرة الثورات والقلاقل . فعظم ذلك الجميل فى أعين الاسكندريين وقدَّروه حق قدره ، فأقاموا عمودًا جميلاً بالمدينه تذكارًا لهذا الملك الشفيق ، واعترافًا بما أسداه اليهم من الجميل . ولا يزال هذا العمود بالاسكندرية ، ويعرف بعمود السوارى . وقد يسمى أحيانًا بعمود بومبى (وهو اسم غير صحيح لا أصل له) . ومما يؤسف له أن السكينة التى سادت فى البلاد على يد دقلديانوس لم تستمر طويلاً . بل انقلبت فى أواخر أيامه الى اضطرابات شديدة انتشرت فى أنحاء مصر بسبب اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين . وبيان ذلك أن الدين المسيحى كان قد دخل الديار المصرية من زمن بعيد على يد « القديس مُرْقس » (والأرجح أن ذلك كان فى عهد نيرون) ، فوجد فى مصر أرضًا خصبة،

عمود السوارى

المسيحية فى مصر

(١) هى الزباء الشهيرة (٢) يقال انهم أجداد البشاريين الذين لا يزالون يقيمون بأعلى الصعيد

فكانت أول أرض قوى شأنهُ فيها ، ودخل فيه أناس كثيرون . وما زال عدد أتباعه يزداد يومًا فيومًا ، واعتقادهم فيــه يقوى شيئًا فشيئًا حتى ملك دقلديانوس . فلما رغب الى الرعايا أن يضعوه موضع الألوهية ليضمن بذلك حياته وملكه لم يخضع لإرادته مسيحيو مصر . وقاوموه مقاومة كبيرة . فاضطهدهم وعذَّبهم ، فلم يزدهم ذلك إلاَّ تمسكاً بدينهم ، فذبح منهم عدداً عظيمًا فى جميع أنحاء البلاد من جميع طبقات أهليها . ويقال ان من بين الذين ألح عليهم الامبراطور فى الارتداد عن النصرانية فتاة حسناء تعرف بالسيدة «دِمْيانة» ، وكانت رئيسة لدير بجهة بلقاس ، فلم تسمع له ، فعذبها ثم أمر بذبحها ، وما زال قبرها بتلك الجهة مقدسًا إلى الآن يزوره الأقباط كل عام . وقد ترك عصر دقلديانوس أثراً كبيراً فى نفوس الأقباط حتى أنهم سمّوه « بعصر الشهداء » ، وجعلوا أوله (سنة ٢٨٤ م) مبدأً لتقويمهم يحسبون منهُ السنين والأيام عصر الشهداء



(عمود دقلديانوس)
المعروف بعمود السوارى

أضاعت هذه الاضطرابات ثمرة ما أصلحهُ دقلديانوس . وبقى المسيحيون فى اضطهاد حتى تولى الملك «قسطنطين» وجعل النصرانية الديانة الرسمية للدولة . فكان يُظن أن البلاد تتقدم فى عهده كثيراً . ولكن ما كادت تستقر قدمه فى الملك حتى ظهر فى مصر الخلاف بين الطوائف المسيحية المختلفة ، واستفحل أمره شيئًا فشيئًا بسبب تعصب ملوك بوزنطية لمذهب الأقلّية وعدم احترامهم لمذهب الأغلبية ، اذ

كانت لهم بمصر طائفة مسيحية من الروم تؤيدها الحكومة تسمى بالطائفة الملكانية ، مع أن السواد الأعظم من المصريين كانوا تابعين لطائفة أخرى تدعى اليعقوبية، وكانوا يلاقون من الروم اضطهاداً كثيراً ، فزادت كراهتهم لحكم الرومان، وسهل عليهم فى القرن السابع بعد الميلاد الاستسلام لحكم الفرس ثم الترحيب بالعرب كما سيأتى بيانه الملكانية واليعقوبية

وفى عهد قسطنطين ظهرت الرَّهبنة فى المسيحية لأول مرة ، فكان ذلك مبدأ تأسيس الأديرة التى عظم شأنها فى القرون الوسطى بأوربا وكان لها أكبر أثر فيها .

وراجت فى مصر الرهبنة والأديرة رواجاً كبيراً حتى أن الحكومة اعترفت ببعض الأديرة بعد ذلك بنصف قرن ، وسمحت بأن تكون لها أملاك خاصة بها . وانتظم كثير من الناس فى سلك الأديرة هروباً من الخدمة العسكرية وفراراً من الضرائب الباهظة ، وزاد ذلك حتى كاد يؤثر فى حالة الحكومة الاديرة فى مصر

﴿ استياء المصريين فى عهد الدولة الرومانية الشرقية ﴾

كانت مصر فى العهد الأخير من الحكم الرومانى فى حالة بؤس شديد وفقر مُدْقِع ، تزداد حالها تعسًا على تعس منذ عهد نيرون . اللهمَّ إلاَّ فترة قصيرة فى عهد دقلديانوس رجعت بعدها الى ما كانت عليهِ من التدهور المستمر ، فأصبح الأهلون بمثابة آلات لإنبات القمح ، وقد كادت زراعته تكون هى الحرفة الوحيدة فى البلاد إذ ذاك . ثم صارت الثروة قاصرة على أفراد قليلة ، وكثيراً ما كانت القرية الواحدة بأ كلها فى قبضة رجل واحد من الأثرياء ، مما قتل نفوس العباد ، وقضى على حياتهم الأدبية . ومن الأسباب التى ساعدت على استياء المصريين ما يأتى :

أولاً — زيادة الضرائب زيادة فاحشة ، حتى أصبح كل شىء تقريباً لا يخلو من ضريبة مفروضة عليهِ

ثانياً — تعصب الحكومة فى آخر العهد للإغريق وإيثارهم بكل منفعة، مع أنهم ليسوا إلاَّ عدداً قليلاً لا يمثل الأمة تمثيل القبط الوطنيين

ثالثاً – قصر كثير من المناصب على بعض الأسرات المثرية وجعلها وراثية فيها

رابعاً – حكم الدولة لمصر بسياسة القهر والسلاح وعدم استجلابها محبة الأهلين

خامساً – عدم استتباب الأمن فى البلاد ، كما يُعلم من أوراق البردى الكثيرة المملوءة بشكاوى أهل ذلك العصر من حوادث السرقة والنهب والاعتداء

دخول الفرس فى مصر

وفى سنة ٦١٠ م استولى الامبراطور « هرَقْل » على عرش الروم ، وفى أيامه توغّل الفرس فى أملاك الدولة الرومانية ، فأغاروا على سورية واستولوا على دمشق وبيت المقدس سنة ٦١٥ م . ثم زحفوا على مصر وفتحوا الاسكندرية سنة ٦١٧ م . وكان هرقل كبير النفس عالى الهمة ، فأثار نهضة قوية جديدة على الفرس أدّت الى انتصار الروم ، ولم تأت سنة ٦٢٨ م . حتى نكص الفرس على أعقابهم ، وساق هرقل جيوشه الى قصر كسرى فأحرقوه *. وعند ذلك اضطر الفرس الى الانسحاب من مصر . فعاد اليها الرومان ، غير أن العيش لم يطب لهم فيها طويلاً ، فاستولى عليها العرب سنة ٦٤١ م بقيادة البطل العظيم عمرو بن العاص ، كما سيأتى بيانه ان شاء الله تعالى

* هذه هى الحوادث التى نزلت فيها الآية الشريفة « الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِم سَيَغْلِبُونَ فى بِضْعِ سِنِين » . وكان ذلك من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم

ملخص

أهم الحوادث التاريخية من عهد دخول الفرس فى مصر الى أن فتحها العرب

مصـــــــر	التاريخ ق . م	البلاد الأجنبية
	٥٥٠	تأسيس «كورش» لدولة فارس واستيلاؤه على «ميديا»
	٥٤٦	استيلاؤه على «ليديا» ومعظم المدن الاغريقية بآسيا الصغرى
	٥٣٨	استيلاؤه على بابل
استيلاء الفرس على مصر بقيادة ملكهم «قمبيز»	٥٢٥	
قدوم دارا الاول الى مصر وقيامه باصلاحات كثيرة	٥٢١ — ٤٨٦	حكم دارا الاول ملك فارس
	٥١٠	طرد آخر ملك من ملوك رومية الاقدمين
	٤٩٤	مهاجرة البلبيان من رومية
	٤٩٠	واقعة مرتون بين الفرس والاغريق
اخراج الفرس من مصر	٤٨٦	
	٤٨٥ — ٤٦٥	حكم اجزرسيس الاول ملك فارس
رجوع الفرس الى مصر	٤٨٥	
	٤٨٠	واقعة ترموبيل وواقعة سلاميس
	٤٧٩	صد الفرس جملة عن بلاد الاغريق
	٤٨٠ — ٤٣٠	عصر بركليس
محاولة المصريين أن يطردوا الفرس	٤٦٥ — ٤٢٥	حكم ارتجزرسيس الاول ملك فارس
استمرار فى العمل على طرد الفرس	٤٣١ — ٤٠٤	حروب بلوبونيز
	٤٢٥ — ٤٠٤	حكم اجزرسيس الثانى ودارا الثانى
طرد الفرس من مصر لثانى مرة	٤٠٥	
	٣٩٦	استيلاء الرومان على فياى
	٣٩٠	اغارة الغاليين على رومية
دخول الفرس مصر لثالث مرة وانقراض دولة الفراعنة	٣٤٠	
	٣٣٣	قهر الاسكندر الفرس فى واقعة اسوس

مصـــــــر	التاريخ ق . م	البلاد الأجنبية
دخول الاسكندر مصر وتأسيس مدينة الاسكندرية	٣٣٢	
	٣٣١	قهر الاسكندر الفرس فى واقعة اربل
عهد البطالسة فى مصر : ٢٩٢ سنة	٣٢٣ — ٣١	
(١) بطليموس الاول : غزو فينيقية وجزء من سورية والاستيلاء على بيت المقدس لقب بلقب « ملك » — نظم البلاد ووسع الاسكندرية	٣٢٣ — ٢٨٥	
(٢) بطليموس الثانى : جدد الخليج القديم بين النيل والبحر الاحمر وجدد وادى الحامات — راجت التجارة وارتقت العلوم والمعارف — عظم مكتبة الاسكندرية ودار تحفها — يخطب ود رومية (٢٧٣)	٢٨٥ — ٢٤٧	حرب رومية مع « بيروس » (٢٨٠ — ٢٧٥) — سقوط « تارنتو » فى أيدى الرومان (٢٧٢ ق . م)
(٣) بطليموس الثالث : الاستيلاء على فيرنيقية (برقة) وجميع سورية حتى نهر الفرات — استرد السوريون الاجزاء الشرقية — اخضاع بلاد النوبة — تشييد مبان عظيمة (معبد أدفو)	٢٤٦ — ٢٢٢	
اضمحلال البطالسة (٢٢٠ — ٣١ ق . م)	٢٦٤ — ٢٤	الحرب البونية الاولى
يسط نفوذ الرومان على البطالسة تدريجاً :	٢٦٠	واقعة ميلى
(١) تأييد الرومان لبطليموس السابع : ١٧٣	٢٥٦	انهزام ريجولوس بافريقية
(٢) استمداد الرومان لبطليموس العاشر فى حروب رومية الكثيرة : ٨٧	٢٤١	انهزام القرطاجنيين بالقرب من جزائر أجيت
	٢١٨ — ٢٠١	الحرب البونية الثانية
(٣) تأييد الرومان لبطليموس الثالث عشر بدون حق : ٨١		واقعة ترازيمين ٢١٧
(٤) ارسال بطليموس الثالث عشر صورة من وصيته بالملك عند وفاته الى رومية لتحفظ بها : ٥١		واقعة كان ٢١٦ واقعة متوروس ٢٠٧
(٥) قيصر يفصل بين كليوبطرة وأخيها : ٤٧		واقعة زاما ٢٠٢
(٦) واقعة اكتيوم واستيلاء الرومان على مصر: ٣١ (أو ٣٠)		
	١٤٩ — ١٣٦	الحرب البونية الثالثة — احراق قرطاجنة — انتهاء الحرب البونية وابتداء سيادة الرومان فى الغرب
	٨٨ — ٨٢	تنازع السلطة بين ماريوس وسلا برومية
	٨٢ — ٧٩	تولى سلا دكتاتوراً على الدوام

مصـــــــر	التاريخ ق . م	البلاد الأجنبية
	٨٠ — ٦٧	ظهور بومبي
	٦٧ — ٦١	ظهور يوليوس قيصر
	٦٠	الحكومة الثلاثيـة الاولى (تعيين قيصر قنصلا سنة ٥٩)
	٥٨ — ٥١	غزو بلاد الغال (غزو برطانية سنة ٥٥)
	٥٢	تعيين بومبي قنصلا وحده
	٤٨	واقعة فرساليا بين بومبي وقيصر وقتل بومبي بالاسكندرية
	٤٤	قتل قيصر برومية
	٤٣	الحكومة الثلاثية الثانية
عهد الرومان فى مصر (نحو ٦٧٠ سنة)	٣٠ق.م- ٦٤١م	وفاة نيرون ٦٨ م
تقدم فى أول العصر بلغ أقصاه فى عهد نيرون — اشتهار مصر بالحبوب وكثرة تصديرها الى رومية — كثرت الثورات والفتن بين اليهود والاغريق بالاسكندرية مثل :		
فتنة سنة ٣٨ ميلادية	٣٨ ميلادية م	
دخول المسيحية مصر (فى عهد نيرون)		
عهد الامبراطور تراجان	٩٨ — ١١٧	
حفر الخليج بين النيل والبحر الاحمر — تجديد حصن بابليون اتمام معبد فيلة		
قيام ثورة فى الجيش ضد الرومان لظلمهم وتأثير هذه الثورة السيء فى تأخير الزراعة وحالة البلاد على العموم مدة طويلة	١٧٢	
اغارة زنوبيا ملكة تدمر على مصر ومساعدة قبائل البجة لها	٢٦٨	
قدوم دقلديانوس الى مصر — اقامة عمود السوارى (عصر الشهداء سنة ٢٨٤)		
عصر ظلم واستبداد كثرت فيه الفتن الداخلية بسبب اختلاف طوائف المسيحية	٣٠٠ — ٦٤١	
دخول الفرس مصر	٦١٦	
طرد الرومان الفرس	٦٢٨	
خروج الرومان من مصر واستيلاء العرب عليها	٦٤١	

الباب الثالث
عهد الدول الاسلامية

الفصل الأول
العرب وفتوحهم

(١) - ﴿ العرب قبل الاسلام ﴾

العرب أمة قديمة العهد لا يزال جيلها متميزاً ولغتها حية منذ آلاف من السنين

أحوال العرب وطبقاتهم

والعرب أمة ساميَّة جاءت من الشمال ، ونزلت فى أزمان بعيدة ، وعصور متفاوتة جزيرة العرب من غربى آسيا . وهم ثلاث طبقات :

(١) العرب البائدة ، من عاد وثَمُود وطَسْم وجَدِيس وحَضْرَمُوت والعمالقة وغيرهم . وهم سكان الجزيرة القدماء

(٢) العرب العاربة ، وهم الجالية الثانية من ولد يَعْرُب بن قَحْطان جد العرب المسمَّين بالقحطانيين ، النازلين فى الجنوب أولاً ، والمشتتين فى الوسط والشمال آخراً ، بحدوث الفتن الكثيرة بينهم وظلمهم أنفسهم وفساد مرافقهم ومزارعهم وتهدم سدود مياههم

(٣) العرب المستعربة ، من العبرانيين ولد اسماعيل بن ابرهيم (عليهما السلام) وهم الجالية الثالثة النازلون أولاً فى مكة والمنتشرون بعدُ فى وسط الجزيرة وشرقيها .

وهم المسمّون بالعَدْنانيين نسبةً الى جدّهم عَدْنان ، وهو آخر عمود النسب المعلوم لهم من بنى اسماعيل . ومن شعْب قحطان وعدنان تتألف العرب

البدو والحضر

وليست العرب كلها أمة بدوية ، بل ان من نزل منهم البقاع الخصبة أنشئوا دُولاً عتيدة ، مثل دول التّبابعة فى اليمن والمناذِرة من اللَّخْميّين فى العراق والغَسّانيين فى الشام . وجل هذه الدوَل من القحطانية

وكان أكثر العرب العدنانية بدواً يعيشون فى وسط الجزيرة وغربيها وبعض شرقيها كما يعيش العرب الرحّل الآن

وإذ كانت جزيرتهم تحوطها الصحارى والبحار وبلادهم لا تقوم بنفقات الجيوش الجرارة الغازية لها ، عاشوا أكثر أزمانهم فى مأمن من غارات الفاتحين وعبث الملوك المستبدين . والنازلون منهم فى أطراف الممالك الشمالية العظيمة كالروم والفرس اتخذتهم تلك الممالك حرساً على حدودها وعوناً لها على أعدائها ، كالمناذرة مع الأكاسرة والغسانيين مع الروم

أخلاق العرب وعاداتها

ومن أخلاق العرب التى طبعت فيهم بطبيعة بلادهم : الحرية والشجاعة والكرم والوفاء والأخذ بالثأر والقناعة

ومن عاداتهم القديمة تقليل الطعام والمنام ورياضة الجسم وتقديم الكبير فى الرأى والعمل

علوم البدو والحضر

ولم يكن للبدو منهم من علوم الحضر وصناعاته الدقيقة المتقنة شيء يذكر . وانما كانت علومهم قرض الشعر (وهو ديوانهم ومُنْبَعَث آدابهم) وعلم أنساب العرب وأخبارها وأيامها ، وعلم أحوال الجو والنجوم من أسمائها وحركاتها ومنازلها وأنوائها[1] ومَهَبّ الرياح ومناشئ السحب وعلم القِيافة[2] ولم يكن لهم فى الطب الاّ ما عرفوه

---

(١) جمع نوء وهو غروب نجم معلوم فى الفجر وشروق آخر فى وقته . ويزعمون أن ذلك يبعث المطر

(٢) علم معرفة الاشياء بآثارها كمواقع الاقدام على الارض ونحو ذلك

بالتجارب أو تلقّاه حكماؤهم من أطباء النّساطرة[1] والروم المجاورين لهم . ولم يكن هذا شأن دُولهم المتحضرة فى اليمن والعراق والجزيرة والشام ، فقد كانت لهم علوم وصناعات، كدبغ الجلود ونسج الملابس وطبع الأسلحة، وخاصة اليمن التى كانت وسائل معيشتها التجارة والزراعة والصناعة . ولذلك لم يكن كلهم أُميّين كما كان الشأن فى عرب البادية : بل كانت اليمن تكتب المُسْنَد (الذى قيل انهُ من اختراعها) وعرب الشمال تكتب النبطىّ والانبارىّ من الخطوط العربية

ديانة العرب — أما ديانات العرب فكانت على ضروب وأنواع شتى ، حتى ليمكن القول بأنهم عبدوا كل ما كان يعبد فى الأرض فى عصورهم، بل أن منهم من أنكروا المعبود بتّةً. فنهم العَبَدَة الموحّدون الباقون على مذهب ابرهيم ، ومنهم عَبَدَة النجوم والشمس والقمر والكواكب السيارة وبعض الثوابت ، ومنهم المجوس الثنوية[2] وعبدة النار، وعبدة الجن والملائكة ، ومنهم اليهود والنصارى ، وعبدة الأحجار والأشجار . وقلما كانت عبادةٌ من هذه تخلو من اتخاذ الأصنام إما معبودةً لذاتها ، وإما معتبرة شفعاء لهم عند الله . وكانت الكعبة (المعتبرة أقدم معبد لهم من عهد اسماعيل) تُنصب عليها وحولها الأصنام المختلفة

(ب) ﴿ تأثير بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ﴾
(فى تأسيس مجد الأمة العربية وانتشار الملة الإسلامية)

الروم والفرس قبل البعثة — كانت الروم قُبيل البعثة قد استولى عليها بعض الضعف بطول ضعف ملوكها ، وجاوزت الحد فى الترف والانهماك فى اللذات . وألهتهم فتنهم الدينية والسياسية عن أن يكونوا دعاة سلام ورعاية لأمتهم أنفسهم ولمن سقط فى أيديهم من الأمم . وكانت فارس قد أخذت تنتقص أطراف بلادهم ، بل كادت تخترق قلب مملكتهم :

---

(١) طائفة نصرانية
(٢) فرقة تقول بالثنية الاله أى اله الخير واله الشر

فاستولت على مصر سنة ٦١٦ م ، وكانت على وشك بسط سلطانها الى ما وراء ذلك، لولا انحلال قوتها نوعاً ما بسبب حروبها الطويلة مع الروم و بعض الفتن الأهلية ، وظهور أمة بدوية قوية اكتسحت أمامها كلاًّ منهما، واستولت على أجل بلاد العالم المتمدين : تلك هى الأمة العربيـة المفطورة على حب القتال ، والتى ما زالت فى جاهليتها تخطو الى جمع شملها وتوحيد كلمتها ، الى أن تهيأت لقبول الوحدة الدينية والسياسية بالدعوة العظيمة المحمدية، فأنهضتها نهضة لم يحل دونها أعظم ممالك الأرض

تهيؤ العرب لقبول الوحدة الدينية والسياسية

وذلك ان العرب كانت فى جاهليتها قبائل متقاطعة متدابرة، قد أنهكتهم الغارات وإدراك الثارات ، فحدثت أمور استدعت تضامّهم وائتلافهم بعضَ الشيء ، فمهّد ذلك للإسلام طريق جمعهم على كلمته وقيامهم بدعوته . فمن تلك الأمور :

(١) اتفاقهم مع اختلاف مللهم ونِحَلهم على تعظيم الكعبة واعتقاد مناسك الحج وتشريف قُرَيش سَدَنَة* الكعبة وأهل البصر بالدين منهم ، وتحريمهم على أنفسهم إحداث حرب فى الأشهر الحُرُم من السنة إلاّ اذا أحلّت لهم ذلك أشراف كِنانة وقريش

(٢) انتشار التجارة فى العصور الأخيرة بينهم ، وقيام قريش بها بين اليمن والشام والعراق واقتداء كثير من القبائل بهم ، واختلاطهم بالأمم المتمدينة ، فتولّد فيهم حبّ تبادُل المنفعة

(٣) اتخاذهم الأسواق الكثيرة للتجارة وتجاذُب الأفكار وتناشد الأشعار والقاء الخطب والمباهاة بفصاحة اللسان وشرف العشير واستكمال الصفات الممدوحة فيهم ، مما كاد يوحّد لغتهم وآدابهم، ويحسّن التفاهم بينهم . ومن أشهر هذه الأسواق عُـكاظ وذو المَجاز

(٤) قصد الفرس لبلاد العرب لابادتها ، وتجمُّع بعض قبائل العرب لصد غارتهم ، وانتصارهم عليهم قبيل انتشار الاسلام فى موقعة « ذى قار »

---

* خدمها وقوّامها

عرفوا من كل ذلك فائدة الاتحاد، وزادت ثقتهم بأنفسهم، فتطلعوا الى الانتفاع بمواهبهم ، وهيأهم الله لأن يكونوا رسل الهداية والتوحيد المطلق لعامة البشر ، فأرسل رسوله فيهم، فلمّ شَعَثهم وجمع شَملهم، وساقهم هو وأصحابه من بعده الى أملاك كسرى وقيصر فافتتحوها ، وقام لهم فيها مُلك كبير

﴿ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلّم ﴾

مولده ومنشؤه

وُلد عليهِ الصلاة والسلام بمكة سنة ٥٧١ م . من أشرف أبوين فى قُرَيش ، وهما « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » و « آمنة بنت وَهْب بن عبد مَناف » . ومات أبوه بعد شهرين من حمله ، وأمُّه فى السادسة من عمره . وكَفَلَه جدّه منذ وُلد الى الثامنة . فكفله عمه أبو طالب حتى بلغ مبلغ الرجال . فكان أوحد الناس عفة وأشرفهم قصداً وأصدقهم حديثًا وأعظمهم أمانة ، حتى صار يلقب فى مكة بالأمين

وكان يعيش مما يعيش منهُ اكثر أشراف قريش : تربية الإبل والغنم وربح التجارة . فعمل فى ماله ومال عمه ومال السيدة خديجة التى تزوجها بعدُ وصارت أمًّا لأكثر أولاده ، وكان له من شرف بيتها ومالها وحسن عشرتها خير معين له فى حياته قبل البعثة وبعدها

ونشأ رسول الله مُبغضًا لعبادة الأصنام وشرب الخمر ولَعِب الميسر وكل ما كانت تدين به الجاهلية ، وحُبّب اليهِ النُّسُك والزهد ، فكان كثيراً ما يذهب الى غار حِراء قُرْب مكة ليتعبد ويذكر الله فيه حتى بُعث للناس بشيراً ونذيراً . فأتاه فيهِ الوحْي أول مرة بالقرآن الكريم والرسالة . فذهب وأخبر السيدة خديجة ، فآمنت بهِ، وآمن ابن عمه « على بن أبى طالب » وهو صبي، وآمن مولاه زيد بن حارثة ، وآمن صديقه الحميم أبو بكر. وكان أبو بكر رجلاً سهلاً محبَّبًا لقومه عالمًا بأنسابهم وأخبارهم . وكان رجال قومه يألفونهُ لعلمه وتجاربهِ وحسن مجالسته . فجعل يدعو الى الإسلام سرًّا من وثق بهِ منهم . فأسلم على يده عثمان بن عفان والزُّبَيْر بن العَوّام وعبد الرحمن

ابن عوف وسعد بن أبي وقّاص وطلحة بن عُبيد الله . فكان هؤلاء هم المسلمين السابقين ، وبهم انتشر الاسلام

انتشار الدعوة المحمدية

بعد أن أسلم من ذكرنا من الصحابة أخذ رسول الله هو وأصحابه هؤلاء يدعون الناس سرًّا الى الإسلام حتى صاروا نحو أربعين رجلاً يجتمعون خفية في دار أحدهم، فانضم اليهم عمر بن الخطاب وحمزة عم النبي ، وبهما اعتزّ الاسلام

ومكث النبي يخفي الدعوة ثلاث سنين ، ثم أمره الله باظهارهــا وانذار عشيرته الأقربين ، فنبذوا دعوته وعملوا على ابطالها بكل قواهم ، تحمّسًا في دينهم ، اذ كانوا رؤساء دين العرب وأهل البيت الحرام، وخوفاً أن تنتقض عليهم العرب فتبور تجارتهم وتتخطفهم الناس ، وحسداً لرسول الله أن يستأثر بالنبوة والسيادة عليهم على فقره وقلة جاهه . ولذلك كان أشدَّ الناس معارضةً له وإزراء عليــهِ أشرافُ قريش وأغنياؤهم ، كعمه أبي لهب وكأبي جهل وأبي سفيان ، ولكنه كان محميًا منهم بعمومته وأصهاره . ومن لم يكن من أصحابه له نصير أمره بالهجرة الى الحبشة ، حتى مات عمه أبو طالب وزوجه خديجة . فقل بموتهما ناصره وأصبح في حاجة الى قبيل يعتز بهِ ، فعرض نفسه على القبائل في الأسواق ومواسم الحج يدعوهم الى توحيد الله، فاستجاب له ستة نفر من أهل «المدينة» ، فأسلموا ورجعوا الى قومهم فأسلم كثير على أيديهم، ثم رجع منهم في الموسم التالي اثنا عشر رجلاً بايعوه على الاسلام ، وبعث معهم النبي صلى الله عليهِ وسلم مُصْعَب بن عُمَيْر ليعلمهم القرآن وشعائر الاسلام . فانتشر بهم الاسلام في المدينة حتى لم تبق دار ليس بها مسلم الاّ القليل

ثم جاءه في الموسم الثالث ٧٣ رجلاً وامرأتان بايعوه على الإيمان والمدافعة عن دعوته بالسيف ، ثم عادوا الى المدينة . وقد تمكن بذلك أمر رسول الله وأصحابه ، فأمرهم بالهجرة الى المدينة ، فخرجوا اليها تباعًا

هجرته

ولما علمت قريش أن أهل المدينــة بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على حرب العرب والعجم ، وأنهُ على عزم الخروج اليهم ، خافوا أن يؤلّبهم عليهم ويغزوهم في

المدينة مع قريش — وفى سنة ست خرج رسول الله الى مكة مُعْتمراً لا يريد حرباً ، فمنعته قريش وحبست عثمان بن عفان رسوله اليهم . فبايع النبى أصحابه على الموت ، وأراد فتح مكة . فهادنته قريش وحلفاؤها ، وأبرم معهم معاهدة صلح ، ورحل الى المدينة

خيبر — (٤) ثم افتتح حصون خَيْبَر[1] وفيها جمهرة اليهود . ففتحها حصناً حصناً . وبعد رجوعه قدمت عليه بقية مهاجرة الحبشة

فتح مكة — (٥) غزوة فتح مكة : لم يمض على معاهدة الصلح بين النبى وقريش أكثر من عامين حتى نقضها حلفاؤهم بتعديهم على حلفاء النبى . وعلم ذلك أبو سفيان ، فقدم المدينة لتجديد المعاهدة ، فلم يُصغ له رسول الله . وبعد قليل ، سنة ٨ ، خرج رسول الله الى مكة فى عشرة آلاف مقاتل فيهم خالد بن الوليد ، وكان قد أسلم هو وعَمْرو بن العاص قُبَيْل ذلك . فلم تبد قريش الا مقاومة قليلة وألقت اليه بأيديها . وجاء أبو سفيان مسلماً ، واكرمه النبى . وعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة ، ثم دخل الحرم وأزال الأصنام عن الكعبة وكسرها . ثم أسلم جميع أهل مكة

حنين — (٦) غزوة حُنَيْن[2] . وبعد فتح مكة تجمعت «هَوازن» و«ثَقيف» وغيرهم من القبائل الضاربة حول مكة لمحاربة النبى ليبدءوه قبل أن يبدأهم . فخرج اليهم فى اثنى عشر ألف مقاتل . فاغتر المسلمون وأعجبتهم كثرتهم . فما التقى الجمعان ، حتى حمل عليهم الأعداء حملة شديدة ، ففر أكثر المسلمين ، وثبت رسول الله فى خاصة أصحابه وأهل بيته حتى تراجع اليه الفارون ، وقاتل قتالاً شديداً ، وحمل بالمسلمين فكانت الهزيمة على المشركين . وغنم المسلمون منهم غنيمة عظيمة ، فرّق النبى اكثرها فى عظماء قريش وغيرهم ليتألف قلوبهم ، ومَنَعَ الأنصار لثقته بهم وحبهم له

تبوك — (٧) غزوة تَبُوك[3] . وهى آخر غزواته : وذلك أنهُ لما رأى أكثر العرب دانوا

---

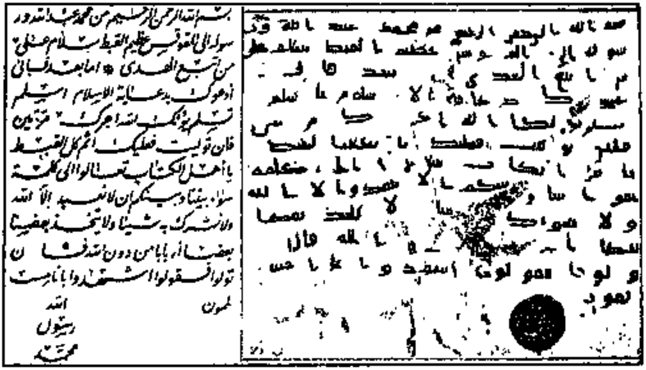
(١) شمال المدينة

(٢) موضع بين مكة والطائف

(٣) موضع بين الشام والحجاز وهو الان احدى محطات سكة الحديد الحجازية

له خرج الى الروم فى سنة تسع (٦٣٠ – ٦٣١ م) ومعه ثلاثون ألفًا وكانت الخيل عشرة آلاف ، وضرب الجزية على أهل أيْلَة(١) وأذْرُح(٢) ودُومَة الجَنْدل(٣) وكلها كانت إمارات نصرانية تابعة للروم

وكان أثناء غزواته يبعث سراياه وبعوثه الى قبائل العرب كافة ، فآمنوا تِباعًا



بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى ٭ اما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين فان توليت فعليك اثم كل القبط يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون

الله
رسول
محمد

صورة كتاب النبى صلى الله عليه وسلم

الى المقوقس عظيم القبط

كتب رسول الله الى الملوك

وفى سنة سبع هـ (٦٢٨ – ٦٢٩ م) أرسل كتُبهُ الى الملوك والأمراء يدعوهم الى الاسلام ، مثل كسرى وقيصر والمقوْقِس والنَّجاشى والحارث بن أبى شمر الغسَّانى وهَوْذة ملك اليمامة والمُنْذِر بن ساوَى ملك البحرين . فأسلم النجاشى والمنذر بن ساوى وقومهما ، واكرم المُقَوقِس رسوله حاطبًا وأهدى للنبى جاريتين من قبط أنْصِنا (احداهما مارية أم ولده ابرهيم) وبغلة وحمارًا وكثيرًا من عسل بِنْها ، وردّ

(١) مكانها الآن العقبة أو قريب منها
(٢) بلدة قريبة من تبوك من أطراف الشام الجنوبية
(٣) حصن وقرى شرق تبوك ببادية الشام

قيصر رداً جميلاً، ولم يقابل بقية الملوك دعوة الاسلام بالحسنى . ولم تدخل سنة عشرة (٦٣٢ م) حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وأقبل عليه الوفود من جميع أنحاء الجزيرة ، وآمن مَن فيها من العرب إلاّ قبائل الشام والعراق ، وحج حجة الوداع من هذه السنة ، وحج معه من أصحابه يومئذ أربعون ألفاً

وفى هذه الحجة تم نزول القرآن الكريم ، وكان ينزل مفرقاً على حسب الوقائع . وخطب فيها رسول الله خطبة الوداع الشهيرة التى بيّن فيها معالم الاسلام وأتم أصوله ووصاياه . ومات بعد أن بلّغ وأرشد ، وترك ديناً خالداً وأمة كريمة

وفاته صلى الله عليه وسلم

مرض رسول الله نحو اثنى عشر يوماً انقطع فيها عن الناس ثلاثة أيام ، وأناب عنه أبا بكر يصلى بالناس . ومات فى بيت عائشة ضَحْوة يوم الاثنين لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول سنة ١١ هـ (٦٣٢ م) عن ثلاث وستين سنة . ودفن مساء الثلاثاء فى حجرة عائشة حيث قُبض . ولم يخلف من بنيه وبناته إلاّ السيدة فاطمة زوج على بن أبى طالب . وماتت بعد النبى بأشهر قلائل ، وكل أولاده ماتوا قبله

صفاته

كان رسول الله ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضخم الرأس ، كَثّ[١] اللحية ، عظيم الكفين والقدمين ومفاصل العظام ، أبيض مشرباً بحمرة ، أدعج[٢] العينين ، سَبِط[٣] الشعر ، سهل الخدين ، أقنى الأنف أشمّه[٤] ، فى مقدم لحيته ومفرق رأسه شعرات بيض . وكان أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً ، قليل المزاح واللغو ، مطيل الصمت ، دائم البشر ، متفقداً لأصحابه ، متواضعاً ، يخصف[٥] نعله ويرقع ثوبه ، وخرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير زُهداً فيها

---

(١) غزير شعر اللحية

(٢) شديد سواد العين مع سعتها

(٣) مرسل غير مجعد

(٤) الشمم ارتفاع فى قصبة الانف مع استواء أعلاه واشراف الارنبة قليلاً ، فان كان فيها احديداب فهو القنا

(٥) يخرزها

(ح) ﴿ حالة الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ﴾

خلافة أبي بكر
١١ — ١٣ هـ
٦٣٢ - ٦٣٤م

لما قبض رسول الله لغير وصيّة بالخلافة تنازع المهاجرون والأنصار فى أمرها، وبعد أخذ وردّ وامتناع من بعضهم انتُخب أبو بكر رضى الله عنهُ خليفة، وقرّت الخلافة من بعده فى قُريش. وقد كان لأبى بكر وباقى الخلفاء الراشدين من بعده (عمر وعثمان وعلى) رضوان الله عليهم الفضل الأكبر فى توطيد دعائم الاسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم. فابتدأ أبو بكر بتسيير الجيش الذى جوَّزه رسول الله قبل وفاته لغزو أطراف الشام، فذهب الجيش وعاد غانمًا

ولم تسمع العرب بموت النبى حتى ارتدّت عن الاسلام، وبعضُها منع الزكاة الأ أهل المدينة ومكة والطائف. وتنبّأ كثير من شياطين العرب كمُسَيْلِمة الذى قد كان كاتب النبى فى اقتسام الأرض، وطُلَيحة بن خُوَيْلِد وسَجاح التَّميميَّة. وكاد الإسلام يُقتلَع من أصوله ويذهب كأن لم يكن لولا حزم أبى بكر ومَضاء عزيمته، فانهُ استشار الصحابة فى محاربة المُرْتَدّين، فكلهم أشار عليهِ بلزوم بيته وعبادة ربّهِ: إذ لا طاقة لهم بحرب العرب كلها. فغضب وبعث الجيوش وأكثرهم من قريش لمحاربة المرتدّين. فقَتَل جيش خالد بن الوليد مسيلمة الكذّاب، وقهر طليحة وسَجاح ففرّا وأسلما بعد ذلك. ولم يمضِ أقلّ من سنة حتى خضعت العرب ورجعت الى الإسلام فساقهم الى ممالك كسرى وقيصر، ففتح من العراق فى زمانه المُثَنَّى بن حارثة ثم خالدُ بن الوليد وعِياضُ بن غَنْم الحيرة وجميعَ سقى الفرات الى تخُوم الشام. وفتح أبو عبيدة بن الجراح وأُمراؤه شرقىّ الشام، حتى اجتمعت الروم فى أكثر من ٢٠٠ ألف. فأمدّ أبو بكر عسكر الشام بخالد ونصف عسكر العراق. ومات وجيوشه تحارب المملكتين (الفرس والروم). وكانت وفاته بالمدينة، ودُفن بجانب رسول الله سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) وعمره ٦٣ سنة، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر. وفى مدته جُمع القرآن الكريم بإشارة عمر لقتل أكثر القُرّاء فى حرب مسيلمة، وحُفظ

فى بيت حَفْصَة بنت عمر زوج النبى ، حتى نسخهُ عثمان

خلافة عمر ١٣ - ٢٣ هـ ٦٣٤ - ٦٤٤م وبويع عمر بن الخطاب بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيهِ أبو بكر بوصية منهُ، وسُمى بأمير المؤمنين . فاستفزّ الناسَ لحرب الفُرس والروم، ففُتحت فى زمانه ممالك الفرس والشام ومصر

وهو أول من دوّن الدواوين من خلفاء المسلمين ، ومصَّر الأمصار ، فبُنيت فى مدّته الكُوفة والبَصْرَة والفُسْطاط وغيرها ، وأول من عَسَّ بالليل ، ونصب القضاة ، ووضع التاريخ الإسلامى وجعل مبدأه هجرة رسول الله الى المدينة المنوّرة . وكان لا يشغله عن تدبير أمر المسلمين شاغل ليلاً أو نهاراً : يحرك الجيوش بأوامره وهو فى المدينة ، وترجع اليهِ غنائمهم فيصرفها فى مصالحهم من غير أن ينال منها لنفسه إلاَّ دريهمات لنفقته كل يوم . فهو رجل المسلمين وموطِّد ملكهم : ولم يقم لهم خليفة بعده مثله فى حزمه وعزْمه وزُهده وعدله

وقُتل رحمه الله غدراً وهو قائم يصلى بالناس، طعنهُ بخنجر أبو لؤلؤة فَيْروز المجوسى عبد المُغيرة بن شُعْبة سنة ٢٣ هـ (٦٤٤ م) ، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر

وعهد بالخلافة الى واحدٍ يُنتخب من النَّفر الذين مات النبى وهو عنهم راض (على وعثمان وعبد الرحمن بن عَوف وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقَّاص)، وجعل ابنه عبد الله شريكاً لهم فى الرأى لا فى الخلافة

خلافة عثمان ٢٤ - ٣٥ هـ ٦٤٤ - ٦٥٥م فانتخب الناس من النفر الستة الذين عهد اليهم عمر بالخلافة «عثمانَ بن عفَّان» فسلك طريق عمر فى سياسته مدة فتحت فيها بلاد جنوبى التركستان وبرقة وطَرابُلُس الغرب والنوبة وجزيرة قبرس . ثم ظن أن فى توليته الممالكَ المفتوحة من يثق بهِ من أهله وأقربائهِ ضمانةً لمصلحة المسلمين ، لنصحهم له وشدهم بعصبيتهم ازْرَه ، فكان غيرُ ما ظن ، ونقم منه كثير من العرب فعله ، ورموْه بمحاباة أهله والتغيير والتبديل فى سُنَّة رسول الله وصاحبيه . وذهب اليهِ كثير من شُذَّاذ العرب من أهل مصر والعراق ورَعاعهم . وفيهم بعض أبناء الصحابة ، فحاصروه فى داره بالمدينة ، وطالبوه

بعدة أمور لم يرها من حقهم ، فتسوّروا عليه وقتلوه وهو يتلو فى مصحفه سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) . ودُفن بالبَقيع ، وله من العمر ٨٢ سنة . وكانت خلافته ١٢ عاماً . وكان موته سبباً لإثارة الفتن بين المسلمين . وفى مدته نُسخ من المصحف الذى عند حفصة أربع نسخ أُرسلت الى الأمصار ليُنقل عنها ويُحرق ما سواها

خلافة على ٣٥ - ٤٠ هـ ٦٥٥ - ٦٦٠ م

وبعد أن قُتل عثمان تنازع الناس فيمن يتولى الخلافة ، فانتخب الأكثرون علياً وبايعوه ، وبقى نفر من الصحابة وبنو أُمية لم يبايعوه . وحقّق علىّ مقتل عثمان فلم يتوصل الى معرفة القاتلين . وخرج الى الكوفة وجعلها مقر خلافته . وعزل وُلاة عثمان على غير رغبة أصحابه ، فاتهمه بنو أمية (ورأسهم مُعاوية وطلْحة والزُّبير) بتهاونه فى إظهار القاتل . وظنوا أن قتله كان عن رغبة منهُ . فامتنع معاوية بالشام عن مبايعته ، وتبعه أهل بيته وجند الشام . وخرج طلحة والزبير الى مكة وقابلا السيدة عائشة ، وكانت فى الحج ، وحرضاها على الأخذ بثأر عثمان ومحاربة على . فخرجت معهما فى جيش استولى على البصرة وانضم اليهم أهلها . فسار اليهم علىّ فى أهل الكوفة وحاربهم ، وكانت السيدة على جمل جُلِّل هودجه بصفائح من الحديد . فقُتل دون الجمل مئات من الناس ، ثم عُقر وانهزم أصحاب الجمل ، وقُتل طلحة وكذلك الزبير عند منصرَفه الى المدينة . وأرسل علىّ السيدة عائشة مكرَّمة الى المدينة

الخلاف بين على ومعاوية

واقعة الجمل

واقعة صفين

ثم ازدادت الوَحْشَة بين معاوية وعلى ، فجرَّدا جيشين عظيمين التقيا بصِفّين* ودام الحرب بينهما أربعين صباحاً . ثم عرض جيش معاوية على جيش علىّ أن يحكّما بينهما حكمين يُختار كل واحد من فريق . فحكّما « أبا موسى الأشعرى » من قِبَل على و « عَمْرو بن العاص » من قِبَل معاوية . فاتفقا على خلع الاثنين ليعاد انتخاب الخليفة من جديد ، وفى يوم الحُكْم اجتمع العرب ، فحكم أبو موسى بخلع صاحبه ، ورجع عمرو عن اتفاقه وحكم بتثبيت معاوية . ففَتَّ ذلك فى عضُد أصحاب على ، وتقاعد عن نُصْرته كثيرون ، حتى اتفق ثلاثة من فُتَّاك الخوارج على اغتيال

* موضع قرب الرّقة بشاطئ الفرات . وكانت الواقعة فى صفر سنة ٣٧

عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص ، فنجح أمرهم في عليّ وخاب في معاوية وعمرو ، فقُتل عليّ غِيلةً بيد « عبد الرحمن بن ملجَم » ، وهو ينادى لصلاة الصبح غلسًا بمسجد الكوفة . فدفنهُ ابنهُ الحسن خفيةً وستر قبرهُ وقتل قاتله . وبايعه أهل الكوفة بالخلافة ، فتنازل عنها لمعاوية بعد أشهر ، حقنًا لدماء المسلمين . فتمّ الأمر لمعاوية واستولى على الممالك التى دخلت فى طاعة على ، وأسس دولة بنى أمية . فصارت الخلافة ملكية وراثية فى دولته

الحسن

وقُتل أمير المؤمنين عليّ سنة ٤٠ هـ . وعمره ٦٣ سنة . وكان شجاعًا عالمًا ، شهد المواقع بين يدى رسول الله . ومن مآثره أنه أمر « أبا الأسوَد الدُّؤلى » ، فوضع النحو

وكان العرب قد استمروا فى فتوحهم بقية حكم الخلفاء الراشدين ، حتى استولوا على معظم أملاك الدول القوية إذ ذاك مما سيأتى ذكره

(د) ﴿ الفتوح الإسلامية ﴾

التحام العرب مع الفرس والروم

كان النبي صلى الله عليه وسلم يبشر المسلمين طولَ مدة رسالته بفتح ممالك فارس والروم . وشرع فى ذلك آخر حياته ليقتدى بهِ خلفاؤهُ من بعده ، فغزا بنفسه غزوة « تَبوك » وأغزى أصحابه غزوة « مُؤتة » ، وخرج من الدنيا وقد جهّز جيشاً أمّر عليهِ مولاه « أسامة بن زيد » فبرز خارج المدينة لحرب الروم ، وأوصى فى مرضه بانفاذه الى الشام . فأنفذ « أبو بكر » وصيته ، وسيَّر هذا الجيش فغزا القبائل الموالية للروم فى جنوبى الشام وعاد بعد أربعين يوماً

ومن ذلك الوقت شرع أبو بكر فى تحقيق بشارة النبي واستنجاز وعده . ولثقته بإيمان أصحابه وعلو هممهم على قلة عددهم وعُددهم رأى أن يغزو بهم الفرس والروم

فى آن واحد . ونَفَّذ « عمر » بعده خطته على ما فيها من المصاعب وتفريق القوة فأعقبت النجاح والظفر، وأكمل بقيتها الخلفاء الراشدون و بنو أُمية و بنو العباس حتى كان لهم من نشر دينهم واتساع ملكهم ما استطالوا به على أكثر الممالك العظيمة فى تلك العصور :

(١) فتح فارس : من سنة ١٢ الى سنة ٢١ هـ (٦٣٣ - ٦٤٢ م)

لما فرغ أبو بكر من حرب المرتدّين، ودانت جزيرة العرب للإسلام رأى أن يَشغل العرب بعدها عن الفتن الدينية والسياسية بسَوْقها الى الممالك الغنية الخصبة المجاورة لها لعله بما فيها من الفتن الداخلية . فجهَّز لغزو فارس جيوشاً متفرقة جعل قيادتها العامة لخالد بن الوَليد . ففتحوا العراق والجزيرة . ثم أرسل أبو بكر الى خالد أن يذهب فى نصف الناس لإنجاد عسكر الشام . وبقى أحد قوّاده «المُثَنَّى بن حارِثة» يحارب الفرس حتى مات أبو بكر . فأمدَّه عمر بجيش، فحاربوا فى جملة وقائع انتصروا فى بعضها وأُصيبوا فى آخر حتى ملَك « يَزْدَجِرْد »، فجمع أبطال الفرس وصناديدهم فى جيش بلغ ١٢٠ ألف مقاتل . وعلم ذلك عمر فجمع أشراف العرب وفرسانها وخطباءها وشعراءها ، وجعل على الجميع أميراً « سعد بن أبى وقَّاص » القُرشى . فبلغ عدد المسلمين بضعة وثلاثين ألف رجل ، فالتقوا بالفرس سنة ١٤ هـ (٦٣٦ م) بالقرب من « القادِسِيَّة » فى موقعة فاصلة من أشد الوقائع، لم يفلح بعدها الفرس فى موقعة، فقُتلت أبطالهم وشجعانهم وقائدهم العظيم « رُسْتُم » . وغنم المسلمون مُعَسكر الفرس وراية مملكتهم ، وكانت من جلد مستتر بالجواهر الكريمة

واقعة القادسية ١٤ هـ

وفى هذه السنة بعث عمر « عُتْبة بن غَزْوان » فى جمع الى « الأُبُلَّة » (مَرْفأ للسفن على شمالىّ بحر فارس) فافتتحها وهزم حامية الفرس مراراً فى جنوبى العراق، واختطّ مدينة «البَصْرة» وبعث بالغنائم الى عمر . وأُعجب المسلمون بذلك، فأقبلوا على البصرة تباعاً . ولما فرغ سعد من أمر « القادسية » واستراح جيشه خرج الى « المدائن » (إكتيسيفون » عاصمة الفرس وبها إيوان كسرى العظيم . فهزم فى

الابلة

طريقه اليها جموعاً كثيرة للفرس وحاصر المدائن الغربية ، ثم عبر بجيشه الى الشرقية وحاصرها . ففرّ « يزدجرد » فى خاصته وبقية عساكره الى «حُلْوان» بعد أن أباح بيوت المال والذخائر لقوّاده ، وخلّف أخا رستم على المدائن . فشدد العرب عليهم الحصار ، فهرب من فى المدينة ودخلها العرب سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) . وأمر سعدٌ أن يلحقوا حَمَلة الأموال والنفائس فأدركوا كثيراً منهم ، ووضعوا أيديهم على خزائن الفرس مما لا تقدَّر قيمته ، وكان فى ذلك تاج كسرى ومنطقته وسِواره ودرعه وبساطه (وكان ستين ذراعًا فى مثلها ، وكان على هيئة روضة قد صُوِّرت فيه الأزهار بالجواهر المختلفة الألوان على نسيج الذهَب) ، واستولى العرب كذلك على ذخائر الملوك الذين قهرتهم فارس

فتح عاصمة فارس ١٦ هـ

وأقام سعد بالمدائن مدّة . وبعث بالجيوش ففتحت بقية البلاد . وفى سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) . جمع «يزدجرد» جميع من فى فارس وخراسان من المقاتلة وانضم اليهم بقية المنهزمين ، فاجتمع له ١٥٠ ألفًا فتحمسوا وصمموا على إخراج العرب من بلادهم . فبلغ « عمر » ذلك فخاف على المسلمين وأمدَّهم بجيش عليهِ « النعمان بن مُقَرِّن » ، فساروا وانضم اليه ثلث من فى العراق وقصدوا الفرس فى نحو ٣٠ ألفًا ، فالتقوا بهم قرب « نَهاوَند » فى موقعة لم يقع للعرب مثلها ، قاوم الفرس فيها مقاومة عظيمة ، وقتل فيها « النعمان بن مقرن » فتولى مكانه « حُذَيفة بن اليمان » ، وحمل بالناس فانهزم الأعداء ، وفتك العرب بهم فتكاً ذريعًا ، ولم يفلت منهم إلاَّ القليل . وتسمى واقعة « نهاوند » هذه بفتح الفتوح ، إذ لم يكن للفرس بعدها اجتماع ، ودخلت مملكتهم جميعًا فى حوزة المسلمين

واقعة نهاوند ٢١ هـ

أما « يزدجرد » فما زال يفرّ أمام العرب من بلد الى بلد حتى قُتل أثناء فراره زمنَ عثمان سنة ٣١ هـ (٦٥١ م) . وبموته انقرض آل ساسان

(٢) فتح الشام

بعد أن سيّر أبو بكر خالداً الى العراق بقليل سير أربعة جيوش الى بلاد الشام لغزوها من جهات مختلفة. فساق «هرقل» قيصر الروم على كل جيش جيشاً أضعافه فى العدد. فرأى قواد جيوش المسلمين الأربعة أن يجتمعوا فى بسيط واحد. فعلم ذلك هرقل، فأمر جيوشه أن ينزلوا على نهر «اليَرْمُوك» فنزلوا بين النهر وبين وادٍ عميق كأنهُ خندق يُعرف «بالواقوصة» فى أكثر من ٢٠٠ ألف مقاتل سنة ١٣ هـ واقعة اليرموك أو الواقوصة ١٣ هـ
(٦٣٤ م)، وكأنهم رأوا أن الوادى والنهر يحميان جانبيهم. ونزل العرب أمامهم على نفس الضفــة من النهر، فصار الروم كأنهم محصورون ولا طريق لهم إلّا على العرب. وحفر الروم بينهم وبين العرب خندقاً، وطاولوهم فى القتال ليضَرَوْا على العرب ولا يخشوا بأسهم. وبقوا كذلك ثلاثة أشهر كاتب العرب فيهــا أبا بكر واستنجدوه. فكتب الى خالد بن الوليد أن ينجدهم بنصف عسكر العراق. فسار مسرعاً سالكاً بادية السماوة[1] حتى بلغ الشام ففتح فى طريقه مدينة «بُصْرَى»[2] وانضم الى معسكر المسلميــن، فتكامل به عددهم نيفاً وأربعين ألفاً. ورآهم خالد متساندين، كل رئيس منهم مستقل برأيه وجماعته. فجمعهم على أن يتولى كل أمير القيادة يوماً. وبدأ هو باليوم الأول. فعبّأ جيشهُ تعبئة لم يسبق للعرب مثلهــا: فرّقهم ٣٨ كردوساً وهاجم بهم الروم. فخرجوا من خندقهم. فهجم خالد بقلب الجيش، ففرّق بين فرسانهم ورَجَّالتهم. ورأى فرسانهم أنهم صاروا فى وسط العرب، ففروا الى الصحراء، وأوسع لهم المسلمون الطريق، واكتفوا شرّهم. ثم أطبقوا على

(١) سلك خالد هذه المفازة المهلكة المعدومة المياه لجلة وجوه حربية وغيرها أهمها سرعة نجدته لجند الشام لقصر مسافتها عن الطريق المعتاد سلوكه على شاطىء الفرات، وتجنب العوائق التى تعترضه فى الطريق المعتاد لاعتراض كثير من حصون الجزيرة وشمالى الشام له. وحكاية اختراق جيشه هذه البادية أعجب من اختراق جيش انيبال جبال الالب. فلتراجع فى كتب التاريخ المطولة

(٢) وهى مدينة صغيرة شرق الشام على أبواب الصحراء

الأعداء ، فردّوهم الى خندقهم ، بل اقتحموه عليهم ، وأقبل الليل فلم توقف العرب القتال ، وحصروا الأعداء فتساقطوا فى الهوّة من جانب وفى النهر من الآخر ، وقتل منهم غرقًا وتردّيًا أكثر مما قتل بسيوف العرب ، وتمّ النصر للمسلمين . ولم ينج من الروم غير فرسانهم إلاّ القليل . وكانت هذه الموقعة أعظم الوقائع بين الروم والعرب ، فلم يثبت لهم بعدها أمام العرب جيش ولو كثر عدده . وفى أثناء تلك الواقعة جاء البريد بموت أبي بكر وعزل خالد عن قيادة الجيش وتولية أبي عُبَيْدَة قيادته ، فقبل خالد ذلك بالسمع والطاعة . ونصح لأبي عبيدة فى الرأى والجهاد . وساروا لفتح دمشق فحاصروها ٧٠ يومًا وفتحها خالد عنوة من جانب . وبينا هو يتقدم داخلها خرج محافظ المدينة وقابل أبا عبيدة من جانب آخر وسلمها له صلحًا سنة ١٤ هـ (٦٣٥م) . وبعث أبو عبيدة الجيوش لفتح سائر مدن الشام ، ففتحوا بلاد الساحل ومدينة حمص واللاذِقِيَّة وقِنِّسرين وحلب وأَنْطاكِيَة . وكان هرقل يتنقل فى مدن سورية الحصينة يراعى جيوشه . فلما أوغل المسلمون فى الجهات الشمالية صعد على نَشَز من الأرض ثم التفت الى الشام وقال : «السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده» وهرب الى القسطنطينية

واقعة اجنادين

وكان جيش من المسلمين يقودهم عمرو بن العاص ذهبوا لفتح بيت المقدس ، فالتقوا فى طريقهم بالروم فى موقعة عظيمة تعرف بواقعة أَجْنادِين ، هُزم الروم فيها هزيمة شنيعة . ثم حاصروا بيت المقدس أربعة أشهر ، وأبى بطريقها أن يسلم المدينة إلاّ على يد الخليفة عمر ليكتب بنفسه شروط الصلح ، فحضر عمر الى الشام وتسلم المدينة سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م) وأسس مسجده على الصخرة . وخرج عمر الى الشام ثلاث مرات غير هذه المرة . وتم فتح الشام فى أقل من ست سنوات

تسليم بيت المقدس ١٥ هـ

وفى سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) حدث فى الشام طاعون عظيم يسمى طاعون عَمْوَاس مات به ٢٥ ألفًا من الصحابة منهم أبو عبيدة

(٣) فتح مصر

لما قارب فتح الشام الانتهاء استأذن « عمرو بن العاص » أميرَ المؤمنين « عمر بن الخطاب » فى فتح مصر ، ووصف له ثروتها وهوّن عليه أمرها ، فامتنع « عمر » بادئ بدء ، ثم بعثه (والتردد يخالجه) فى أربعة آلاف أو أقل ، وقال له : « سيأتيك كتابى سريعًا ان شاء الله تعالى ، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره »

الاستيلاء على الفرما — فلم يكد «عمرو» يتجاوز الحدود المصرية حتى تسلَّم كتاب « عمر » ، فواصل السير حتى بلغ « الفَرما » فى أواخر سنة ٦٣٩ م (١٨هـ) . فقاوم الرومُ فيها مقاومة ضعيفة ، حتى ان العرب مع قلة عددهم ونُدْرة ما عندهم من آلات الحصار استولوا عليها عَنْوة فى شهرين

ولما أمن « عمرو » طريق الاتصال بالشام أجدّ السير فى طريق المواضع التى تُعرَف الآن « بالقَنْطرة والقصَّاصين والتَّل الكبير » حتى نزل على « بلْبيس » ، فحاصرها شهراً ثم فتحها بعد قتال شديد ، وعند ذلك انضم الى عسكره كثير من بدو الصحراء ، فعوّضوا ما خسره من جيشه الصغير — بلبيس

أم دنين — ثم سار حتى وصل الى قرية على النيل تُدعى « أم دُنَين » (موقعها الآن ما بين عابدين والازبكية بالقاهرة)*. وكان معظم الجيوش الرومانية حينئذٍ ممتنعة فى حصن بابليون ،ولكن الحامية المرابطة فى«أم دنين» عاقت «عمراً »عن التقدم بضعة أسابيع حدثت فيها مناوشات عديدة انتهت باستيلاء عمرو عليها

غارة الى الفيوم — ولما رأى « عمرو » ان ما معه من المقاتلة لايكفى لفتح « حصن بابليون » أراد أن يشغل جيشه بعمل ريثما يأتيه المدد ، فخرج فى غارة الى الفيوم (وتلك مخاطرة

* يعلم من ذلك ان النيل غير مجراه منذ ذلك العهد وتحوّل الى الغرب

كبيرة) ، فعبر النيل فى قوارب وسار بطريق منف الى الفيوم ، فلم يفلح فى الاستيلاء عليها ، الا أن هذه الخرجة انتهت بما قصد اليه ، فإنه عند ما عاد الى عين شمس فى صيف سنة ٦٤٠ م لحق به المدد الذى بعثه أمير المؤمنين، وفى مقدمته الزبير بن العوّام . وعدتهم ١٢ ألف مقاتل

واقعة عين شمس — وانتهز الروم فرصة تغيّب « عمرو » بالفيوم، فاستولوا ثانية على « أُم دُنين » . ثم أعدّ « تيودور » قائدهم نحو ٢٠٠٠٠ مقاتل وأراد مناجزة العرب ، فزحف الى عين شمس قاعدة الجيش العربى . فوضع « عمرو » كميناً من جيشه فى موضع خفى بالقرب من (الجبل الاحمر) [١] وآخر فى النيل قريباً من « أُم دنين » ولاقى « تيودور » بالفريق الأكبر من الجيش . فلما حمى وطيس الحرب ثار الكمينان على جناحى الجيش الرومانى وساقته وسحقوهم سحقاً ، ولم يبق للروم منهم سوى ٣٠٠ مقاتل وفُقد الآخرون ما بين قتيل وهارب . واستولى « عمرو » بهذه المعركة على مدينة « مصر » [٢] فانفسح أمامه السبيل لإتمام إخضاع الفيوم والشروع فى محاصرة « حصن بابليون »

المقوقس — وكان القائد الحقيقى للجنود الرومانية فى حصن بابليون وقتئذ هو « سيرُوس » بَطْريق الطائفة الملكانية بالإسكندرية والحاكم الإدارى لمصر ، وهو المعروف عند العرب بالمُقَوقِس [٣]

محاصرة حصن بابليون — وقد كان له يد عاملة فى هذا الفتح ، ومضى عليه عشر سنين وهو مكروه لدى الأقباط لاضطهاده لهم . ولمّا حاصر العرب الحصن كان النيل مادّاً (أواخر أغسطس) وليس لهم من آلات الحصار والحيل الهندسية ما يسهل عليهم اقتحام الحصن ، على

(١) شرق العباسية

(٢) اختلف فى موقع هذه المدينة وحقيقتها . والارجح انها كانت امتداد مدينة منف على شاطىء النيل الشرقى . ومبانيها تمتد شمالى الحصن وجنوبيه

(٣) وفى المقريزى أنه يسمى « المقوقس بن قرقب » ولعله محرّف عن « سيروس » لان حرف (C) ينطق به قافا فى العربية كثيراً

عكس ما كان لعدوهم من ذلك، فوق امتلاء الخنادق بمياه الفيضان . فلما أخذ النيل في الهبوط (في شهر اكتوبر) أخذ « المقوقس » ييئس من ردّ العرب عن البلاد، وسعى سرّاً فى عقد صلح معهم فى جزيرة الروضة ، فلم يرض « عمرو » منه إلاّ بخصلة من ثلاث (وهى الاسلام أو الجزية أو القتال) . ثم كُتبت المعاهدة وأُرسلت الى امبراطور الروم لإقرارها ، فسخط « هِرَقل » وأخذته دهشة من التسليم لبضعة آلاف من المسلمين . فاستدعى « المقوقس » الى القسطنطينية فى الحال (نوفمبر سنة ٦٤٠م) فواصل العرب حصار الحصن بنشاط جديد . وجمع «تيودور» جيشاً جديداً فى الوجه البحرى يحاول به فض الحصار عن الحصن فلم يستطع شيئاً، حتى ولا الدنو من الحصن. وفى شهر مارس سنة ٦٤١ م سمع المحصورون ضجةَ فرحٍ فى معسكر المسلمين ، وبان لهم أنها كانت لموت هرقل ، ففتّ ذلك فى عضد الروم وأوهن عزائمهم

وفى ٦ أبريل سنة ٦٤١ م عمد الزُّبير الى تسور الحصن بسلّم كبير ، ولما صار فى أعلى السور تبعه الناس ، فلم يسع الروم إلاّ التسليم على شريطة أن ينجوا بحياتهم، فقبل « عمرو » ذلك وأمهلهم ثلاثة أيام يجلون فيها عن الحصن . ومن الغريب أن الأحزاب الدينية بالحصن لم يلهِهم ما حاق بهم عن الخصام فى الدين ، فان الطائفة « الملكانية » قضت يوماً من أيام المهلة الثلاثة فى تعذيب الأقباط الذين سجنوا فى الحصن قبل الحصار ، حتى أنهم قطعوا أيديهم وأرجلهم

فتح الاسكندرية

ولما أخلى الروم الحصن بادر عمرو الى اتمام فتح البلاد ،فسار الى الاسكندرية واستولى فى طريقه على مدينة « نِقيُوس » *. وكان « تيودور » قد جمع فلول جيشه معززاً بعدد كبير ، فالتقى بالعرب بالقرب من « دمنهور » فى موقعة عظيمة دامت اكثر من عشرة أيام ، واضطر الروم بعدها الى التحيّز الى الاسكندرية ، فاقتفى العرب آثارهم . وكانت الاسكندرية عظيمة التحصين وبها من الروم ٥٠٠٠٠

* موقعها الآن قرية ابشاداى بمديرية المنوفية على فرع النيل الغربى . وقيل أيضاً انها كانت تسمى « نخو »

مقاتل ، وكان يُتوقع أن تصد العرب زمناً طويلاً : فلا هى ضعيفة التحصين حتى يأخذها العرب عنوة ، ولا هم يستطيعون فى قلة عددهم حصرها براً وبحراً . لذلك ترك « عمرو » جيشاً بظاهرها (يوليه سنة ٦٤٠ م) يرقبها ، وسار فى آخر لاخضاع بعض بلاد الوجه البحرى الصغيرة . وفى خلال ذلك كان المقوقس قد عاد الى الاسكندرية وتولى منصب البطريق ثانية . وفى هذه المرة نجحت مساعيه، فانهُ أقنع الامبراطور الجديد (وكان ضعيفاً) بضرورة الموافقة على تسليم الاسكندرية . ثم

معاهدة تسليم الاسكندرية

شرع سراً فى عقد معاهدة ثانية مع «عمرو»، فتقابلا فى بابليون وعقدا الشروط الآتية:

(١) أن تُدفع الجزية للمسلمين

(٢) أن يعقد لذلك هدنة مدة ١١ شهراً

(٣) أن تجلو الجيوش الرومية من الاسكندرية

(٤) أن لا يتدخّل المسلمون فى دين المسيحيين أو يستبيحوا كنائسهم

(٥) أن يسمح لليهود بالإقامة بالاسكندرية

(٦) أن يسلم الروم ١٥٠ من جندهم و٥٠ من رجالهم غير المحاربين رهناً وضماناً لما تقدم

وعندما سمع أهل الاسكندرية وحاميتها بذلك هاجوا غضباً وكادوا يفتكون « بالمقوقس » لولا ما أُوتيه من البلاغة ، فانه تمكن بها من اقناعهم بأن ما وقع خير لهم من أى شىء . وفى أول المحرم سنة ٢١ هـ (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ م) دُفعت الجزية . ودخلت الاسكندرية فى قبضة العرب . ويُعتبر تسليم الاسكندرية من الوجهة الحربية أمراً لم يكن فى الحسبان ، فانها كانت تستطيع المقاومة ثلاث سنوات أو أربعاً حتى يرسل اليها القيصر المدد الكافى لانقاذها . ولكن الاسكندريين كانوا قد سئموا تقلبات الروم وسوء حكمهم فى الأربعين سنة الأخيرة ، فسهل عليهم التأثر ببلاغة المقوقس ورجوا أن ينالوا فى ظل المسلمين هدوءاً وسلاماً

ولاشك أن المقوقس كان اكبر مساعد على تسليم الاسكندرية ، وربما كان

له فى ذلك مأرب خاص وهو جعل بطريقيته مستقلة عن « القسطنطينية » ، فرأى أن ذلك أسهل فى عهد المسلمين منه فى عهد أمة مسيحية

(ه) كلمة فى الأمويين والعباسيين

(١) دولة بنى أُمَيَّة

٤١ – ١٣٢ ه (٦٦١ – ٧٥٠ م)

معاوية

تمت الخلافة لمعاوية (٤١ – ٦٠ ه : ٦٦١ – ٦٨٠ م) فكان بذلك مؤسساً لدولة بنى أُميّة*، وأقام بدمشق فبقيت دار الخلافة العربية ٩٠ عاماً . وكان موقعها أوفق لمقر الملك من سابقتيها « المدينة » و« الكوفة »، لاتساع أملاك المسلمين التى كان « معاوية » يرمى الى مدها شمالاً حتى يستولى على القسطنطينية ، ومع أنهُ لم يتم له ذلك وأُحرق أسطوله فى حصار تلك المدينة ، فُتحت فى عهده بعض بلاد التركستان وبلاد الأفغانستان وشمالى الهند وبلاد البربر (الجزائر ومراكش) وردوس . ثم حمل الناسَ على البيعة لابنه «يزيد»، فقبلها العرب لأن الغَلَب والعصبية كانا لبنى أمية، والمصلحة تقتضى ذلك . وخالف بعض الصحابة، فلم يستطيعوا اخراج الخلافة من بيت بنى أُميَّة بل بقيت فيهم ملْكاً عضوضاً . وأعظم خلفاء بنى أُميَّة بعد معاوية « عبد الملك بن مروان » (٦٥ – ٨٦ ه : ٦٨٥ – ٧٠٥ م) ، فهو المجدِّد الثانى لملكهم والمستخلص له من يد الخليفة عبد الله بن الزبير الذى دانت له الممالك الاسلامية عقب موت معاوية . وبلغت دولة بنى أُميَّة أقصى مبلغها فى عهد « الوليد بن عبد الملك » (٨٦ – ٩٦ ه : ٧٠٥ – ٧١٥ م) . ولى الخلافة والملك ثابت الدعائم ، فسهر على توسيع الأملاك الاسلامية، فجدّت جيوشه فى الفتوح شرقاً حتى مدينة « سَمَرْقَنْد » ونهر « السِّنْد » . ولما ثارت برابرة المغرب بالمسلمين بعث اليهم الوليد « موسى بن نصير » بجيش عظيم فتح به عامة بلاد المغرب وثبت فيها

عبد الملك ابن مروان

الوليد

* نسبةً الى « أمية بن عبد شمس » جدهم

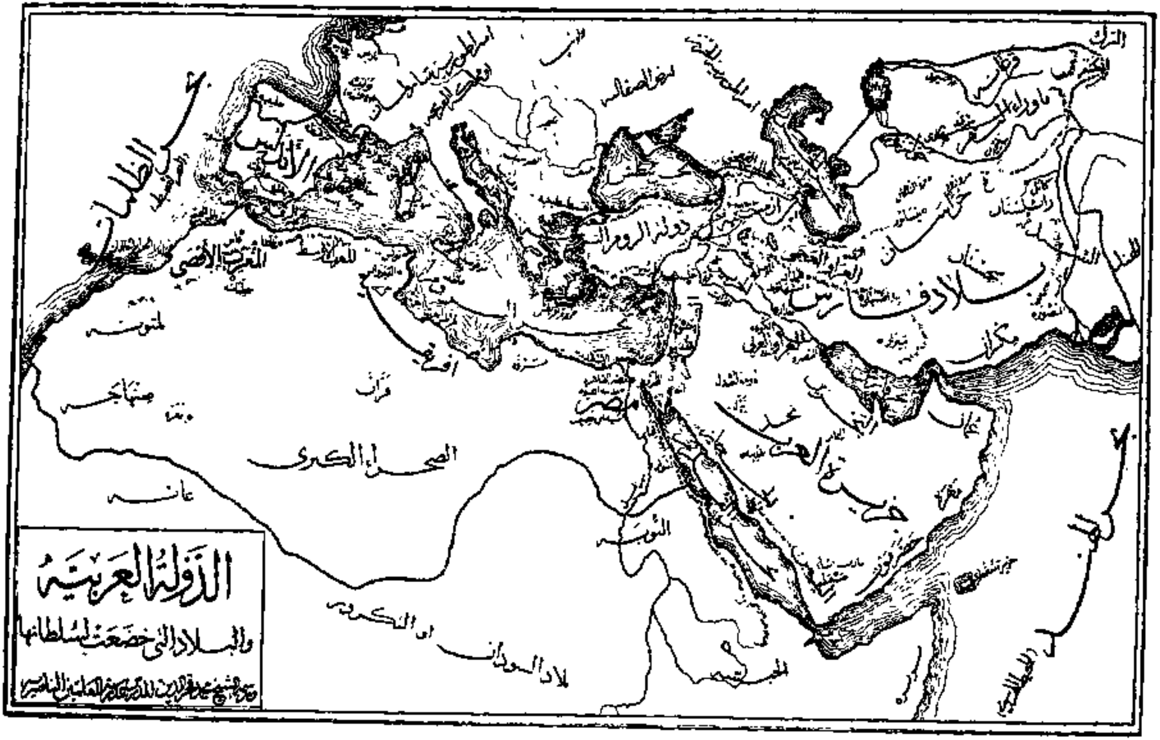
سلطان العرب الى المحيط . ثم بعث موسى بمولاه « طارق بن زياد » فى جيش الى « الأندلس »، فقهر جيوش «القوط» (قبائل القوط الغربية) فى موقعة «شريش» سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) ، ودخلت الأندلس بأسرها فى الأملاك العربية

وبينما كانت جيوش الوليد تجدّ فى فتح البلاد وتظهر للعالم مهارة العرب فى الحرب كان هو يلتفت الى داخل بلاده وتهيئة ما يلزمها من أسباب التقدم والعمران . وكان له ولع شديد بالعمارات العظيمة ، فبنى جامع بنى أمية العظيم وداراً للمجزة والمرضى بدمشق ، وجدد مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة . ويمكن اعتباره فى الحقيقة المحرض الأول على انشاء العمارات العربية . ومات الوليد سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) وسلطان المسلمين يمتد من المحيط الأتلنتى الى الصين وجبال الهند ، ومن بلاد السودان واليمن الى سهول سيبريا ، وهى أكبر مساحة وصلت اليها المملكة العربية

سليمان ابن عبد الملك

وبعد وفاة «الوليد» دخلت الدولة فى طور تقهقر ووقفت الفتوح العربية العظيمة ولما خلف الوليدَ أخوه « سليمان بن عبد الملك » سيَّر جيشاً وأسطولاً عظيمين الى «القسطنطينية»، فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها . على أن الجيوش العربية فى الأندلس كانت سائرة فى فتح جنوبى فرنسا حتى وصلت الى نهر « اللُّوار » ، ولكنها التقت بجيوش شَرْل مَرْتِلَ فى موقعة « بُواتيه » (تُور) سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) فقتل قائدها واضطر المسلمون الى التراجع الى الأندلس ، ولم يفكروا بعدها فى فتح فرنسا

ومن ذلك الحين كثرت الفتن الداخلية فى دولة بنى أميَّة وقويت الأحزاب المشايعة لأهل البيت ولبنى العباس . ثم أخذ أمر دعاة بنى العباس يستفحل فى « خراسان » بزعامة « أبى مسلم الخراسانى » حتى أقبلت جيوشه من « خُراسان » والتقت بجيوش « مروان بن محمد » آخر خلفاء بنى أميَّة على نهر « الزَّاب » أحد فروع «دِجلة» ، فانهزم مروان وتبعته جيوش العباسيين الى الشام فمصر ، حتى لحقته بقرية « بوصير » من مديرية الجيزة وقتلته . وبذلك انقرضت دولة بنى أمية سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م)


الدولة العربية
والبلاد التي خضعت لسلطانها
بلاد فارس
جزيرة العرب
الصحراء الكبرى
دولة الروم
مصر
بلاد السودان
الأندلس
المغرب الأقصى
خراسان
مكران
صنهاجة
غانة
النوبة
الحبشة

وكانت دولة بنى أمية من أعظم دول الاسلام . وهى الدولة العربية المحضة التى حافظت على الشعار العربى فى لبسها ومعيشتها وحكومتها ، وكانت السلطة فى زمانها كلها بيد العرب . ويرجع سقوط هذه الدولة الى جملة أمور منها :

أسباب سقوط الدولة الاموية

(١) مزاحمة بيتين عظيمين لهم فى الخلافة : هما بيت العلويين والعباسيين ، ولكل شيعة عظيمة تنصره لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢) كثرة الخوارج الذين لا يرون وجوب انتخاب الخلفاء من قريش

(٣) تهاون الطبقة الثانية من أبناء خلفائهم بأمر الملك واشتغالهم باللهو ومشاحّة بعضهم لبعض وتنازعهم فى الخلافة

(٤) ترفعهم على الأجناس المحكومة من الفرس والترك والروم وغيرهم ، فقلما كانوا يتخذون منهم ولاة أو قوّاداً أو يتزوجون منهم ، مما بغّضهم فيهم وجعلهم ينصرون العباسيين عليهم

(٢) الدولة العباسية

(١٣٢ – ٦٥٦ هـ : ٧٥٠ – ١٢٥٨ م)

السفاح

مبدأ أمر هذه الدولة ان الأمويين اضطهدوا جد العباسيين (على بن عبد الله ابن عباس) ونفوه الى قرية من بادية الشام، فمرّ بولده محمدٍ فيها أحدُ زعماء العلويين مريضًا، فتنازل لمحمد عن حقوق المطالبة بالخلافة . ولُقّب محمدبالإمام، فسهّل ذلك عليهِ وعلى أولاده دعوةَ الناس سرًّا الى بيتهم، فعظمشأن شيعتهم فى خراسان بزعامة « أبى مسلم الخراسانى » . ثم زحفوا على العراق ، فظهر «عبد الله السفّاح» بن محمد وبايعه أهل الكوفة سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) فكان بذلك مؤسساً للدولة العباسية . ثم تتبع بنى أميَّة قتلاً وحبسًا ، فهاموا على وجوههم فى أنحاء البلاد*. واتخذ السفاح

* وهرب منهم « عبد الرحمن بن معاوية » ابن الخليفة « هشام » فسار الى « الاندلس » حيث وجد كثيراً من عسكر آبائه وشيعتهم فتغلب على تلك البلاد وأسس بها دولة أموية مستقلة كانت تضارع العباسية فى العلم والحضارة وعاصمتها « قرطبة » . ومن أشهر خلفائها «عبد الرحمن

مدينة الأنبار بقرب الكوفة داراً للخلافة ، وهو أول من اتخذ الوزراء ،وكانت مدته القليلة مدة تأييد لدعائم الملك وترتيب لنظام حكومته . ومات بالانبار بعد ٤ سنين وعمره ٣٣ سنة

المنصور

ثم ولى الخلافة بعهد منه أخوه «أبو جعفر المنصور»، وهو شيخ العباسيين وأعظم خلفائهم والمؤسس الحقيق لدولتهم : لم يكد يلى الخلافة حتى خرج عليه أشراف العلويين وبعض أعمامه وتفاقمت الثورات والفتن ، وطمع « أبو مسلم الخرسانى» نفسه فى انتزاع الملك من بيته ، فاحتال عليه بحسن سياسته ودهائه وقتله ، وأخمد الفتن والشرور ، حتى اذا صفا له الجوّ أقبل يرغّب العلماء فى التأليف والتصنيف، فكان عصره أول عصور وضْع العلوم الاسلامية العربية وفيهِ تُرجم كثير من كتب الفرس وغيرهم . وبنى « المنصور » مدينة « بغداد » وجعلها عاصمة له، وبقى ملك أبنائه بها حتى صارت أزهى وأفخم مدينة فى الدنيا . وكان رجل جدّ واقتصاد وعلم وفضل . مات سنة ١٥٨ﻫ (٧٧٥ م) وترك خزائن الدولة مفعمة بالأموال، فكان ذلك سبباً فى مساعدة الخلفاء من بعده على تنمية الآداب والعلم والحضارة

الرشيد والمأمون

وبلغ هذا الرقىّ أقصاه فى عهد «هرون الرشيد»(١٧٠-١٩٣ﻫ:٧٨٦-٨٠٩ م) وابنه « عبد الله المأمون » (١٩٨ – ٢١٨ ﻫ : ٨١٣ – ٨٣٣ م) ، فانه فى عهدهما بلغ العرب أقصى مبلغ من الحضارة وتمتعوا بأعظم أسباب النعيم والرفاهية . وظهر فى بغداد شغف بالعلوم والآداب والفنون والفلسفة لا يكاد يكون له نظير فى تاريخ العالم بأسره

وبعد أيام « المأمون » أخذ الانحلال يتسرّب الى جميع أنحاء الدولة باتخاذ المعتصم جنوداً عظيمة من مماليك الاتراك يستعزّ بهم على العرب والفرس ، فعظم

الناصر » الذى نافست قرطبة فى عصره بغداد . وبقيت دولتهم الى سنة ٤٢٢ ﻫ (١٠٣١م) ثم ورثهم ملوك الطوائف من العلويين وغيرهم فأخذ الاسبان ينتقصون الاندلس من أطرافها بلداً بلداً . ثم استولى عليها ملوك البربر من « الملثمين والموحدين ثم بنو الاحمر » من العرب حتى سقطت فى يد الاسبان سنة ٨٩٧ ﻫ (١٤٩٢ م)

شرهم فى زمنه حتى خرج بهم من بغداد وبنى شماليها مدينـــة « سُرَّ مَنْ رأى » فاستفحل أمرهم بها ، واستطالوا على الخلفاء من أولاده وأحفاده : يخلعونهم ويقتلونهم ويسملون أعينهم . وسقطت مهابة الخلفاء من أعين الولاة ، فاستبدوا بنواحيهم وكثر الخوارج والمفسدون من الزّنج (١) والقرامطة (٢) ونشأت الدولة السامانية ببخارى والدَّيْلَمِيَّة بفارس والعراق ، وبنو حمدان بالجزيرة ، والطولونيـــة ، ثم الإخشيدية (مع الاعتراف بسيادة الخليفة) ثم الفاطمية ثم الايوبية بمصر والشام

ثم ورث السَّلْجُوقيون الإمارات الشرقية ، أى ما عدا مصر والشام ، واستولوا على ديوان الخليفة ببغداد حتى أصبح لاحَلَّ له ولا عقد ، واستمر ذلك الى زوال الخلافة ، حتى أغار التتار بقيادة زعيمهم «هولاكو» فاستولوا على بغداد سنة ٦٥٦ هـ

سقوط بغداد

(١٢٥٨ م) بمساعدة الخـــائن « مؤيد الدين بن العَلْقَمى » وزير المستعصم آخر خلفاء بغداد ، وقتلوا الخليفة وأهله ومثلوا بهم . وبموت المستعصم سقطت الخلافة العباسية من بغداد . وفرّ بعض الخلفـــاء الى مصر فى زمن الملك الظاهر بيبَرْس . فأنزلهم وخصص لهم بعض وظائف لمعاشهم ، وبقوا فيها حتى جاء السلطان سليم الى مصر وافتتحها من يد المماليك ، فبايعـــه الخليفة المتوكل آخر خلفاء العباسيين بمصر بالخلافة ، فانتقلت بذلك الى العثمانيين سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م)

وكانت الدولة العباسية دولة عظيمة الشأن ، قوية السلطان طويلة العمر ، انتشرت فى مدتها العلوم والمعارف واتسع نطاق الفنون والصناعة والزراعة ، وبلغت من الحضارة مبلغاً لم تصـــل اليه دولة اسلامية بعدها . وقد كان قيامها بمساعدة الفرس فلذلك كانت حكومتها فارسية الصبغة ، وآثر خلفاؤها الفرس ثم الترك على العرب بالمناصب والعطاء

ومن أهم أسباب سقوطها :

---

(١) جمع أحد المدعين الانتماء الى علىّ جيوشاً من الزنج وخرج بهم على العباسيين

(٢) فرقة دينية مبدؤها التشيع لعلىّ أيضاً ولكنها معتبرة عند أكثر الناس خارجة على أصول الاسلام

أسباب سقوط الدولة العباسية

(١) اقطاع خلفائهم الولايات القاصية لبعض الولاة وذراريهم مكافأة لهم على خدمة ، فاستقلوا بها

(٢) ابعادهم أهل العصبية من العرب لتوهمهم ميلهم الى العلويين واستعاضوا عنهم بالفرس والترك ، فكانوا معهم كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فخرجوا عليهم

(٣) عدم سَنّ نظام لولاية العهد ، فولّى أصحابُ القوة فى الدولة من الترك والديالم الصبيانَ والأطفال منصبَ الخلافة واستبدّوا هم بها

(٤) انتشار مذاهب الشيعة بتعضيد المستبدّين بالملك من الفرس والديلم وغيرهما ، حتى آل الأمر الى استدعائهم التتار لنزع الخلافة من العباسيين وجعلها فى يد العلويين ، فاكتسحوا الطائفتين

(٥) تكوين الدولة العباسية من عدة شعوب قوية ذات حضارة قديمة كل منها يعمل على إعادة دولته ، فسهّل ذلك انقسام الدولة الى عدة ممالك وإمارات أعقبها الفناء

الفصل الثانى

مصـــر

فى عهد الخلفاء الراشدين وبنى أميّة وصدر بنى العباس

٢١ – ٢٥٤ ﻫ (٦٤١ – ٨٦٨ م)

فُتحت مصر فيما بين سنتَى ١٨ و ٢٠ ﻫ (٦٣٩ – ٦٤١ م) . وبعد قليل أُلحِق بها جزء من بلاد النوبة ثم بلاد بَرْقة ثم بلاد إفريقية (تونس)

﴿ شكل حكومة مصر ولواحقها ﴾

كانت هذه البلاد منذ افتتحها المسلمون الى أن تولاها أحمد بن طُولُون سنة ٢٥٤ﻫ (٨٦٨م) ولاية بحتة ، أي معتبرة جزءا من أملاك الخلافة يحكمها والٍ يُرسَل من قِبَل

الخليفة ، مطلق التصرّف غالباً فيما يوافق سنن الاسلام وتقتضيه العدالة ، ولأهل الرأى من قوّاد العرب ووجوه الناس وأكابر العلماء والفقهاء عنده قول مستمَع ، ورأى متبع . ولم يغيّر المسلمون فى بدء فتحهم كثيراً من شكل النظام الإدارى ، وهو فى الجوهر تقسيم مصر الى كُور أو أعمال يرأس كلاً منها حاكم خاضع فى إدارتها لإشارة الوالى ويصدر أوامره الى من تحت إدارته من رؤساء القرى ، وذلك شبيه جداً بالنظام المتبع الآن . كذلك لم يغيّر العرب كثيراً من طرُق الرى وجباية الخَراج وكتابة الدواوين ، غير أنهم جرّدوا بقايا الروم من أعمال الحكومة ووضعوها فى أيدى الأقباط لعظيم ثقتهم بهم ، وأبقوا لأنفسهم المناصب السياسية والدينية . ولما تعلّم العرب فنون الإدارة وكتبوا الدواوين بالعربية بدل القبطية فى ولاية « عبد الله بن عبد الملك بن مروان » سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) ، وزاحموا القبط بعض الشىء وحرموهم بعض مزاياهم تألّبوا مراراً وخرجوا على العرب وحاربوهم ، وقابلهم هؤلاء بالقوة فلم يسعهم إلاّ تعلّم العربية واعتناق الإسلام ، فأسلم كثير منهم وصاهروا العرب وامتزجوا بهم وانتظموا فى سلك الحكومة . ثم أخذ نظام الحكومة الإدارى يتغير بعد ذلك بمناسبات الأحوال

حفظ النظام القديم

أنواع الولاة وحقوقهم

وكان الولاة بحسب مقدرتهم وثقة الخليفة بهم : اما ولاةً مطلقةً لهم الحرية ، يقومون بأعمال جميع المناصب الثلاثة العظيمة التى تدور عليها رحى الولاية ، وهى إمامة الناس فى الصلاة وجباية الخراج وقيادة الحرب ، وإما ولاةً خاصةً مقصورين على واحدة أو اثنتين منها . وكل والٍ خاص يرسل بعهد خاص من الخليفة ولا يملك أحدهم عزل الآخر ، وإن كان صاحب الحرب أو صاحب الصلاة له الزعامة والإشراف على غيره غالباً

وربما ولّى الخليفة والياً عامًّا على ولايات الغرب كلها أو بعضها ، فينيب هذا عنهُ بعهد منهُ والياً على مصر كما كان يقع فى عهد بنى العباس

ومن حقوق الوالى المطلق الصلاة بالناس فى الأوقات الخمسة والجمعة والعيدين ، والخطبة بهم فيها وفى الحوادث العظام ، وانتخاب أعوانه من الحكام وجُباة الخراج

وقادة الجيوش ، ونصب القضاة وأصحاب الشرطة والمظالم وغيرهم من كبار العمال ، بشرط انتخابهم من أشراف العرب أو أفاضل الموالى[1] المسلمين، وتنفيذ الأحكام والحدود من القصاص وغيره. ولا يرجع الى الخليفة غالبًا فى شيء من ذلك . فالوالى مستقل فى الحقيقة نوع استقلال داخلى ، إلاّ أن حكمه مؤقت قصير المدى ، فكان الخليفة يستبدل به غيره عند ظهور أى عيب فيه ولو صغيراً أو وقوع ظلم منه ، وربما كان ذلك سبباً فى انصراف كثير من الولاة المصلحين عن القيام بالأعمال النافعة العظيمة

مقر الحكومة

بنى عمرو بن العاص عقب الفتح مدينة « الفُسْطاط[2] » (وموضعها الآن جامع عمرو وما جاوره) وجعلها مقرًّا لإمارته . وبقيت كذلك الى العصر العباسى ، فبنى «أبُو عَوْن» قائد جيش العباسيين المقتفين أثر مَرْوَان (آخر خلفاء الأموية الهارب الى مصر) « مدينة العسكر » شمالىّ الفسطاط حيث نزل عسكره ، فسكنها اكثر ولاة بنى العباس الى زمن « ابن طولون »

« الخَرَاجُ والنَّفَقَاتُ »

نوعا الجزية

لما فتح العرب مصر ضربوا على أهلها الجِزْية : جزية الرءوس والأرض . فأما جزية الرءوس فكانت دينارين (جنيهاً واحداً) على كل رجل قادر على العمل ،

(١) الموالى هم سكان البلدان الاصليون أو من جرى عليهم رق ثم اعتقوا

(٢) قال « المقريزى » فى وصف موضع الفسطاط ما يأتى :

« اعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بالجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع والمعلقة ، ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ، ويقيم فيه ما شاء ، ثم يعود الى دار الامارة ومنزل الملك بالاسكندرية . وكان هذا الحصن مطلا على النيل ، وتصل السفن فى النيل الى بابه الغربى الذى كان يعرف بباب الحديد ‥‥‥ وكان بجوار هذا الحصن من بحريه وهى الجهة الشمالية أشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق . وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى ‥‥ »

وأعفى منها الصبيان والشيوخ والرهبان والنساء . وأما ضريبة الأرض فكان على كل قرية نصيب يختلف باختلاف غلتها وعمرانها وخرابها ، وعلى أهل القرية من ذلك ضيافة من يمرّ عليهم من جند الحامية ثلاثة أيام . وكان مجموع ما يجبيه المسلمون من الجزية وخراج الأرض أقل كثيراً مما كان يجبيه الرومان ، ولذلك أحب القبط وملاّك الأرض من الروم أنفسهم حكم المسلمين ونصحوا لهم فى خدمتهم . وكان لكل قرية مجلس محلى من رؤسائها يقررون ارتفاع القرية (أموال ضرائبها السنوية) ويوزّعون أرضها على القادرين على زرعها ، ويقومون بتأدية خراجها الى عمّال الخراج . وكان ذلك فى أول الفتح . ثم صاروا يؤدونها إلى أصحاب الالتزام وهم الذين يرسو عليهم خراج النواحى مدة ثلاث سنوات بعد اعلان التزايد فيها بمسجد عمرو ، وهؤلاء يجمعون الخراج بواسطة أعوانهم ومعاونة الحكومة أحياناً ، ثم يقدمونه الى صاحب الخراج (شبيه بوزيرى المالية والأشغال)

أرض مصر وعدد سكانها

وكان أكثر الخراج يجبى من جزية الرءوس التى تضرب على أهل الذمة فقط ويرسل جزء كبير منه للخليفة لقلة جالية العرب بمصر يومئذ . وبلغ مجموع ما جباه عمرو من الخراج فى السنة ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار جمعت على الأرجح على الوجه الآتى :

(١) ٣,٠٠٠,٠٠٠ جزية الأراضى عن الف الف وخمسمائة الف من الفدادين المزروعة (مليون ونصف)

(٢) ٨,٠٠٠,٠٠٠ جزية الرءوس على أربعة آلاف الف من الذكور البالغين (أربعة ملايين)

(٣) ١,٠٠٠,٠٠٠ ضرائب شتى

فلما فشا الإسلام فى القبط وكثر ورود قبائل العرب الى مصر وزاد عدد مقاتلتهم بها قلّ المتحصل من جزية الرءوس ، وكثرت النفقة على جنود الديوان ، فكان صافى الخراج بعدئذ دون ثلاثة آلاف الف ، واذا حسنت وجوه العمارة واستقصيت أبواب الجباية بلغ أربعة آلاف الف ، وقلما زاد على ذلك

﴿ القضاء والشرطة والمظالم ﴾

كان من حق الوالى بمصر تنصيب القضاة وعزلهم من غير مراجعــة الخليفة . واستمر ذلك الى أوائل الدولة العباسية إذ ولّى « أبو جعفر المنصور » ابنَ لَهِيعة القاضى بأمره ، وأجرى عليهِ ثلاثين ديناراً فى الشهر

القضاة واختصاصهم

وكان قاضى الفسطاط ينيب عنهُ قضاة البُلدان الأخرى . أو يعينهم الوالى رأساً . وكان مجلس القاضى إما فى المسجد الجامع غالباً ، وإما فى داره ، وقلَّما يجلس فى دار الإمارة . ولم يكن يُشترط فى القاضى أن يقضى بمذهب خاص ، بل يكون مجتهداً أو على مذهب أحد الأئمة . وكان منصب القاضى فى ذلك العهد من أهم المناصب واكثرها عملاً ، وكان من أعماله الفصل فى الدعاوى والأوقاف والنفقات ونصب الأوصياء ، وأحيانًا تضاف اليه الشُرطة والمظالم وبيت المال ، ولذلك كان القضاة يُختارُون من أغزر الناس علمًا واكثرهم فضلاً . ومن أعظم من اشتهر منهم بالفضل والاستقامة والعدل القاضى «غَوْث» بن سليمان المتوفى سنة ١٦٨ هـ ، ولى قضاء مصر مراراً ، ولم يُمنع عن الوصول اليهِ متظلم قط . ومنهم أيضاً « المُفَضَّل » خلفهُ ، وهو أول من أمر بتدوين الأسباب المبنى عليها الحكم بأكلها . وقد كان الكثير من القضاة يتنحَّى عن تقلد هذا المنصب لكثرة أشغاله وخطورة مسئوليته ، ولم يقبله «أبو خُزيمة» إلاَّ بعد أن نادى الحاكم بالجلاَّد

بعض مشاهير القضاة

الشرطة

أما الشرطة فكان يليهــا غالباً عامل خاص يسمى « صاحب الشرطة » (حكمدار البوليس) وله ما لهذا فى زماننا تقريباً

المظالم

وأما صاحب المظالم فهو الذى ينظر فى القِصَص* والشكاوى التى ترفع اليه من الرعية تظلمًا من عمال الحكومة أو غيرهم ، فيفصل فى بعضها بنفسه أو يحيل النظر فيها على القاضى . ونظيره الآن النائب العمومى وأقلام قضايا المصالح

* القصص هى العرائض

المقاتِلَة

كانت تعرف رجال الجيش بالمقاتِلَة ، ويسمون أيضاً « أصحاب الديوان » أى أصحاب الأعطيات التى تصرف لهم فى الديوان كل سنة . وكان كلهم من العرب ، بل كان كل عربى ينزل الى مصر يُفرَض له ولأولاده وعياله فرض فى الديوان . وكانوا يُنهَوْن عن الاشتغال بالزراعة . ويُعاقبون على ذلك لئلاَّ ينسوا ملكةَ الحرب . ويقودهم فى الحرب والى مصر . ولكن لما وفر عددهم وزادوا على حاجة الديوان زاولوا الزراعة ودخلوا فى غمار الفلاحين بالتدريج . وبقى العرب هم أصحاب الفروض فى الديوان الى عهد الدولة العباسية ، فاشتركت معهم فيهِ المقاتلة من الفرس والترك حتى أمر «المعتصم» الخليفة العباسى (جازاه الله) بإخراج العرب من الديوان وحرمانهم من العطاء ووضع الترك بدلهم ، فحُلّت الجيوش العربية ، وثاروا على الحكومة مراراً فقهرتهم . ومن ذلك تضعضع سلطان العرب فى مصر وزالت دولتهم واشتغلوا بالزراعة وصاروا مزارعين ، وكان جزاء الدولة العباسية من الترك فى مصر أن خرجوا عليها واستقلوا بها

﴿ الرى والزراعة والتجارة ﴾

كانت الأعمال الخاصة بهندسة الرى ، من كَرْى الخلجان وإقامة الأحواض والقناطر والجسور وتقدير الأقنية ونحو ذلك ، تقوم بشؤونها الحكومة نفسها فى مبدأ الفتح ، ويتولى ذلك صاحب الخراج (صاحب المالية والأشغال) جريًا على النظام الذى كان متبعًا زمن الرومان

ثم لما ضعف شأن الولاة أضيفت هذه الأعمال الى أصحاب الالتزام ، فأهملوها وقلّ بذلك العمران تدريجًا . وكان أكثر ريها بالحياض النيلية فتقتصر على الزراعة الشتوية . وبعض أرض الفيوم والوجه البحرى تروى بالترع والسواقى فتُخرج الزراعة

الصيفية أيضاً . وكان يزرع بمصر الكتان والقمح وباقى الحبوب وكثير من الكروم والنخيل والفاكهة

وكانت تجارة مصر الى الخارج فى الحبوب والمنسوجات الكتانية التى كانت تضارع فيها وقتئذ أصنع أهل الدنيا

ومما كان يساعد على انتشار التجارة بين مصر وغيرها البحران الاحمر والابيض ، ونهر النيل ، وكثرة الترع ، خصوصاً خليج أمير المؤمنين الذى كان يصل النيل بالبحر الاحمر ، وبقى الى صدر الدولة العباسية حتى ردمه المنصور

﴿ أهل البلاد ﴾

كان أهل مصر فى أول الفتح هم جمهور الاقباط وبقايا الروم ومهاجرة العرب ، فكان القبط هم المزارعين وأرباب الوظائف الصغرى والوسطى . وكان العرب هم الحامية وأهل الحرب . ثم اشتغل العرب بعد نحو قرن بالزراعة . وأسلم كثير من القبط وصاهروا العرب ، فضُربت على العرب المزارعين الضرائب التى كانت تضرب على القبط ، فقبلوها إذ كانت معتدلة . ثم اشتطّ بعض العمال فى زيادة الضرائب وجباية الرءوس ، فكان ذلك سبباً فى كثير من الفتن

وكان القبط حينئذ على حال عظيم من الرخاء ، ومما قيل فى وصف ذلك ان عجوزاً منهم من أهل طاء النمل أضافت المأمون بجيوشه ثلاثة أيام ، وقدّمت له هدية أربعة آلاف دينار من ضرب سنة واحدة*

﴿ أشهر الولاة وأهم الحوادث فى هذا العهد ﴾

أول ولاة مصر من المسلمين فاتحها العظيم « عمرو بن العاص » القرشى ، ولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولاية مطلقة . وكان «عبدالله بن سَعْد بن أبى السَّرْح» عمرو بن العاص

* الحكاية مبسوطة فى كتاب خطط المقريزى فى فصل نزول العرب بمصر من الجزء الاول وفى غيره ببعض تغيير

عامله على الوجه القبلى . وبقى عمرو والياً على مصر ولواحقها قائماً بالعدل محبوباً عند القبط وجنود العرب، ضابطاً لبلاده أحسن ضبط طول خلافة عُمر . وقد قام فى هذه المدة بكثير من الإصلاحات العظيمة ، فنظم الإدارة وأصلح القضاء ، ورسم الخطة الأولى فى جباية الخراج . ثم انه عُنى كثيراً بالأعمال الخاصة بهندسة الرى من كرى الخلجان واصلاح مقياس النيل وانشاء الأحواض والقناطر والجسور ، فسخّر فى ذلك ١٢٠,٠٠٠ عامل لا يفترون عن العمل صيفاً وشتاء ، وبذا تم كرى الخليج القديم الموصل بين النيل والبحر الأحمر فى أقل من سنة ، وسماه « خليج أمير المؤمنين » ، فصار القمح يرسل الى المدينة بحراً بعد أن كان يرسل بطريق القوافل . ولم تلهه هذه الاصلاحات السلمية عن الواجبات الحربية ، فانه فى سنة ٢١ﻫ (٦٤١–٦٤٢م) أرسل « عبد الله بن سعد » فى عشرين الف مقاتل لاخضاع بلاد النوبة . وفى سنة ٢٤ ﻫ (٦٤٥ م) أوائل ولاية عبد الله بن سعد الآتى ذكره صدّ غارة للروم عن الاسكندرية ، وكان قائدهم « منويل » ، فهزمهم شرّ هزيمة وهدّم أسوار الاسكندرية . على أن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » كان يأخذ عليه قلة الخراج الذى يجبيه ، فإن أكبر خراج جباه لم يزد على ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار

خليج أمير المؤمنين

اخضاع النوبة وصد الروم بالاسكندرية

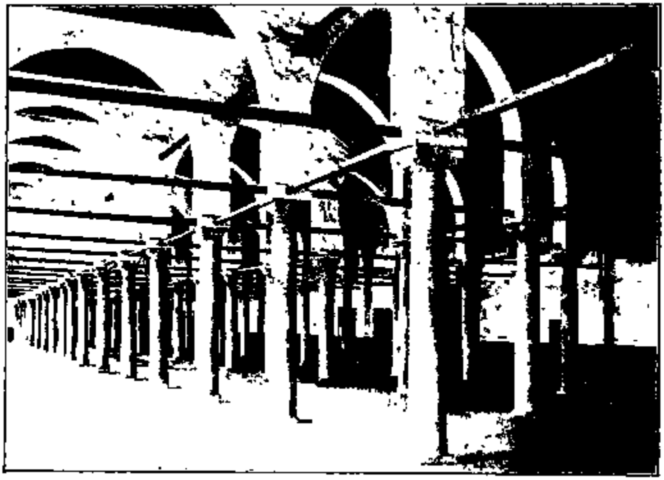
ثم لما ولى أمير المؤمنين عثمان بن عفّان عزله وولى بدله «عبد الله بن سعد بن أبى السَّرْح » فلم يقلّ عن عمرو كثيراً فى ادارتها ، وجعل همه الفتح ففتح بقيــة برقة وإفريقية . وفى سنة ٣١ ﻫ (٦٥١ م) غزا بلاد النوبة حتى « دُنْقُلة » وفرض عليها جزية سنوية تشمل ٣٦ رأساً من الموالى ، على أن يمدّهم بمونة من الحبوب وغيرها ، وبقى هذا الاتفاق نافذاً الى عهـد المماليك . وكسر الروم فى البحر كسرة شنيعة بالاسكندرية سنة ٣٤ﻫ (٦٥٥ م) وتعرف بغزوة « ذات الصوارى » . وتشدد فى أوجه الاقتصاد وتنمية الخراج حتى جباه ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، فكرهه بعض القبط والعرب ، وبقى الى قبيل قتل عثمان . ثم حدثت فتنة عثمان ، فطرده عرب مصر ورحل منهم فريق الى المدينة اشتركوا فى قتل عثمان

عبد الله ابن سعد

وولى أمير المؤمنين « علىّ بن أبى طالب » واليًا من قبله، ثم صرفه وولى « محمد بن أبى بكر الصديق »، فقتله جيش معاوية الداخل الى مصر بقيادة عمرو بن العاص

تولية عمرو ثانية

ثم تولى « عمرو بن العاص » ثانيةً بتنازل من معاوية له عن مصر بأن تكون طُعْمة له ولولده من بعده فى نظير نُصرته له على علىّ بن أبى طالب ، فبقى واليًا عليها وقواده يجدّون فى فتح افريقية والمغرب الأقصى حتى مات سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ م) ، ودفن بسفح المقطم ، وكان عمره إذ ذاك ٩٠ سنة . ومن آثاره مسجده العظيم بالقرب من مصر القديمة



(جامع عمرو)

رسم على افندى يوسف

وولى بعده ولده « عبد الله بن عمرو »، فعزله معاوية بعد سنتين ، وولى مكانه أخاه « عُتْبة بن أبى سُفيان » وكان خطيبًا مُفَوَّهًا ، فمكث ستة أشهر . ثم ولى « عُقْبة بن عامر الجُهَنىّ » المشهور قبره بالقرافة ، فصُرف بعد سنتين وثلاثة أشهر

وجُعل أميراً للبحر ، ففتح «رودس» . وهو أول من وضع الأعلام على السفن من المسلمين . وولى بعده « مَسْلَمة بن مُخلَّد »، وفى امارته نزلت الروم البُرُلُّس، فطردهم الى البحر . وهو أول من بنى منارات المساجد . وتوفى بعد ولايته بخمس عشرة سنة وأربعة أشهر . وكان من خيرة الولاة علماً وقراءة وعدلاً وجهاداً . ثم ولى « سعيد بن يزيد » ثم « عبد الرحمن بن عُتْبة » من قِبَل عبد الله بن الزُّبير ، ثم « عبد العزيز ابن مَرْوان » من قبل أبيهِ مروان بن الحكم ، ثم من قبل أخيهِ عبد الملك بن مروان فكانت ولايته قريباً من احدى وعشرون سنة . وحدث فى مدتهِ طاعون فى الفسطاط . فسكن حُلوان وجعل بهــا الأعوان وبنى بها الدور والمساجد وعمرها أحسن عمارة وغرس بها النخيل والكروم ، فكانت القاعدة الثانية للديار المصرية مدة من الزمان

عبد العزيز ابن مروان

ثم ولى « عبد الله بن عبد الملك بن مروان » وفى مدته نُسخت دواوين مصر بالعربية بدل القبطية على يد « ابن يَعْفُور الفزارى » . ثم تولى بعده عدة ولاة من قبل بنى أمية كان آخرهم « عبد الملك بن مروان بن موسى بن نُصير » . وفى مدته هرب «مروان بن محمد» آخر خلفاء بنى أمية الى مصر ، فلحقه « صالح بن على ابن عبد الله بن العباس وأبو عون عبد الملك ابن يزيد » بجيشهما، فقتلوه ببوصير من اقليم الجيزة ، فكانت ولاة مصر منذ الفتح الى آخر بنى أمية ٢٨ والياً كلهم من العرب

نسخ الدواوين بالعربية

انتهاء عهد بنى أمية

وتولى مصر « صالح » من قبيل ابن أخيــه أبى العباس السفاح سنة ١٣٣ ﻫ (٧٥٠ م) وسكن الفسطاط وأقام بها سبعة أشهر . ثم استخلف أبا عون بها . فانتقل الى مدينة بناها شمالى الفسطاط سماها « العَسكَر » موضع نزول عسكره * ، فكانت مقر الولاة العباسيين حتى بنى احمد بن طولون « القطائع » شرقيها

العسكر

ثم توالت ولاة بنى العباس على مصر، فتمّ انتقالها من يد الأمويين الى يد العباسيين

* ومحلها الآن أبنية خط فم الخليج وأبى السعود الجارحى والماوردى وزينهم والبغالة الى طولون والصحراء قبال كيمان البقالة وجبل قلعة الكبش

بدون صعوبة كبيرة ، بل أن كثيراً من العمال والموظفين بقوا فى مناصبهم وأخلصوا للعباسيين فى خدمتهم

كثرة الفتن

وفى عهد العباسيين كثرت الفتن والقلاقل فى البلاد ، ولم يكن للأقباط يد فيها أكثر مما كان للمسلمين أنفسهم بسبب الخلاف بين الشيعة والسنيين : وكان بمصر لكل من العلويين والخوارج طائفة تعززهم، وتفاقمت العداوة بين الاثنين حتى أدّت الى اضطراب مستمر . وساعد على اضرام تلك النيران أهل «الحُوف» ، وهم عرب من قبيلة « قيس » كان قد أنزلهم « عبيد الله بن الحَبْحَاب » والى الخراج سنة ١٠٩ ﻫ (٧٢٧ م) فى الحُوف الشرقى (الأراضى التى شرقى فرع النيل) ليساعدوا على انتشار الإسلام فى مصر

ثورة الخوارج ١٣٧ ﻫ

فمن ذلك ان الخوارج ثاروا سنة ١٣٧ ﻫ (٧٥٤ م) ، إذ كان أبو عون فى « برقة » لإخضاع البربر ، فاضطُر الى الرجوع الى مصر ، فقهر الثائرين وأرسل ثلاثة آلاف رأس من قتلاهم الى الفسطاط

خروج الاقباط ١٥٠ ﻫ

وفى سنة ١٥٠ ﻫ (٧٦٧ م) خرج الأقباط بجهـة « سخا » وهزموا جيوش الحكومة وطردوا جباة الخراج . وكانوا قد خرجوا قبل ذلك مراراً على بنى أُمية بسمنود وبالصعيد فلم يفلحوا . ولكنّ أمرهم استفحل هذه المرّة حتى عمّت الثورة جزءاً عظيماً من الوجه البحرى، واستمر الحال كذلك عدة سنوات . ثم سلكت معهم الحكومة مسلك الشدة والاضطهاد تأديباً لهم حتى انتهى الأمر بكبح جماحهم

ابن ممدود أول ولاة الاتراك

ومن الولاة الذين اتخذوا الشدة وسيلة لتوطيـد الأمور « أبو صالح » المعروف « بابن مَمْدُود » ، وهو أول من ولى مصر من الأتراك ، وليها سنة ١٦٣ ﻫ (٧٧٩ م) ، فكان غاية فى الشدة : ضرب على السَّرَقة وقطاع الطريق من عرب الحوف وغيرهم بيد من حديد، حتى أصبح الناس يتركون منازلهم مفتوحة ولايخشون عليها من سوء

فتنة ١٦٦ ﻫ

وفى سنة ١٦٦ ﻫ (٧٨٢ م) حدثت فتنـة سياسية كبرى بالصعيد ، فإن

« دِحْيَة ابن مُصعَب » الأموى ادّعى الخلافة ، فانضمّ اليـه معظم الوجه القبلى وهزموا جيوش الحكومة . وانتهز عرب الحوف هذه الفرصة فخرجوا ، فانهزمت جيوش الحكومة وقُتل الوالى . ولم تزل الأحوال فى اضطراب حتى ولى مصر « الفضل بن صالح » بن على العباسى . فانهُ أتى بجيش من الشام فهزم الثائرين عدة مرات فى الصعيد وقبض على المطالب بالخلافة ، ثم ضرب عنقه بالفسطاط وصلبه ، وأرسل رأسه للخليفة ببغداد

ومن سوء الحظ ان « الفضل » خالجهُ الغرور لما رأى من انتصاراته ، فعزله الخليفة « المهدى » . ومن بعده عاد الاضطراب وكثر عزل الولاة حتى أنهُ فى عهد « الرشيد » تولى مصر ١٦ واليًا فى اثنى عشر عامًا

عرب الحوف — وفى هذا العهد كثر خروج عرب الحوف : ففى سنتى ١٨٦ و ١٩١ هـ (٨٠٢ و ٨٠٦ م) ثاروا وامتنعوا عن دفع الضرائب وسلبوا أموال التجّار والمسافرين ، ثم انضمت اليهم قبائل البدو النازلة على الحدود ، وأغاروا على الشام . ثم تجدّدت ثورتهم بعد وفاة « الرشيد » عندما تنازع « الأمين » و « المأمون » بسبب الخلافة ، فرأى الأمين اتقاء لشرهم أن يعيّن رئيسهم واليًا على مصر ، فزادت بذلك شوكتهم وكبر شأنهم

مهاجرو الاندلس — ومما ساعد على ازدياد قوتهم أنهُ فى سنة ١٨٢ هـ (٧٩٨ م) جاء الى الاسكندرية ما يزيد على ١٥٠٠٠ رجل من الأندلس عدا أطفالهم ونسائهم ، طردهم من أسبانيا الأمير الاموى « الحكم » عقب فتنة كبيرة حدثت بقُرْطُبة . ولم يمض زمن طويل حتى تدخّلوا فى شؤون مصر السياسية ، وانضموا الى عرب « لَخْم » ، واستولوا على الاسكندرية سنة ١٩٩ هـ (٨١٥ م) . وما زالوا فى حرب مستمرة مع الحكومة تارة ، ومع الساخطين من عرب الحوف أخرى ، حتى أرسل اليهم «المأمون» سنة ٢١١هـ (٨٢٦ م) قائدًا من أعظم قوّاده وهو « عبد الله بن طاهر » * فاستولى على

* يقال ان نوع القثاء المعروف بعبد اللاوى سمى بهذا الاسم نسبةً الى عبد الله بن طاهر لانه أول من أدخل زرعه بمصر

الاسكندرية بعد أن حاصرها أربعة عشر يوماً ، فخرجوا منها بنسائهم وأطفالهم ونزلوا بجزيرة « إقريطش » (كريت) سنة ٢١١ هـ (٨٢٧ م)

عبد الله ابن طاهر

وكان ابن طاهر قد بدأ بقتال الوالى السابق فتغلب عليه وأخرجه من «الفسطاط». ثم عمل على تنظيم الجيش ونشر الأمن حتى دانت له البلاد . وأراد « المأمون » مكافأته على ذلك فوهب له الجزية سنة بأكملها، وكانت إذ ذاك ٣٠٠٠٠٠٠ دينار

وكان «عبد الله» من أحسن الحكام الذين ولوا مصر : له ولع بالعلوم، حريص على اكرام العلماء والشعراء . ومن أعماله أنهُ جدَّد بناء جامع عمرو

ولم يكد يخرج من مصر ويذهب الى موطنه بخُراسان حتى جدَّد أهل الحوف ثوراتهم وهزموا الحاكم الجديد بجهة المطرية . ثم جاء المعتصم أخو الخليفة فى ٤٠٠٠ مقاتل من الأتراك ، فبدَّد شمل العرب (سنة ٢١٤ هـ : ٨٢٩ م) وفتك بزعمائهم ، غير أنهُ لم يمض على عودتهِ الى بغداد أكثر من خمسة أشهر حتى تجدَّدت ثورة العرب وخرج معهم القبط سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) خروجاً عامّاً

خروج العرب والقبط خروجا عاما

وبعد فتنة طويلة جاء المأمون بنفسه سنة ٢١٧ هـ (٨٣٢ م) وحارب القبط وأنزلهم من حصونهم ، فلم يجرّدوا بعدها سيفاً ، وأخذوا يعتنقون الإسلام أفواجاً . ومن ذلك العهد ابتدأ الطور الحقيق لانتشار الدين الاسلامى فى مصر حتى صُبغت صبغة اسلامية محضة

وبقيت البلاد هادئة بعد مجىء المأمون لم يعكر صفوها شىء من القلاقل ، اللهمَّ إلاَّ اختلاف قليل بين العلماء ورجال الدين من المسلمين أنفسهم . وبقيت ولاة بنى العباس تتوالى على مصر من العرب والموالى حتى ولى « عَنْبَسَة بن اسحق الضَّبّى » سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) ، فكان آخر أمير عربى ولى مصر ، وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد الجامع . وهو من أحسن ولاة مصر عدلاً ، وأكثرهم فضلاً وأكبرهم ورعاً

عنبسة آخر وال عربى

وفى مدته هوجمت مصر من جهتين ، فدخل الروم دمياط سنة ٢٣٩ هـ (٨٥٣م)، فردهم عنها وحصَّنها بحصون منيعة كان لها الفضل الأكبر فى الحروب الصليبية .

وفى سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) أراد « على بابا » ملك النوبة أن يزحف على مصر فهزمه « عَنْبَسَة » وحمله على دفع الجزية ، وإن كان قد أكرم مثواه وردّه معزّزاً الى بلاده بعد أن زار الفسطاط وبغداد . وعُزِل « عنبسة » سنة ٢٤٢هـ (٨٥٦م) وخلفه من الموالى والأتراك عدّة كان آخرهم « أرجوز بن اولغ طَرْخان » التركى ، ثم صُرف بأحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ، فخرج على الخلافة واستقلّ بملك مصر وأسس الدولة الطولونية

الفصل الثالث

الطولونيون والاخشيديون

(١) الدولة الطولونية

٢٥٤ – ٢٩٣ هـ (٨٦٨ – ٩٠٥ م)

بقيت مصر بعد سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) ولاية للعباسيين ، يقلدها خلفاؤهم من أحبّوا من الموالى والأتراك ، فيقيم هؤلاء ببغداد ويستخلفون عليها نواباً يحكمونها لهم ويرسلون الخراج اليهم

ابن طولون

فلما كانت سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) قدم اليها « احمد بن طولون » التركى نائباً عن الأمير « باكباك » الذى قُلّد مصر من قبل الخليفة . وأصل أبيه « طولون » مملوك للمأمون . فنشأ ابنه احمد نشئاً حسناً ، فتعلم وتأدب وأحبّ الغزْو ، وظهر فضله وشجاعته . فوقع اختيار «باكباك» عليه ، وخصه بأعمال القَصَبة* (الفسطاط) بحيث لا يدخل فى دائرته الاسكندرية وغيرها

وكان بمصر «احمد بن المدبّر» والياً على الخراج ، وقد تحكم فى البلد ، فما زال به ابن طولون حتى كفّ يده ، فعظم بذلك شأنهُ

* قصبة المملكة حاضرتها الكبرى الاصلية

ثم أخذ « ابن المدبّر » يشى بابن طولون ويطلب من الخليفة عزله فلم ينجح . ومن حسن حظ « ابن طولون » أنهُ لمَّا مات « باكباك » وُهبت مصر للأمير « ماجور » حمى* « ابن طولون » ، فأبقاه فى منصبه وزاد على أعماله أعمال الاسكندرية وغيرها من الجهات التى لم تكن من أعماله، وذلك سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ م)

فعظم بذلك شأن ابن طولون . وكثرت أعداؤه حتى أنه لما انتهى تقليد ماجور سنة ٨٧٢ م أرادوا أن يوقعوا بهِ ، وكاد « الموفّق » أخو الخليفة وصاحب الكلمة إذ ذاك أن يعزله ، ولكنهُ تمكن بدهائه وماله من دفع ذلك ، وقويت شوكته وخشيه « ابن المدبِّر » وقبل بعظيم الارتياح نقلته الى منصب والى الخراج بالشام ، فخلا لابن طولون جوُّ مصر

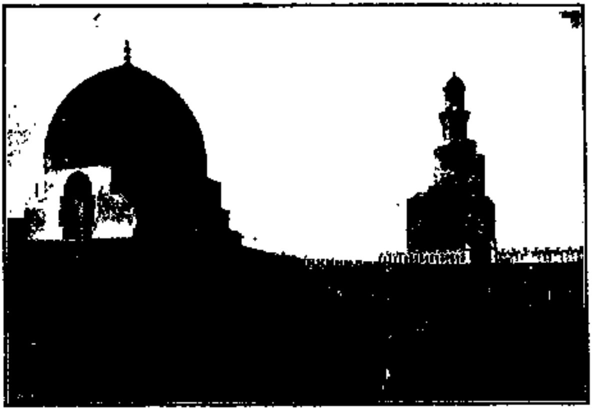
القطائع

فأخذ فى الإكثار من الجند والخدم والحشم . ولما رأى أن بيت الإمارة بمدينة « العسكر » أصبح غير كاف لجميع ذلك بنى له مدينة جديدة تمتدّ من المقطم الى جبل الكبش ، وسماها « القَطائع » لأنه جعل فيها لكل طائفة من أصناف خدمه «قطيعة» ، وبنى قصره تحت « قبَّة الهواء » (القلعة الآن) ، واتخذ غربيه ميداناً عجيباً للَعب الصوالجة ومسابقة الخيل

وبنى مسجده المشهور سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م) ، وهو من أقدم مساجد مصر وبنى كذلك مارستاناً للمرضى ، وقرّب العلماء والزهاد والقراء ورتب الصدقات والمبرات ، فكثرت بذلك نفقاته ، فمنع ارسال الخراج الى « الموفق » ، فسيّر اليهِ « الموفق » جيشاً ليعزله فلم يصل الجيش . وعند ذلك ازدادت ثقة « ابن طولون » بنفسه وأراد توسيع نطاق ملكه ، فأغار على الشام سنة ٢٦٤هـ (٨٧٨ م) ودانت له معظم مدنها ، وعاد منها بعد سنة بعد أن ثبّت بها دعائم ملكه

فلما وصل الى مصر وجد أن ابنه « العباس » قد انتهز فرصة غيابه وحاول الاستيلاء على الملك ، فتغلب عليه وسجنه باقى حياته

* أى أبى زوجته



(جامع ابن طولون) (رسم لكحيان)

قطع العلائق مع الخلافة

وأراد « ابن طولون » الاستيلاء على مكة فلم يفلح ، ولُعِنَ بالمسجد الحرام فزاد كل ذلك من كراهته للموفّق ، فحذف اسمه من الخطبة سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٣م) فقطع بذلك كل صلة بالخلافة . « ومات ابن طولون » سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٤ م) وله ملك لايعدله ملك الخليفة : يشمل الشام والجزيرة وبرقة

وقد كان لقوة « ابن طولون » وسطوته خير أثر فى مصر ، فسادت السكينة فى البلاد ونمت ثروتها . وتوفى وخزائنه مُفعمة بالأموال

وكان مع ذلك طائش السيف : يقتل ويحبس بالظنّة ، ولما اشتد عليه المرض قبيل وفاته غضب على أطبائه فأعدم كثيراً منهم وعذّب آخرين

خمارويه

وخلفه ابنه « خُمارَويه » فسار سيرة أبيه فى الاحسان ، وبالغ فى العمارة وأنواع الترف ، فجعل ميدان أبيه (مكان الرميلة الآن) بستاناً لم يُسمع بمثله : جمع فيه غرائب الأشجار والأزهار ، واتخذ حظيرة للسباع والوحوش ، وأعدّ بقصره بحيرة

عظيمة من الزئبق يبلغ مسطحها مائة قدم فى مثلها

النزاع مع أميرى الموصل والانبار ووالى دمشق

ولما ولى هذا الملك الشاسع استولى الحسد على أميرى «الموصل» و « الأنبار » ووالى «دمشق»، واتفقوا جميعاً على أن يخرجوا الشام من حوزته و يسلموها للخلافة . وكانت حجتهم فى التعدّى على «خماروية» أنهُ استولى على أملاكه بعد أبيه من غير أن يقلده الخليفة اياها . وساعدهم «أبو العباس» بن « الموفق » ، وأغاروا جميعاً على الشام ، فدخل «أبو العباس» دمشق سنة ٢٧١ ﻫ (٨٨٥ م) و بعد ان دارت بينهم و بين«خماروية» عدة مواقع انتصروا فى بعضها وهُزموا فى أخرى هزمهم « خماروية » بجهة دمشق سنة ٢٧١ ﻫ (٨٨٦ م) فى موقعة فاصلة ، فدخل دمشق وساق أمير الموصل الى مدينة « سُرّ من رأى » على نهر دجلة

الصلح مع الموفق

وعند ذلك عقد صلحاً مع الموفق ، وقلّده الخليفة حكم مصر والشام وأطراف بلاد الروم مدة ثلاثين سنة . ثم وقع فى مشاحنة مع أميرى الموصل والأنبار ، فكانت نتيجة ذلك أن نودى به فى الخطبة حاكماً على الموصل والجزيرة

وفى سنة ٢٧٨ ﻫ (٨٩١ م) مات «الموفق» وتبعه الخليفة «المعتمد» بعد سنة واحدة ، فحسنت العلائق بين خماروية والخليفة، واتفق «خماروية» ان يدفع الجزية ٣٠٠,٠٠٠ دينار سنوياً، وتزوّج «المعتضد» ابنة خماروية « قَطْر النَّدى »، فجهّزها خماروية جهازاً يضرب به المثل ، فلم يُبْق نفيسة ولا تحفة من كل لون أو جنس الاّ حملها معها : فكان من جملة ذلك ٤٠٠٠ منطقة مرصّعة وعشرة صناديق مملوءة بالجواهر وألف هاون من الذهب . ولما فرغ خماروية من جهازها أمر فبُنِىَ لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد ، فاذا وافت المنزل وجدت قصراً أُعدّ فيه من أسباب الراحة والترف ما يصلح لمثلها فى حال الاقامة

زواج قطر الندى

فقر البلاد

كل ذلك وما شاكله من أنواع الإسراف الأخرى التى تعوّدها أضعف حالته المالية وكاد يفضى بخزائنه الى الخراب . ثم قتل خماروية بدمشق ، ذبحه بعض خدمه على فراشه ، وحمل تابوته الى مصر فدفن فيها سنة ٢٨٢ ﻫ (٨٩٦ م)

ابو العساكر جيش — ثم تولى بعده ابنه « أبو العساكر جيش » ، فلم يحسن السيرة مع أهله وقواده فخلعوه بعد ستة شهور ، ومات بعد أيام فى السجن

هرون — ثم خلفه أخوه « أبو موسى هرون » ، وفى أيامه ضعف نفوذ مصر فى الشام ، فأغارت القرامطة عليها وحاصروا دمشق بعد ان حمّلوا الجيوش المصرية خسائر كبيرة . ثم رأى الخليفة أن يدخل بينهم ، فقهر القرامطة ، وزاده هذا النصر إقداماً فساق الى مصر جيشاً وأسطولاً . وجمع « هرون » جيشه بالقرب من حدود الشام ابتغاء الالتحام بجيوش الخليفة ، فقتله عمّاه غدْراً فى فراشه سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م)

شيبان — فولّى بعده « شَيبان » (عمُّهُ وقاتلُهُ) ، فبقى أياماً . وخالفهُ القواد فكتبوا الى « محمد بن سليمان » قائد الخليفة ، فدخل مصر بعسكر جرار ، فهرب « شيبان » وأخرج محمدُ بن سليمان بقية آل طولون الى بغداد ، وهدّم القصر والميدان وخرّب البستان وأحرق أكثر القطائع . وبذلك انقرضت دولة آل طولون سنة ٢٩٣ هـ (٩٠٥ م) بعد أن ملكت ٣٧ سنة — انقراض آل طولون

(ب) الدولة الإخشيدية

(٣٢٤ — ٣٥٨ هـ : ٩٣٥ — ٩٦٩ م)

عودة النفوذ للعباسيين — بعد أن انقرضت دولة آل طولون عادت مصر ولاية عباسية ، يتوارد عليها الولاة من بغداد مدة ٣٠ سنة كانت فيها فى غاية من الارتباك والاضطراب . وذلك لأن الخلفاء كانوا قد استولى عليهم الضعف وزال بعض السلطة من أيديهم ، وصارت القوة الحقيقية بيد الجند من الأتراك ، فأصبحت الكلمة فى مصر للجيوش التى ترسل من وقت لآخر لتوطيد النظام . وازدادت الحالة حرجاً بتوارد غارات الفواطم على البلاد

الاخشيد — وبينما البلاد تئن تحت عبء هذه الفوضى ولى حكمها « محمد بن طُغْج الإخشيد » سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) . وهو من اسرة ملوك « فرْغانة* » القدماء الذين كان

* كانت بلدة عظيمة ببلاد التركستان ولها كورة تسمى باسمها

يُطلق عليهم لقب « إخشيد ». فمنحه الخليفة هذا اللقب تشجيعاً له ومكافأة له على جدّه. وكان قد تقلّد من قبل منصباً فى مصر، فأبدى كفاءة كبيرة حتى أنهُ نُصّب حاكماً لدمشق سنة ٣١٨ هـ (٩٣٠ م)

ولم يكد يدخل مصر سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) حتى أخمد الفتن وسكّن الخواطر ثم التفت الى الفاطمية فأخرجهم من الاسكندرية، ولم تأت سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠م) حتى قبض على كل شىء، وصار أشبه بملك مستقل شأن باقى الولاة اذ ذاك فى الولايات الأخرى للدولة

وأهم غرض كان يرمى اليهِ « الإخشيد » حماية الشام من اغارة الولاة المجاورين وأول ما حدث من ذلك ان « ابن رائق » أغار على « حِمْص» و« دمشق »، ثم هزم جيوش الإخشيد سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) وعقد معهُ صلحاً على أن يبقى شمالى الشام فى قبضته. ولما مات « ابن رائق » بعد ذلك بسنتين استرد « الإخشيد » ما فقد ودخل دمشق دون أن يلقى مقاومة. وفى سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م) قلده الخليفة أيضاً حكم « مكة » و« المدينة ». وأراد الإخشيد أن يجعل ملكه وراثياً فأخذ البيعة من قوّاد مصر لابنه « أُونُوجور » من بعده. وفى سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥م) أغار « الحمدانيون » (امراء الموصل وأعلى الجزيرة) على شمالى الشام، فهزمهم « الإخشيد » وعقد معهم صلحاً على أن تبقى حلب وشمالى الشام بأيديهم، وأن يدفع لهم اتاوة نظير نزولهم عن « دمشق ». ولعل السبب فى تساهله هذا أن سنه كانت قد بلغت الرابعة والستين، وأصبح لا يقدر على مناوأة المزاحمين له فى شمالى الشام. ولم يلبث بعد ذلك سنة واحدة حتى مات بدمشق سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) ودُفن ببيت المقدس

ولم يبق للآن شىء من آثاره بمصر يدل على حالة البلاد فى عهده، ولكننا نعلم أنهُ أوجد فى البلاد هدواً وسكينة لم تعهدها منذ ثلاثين عاماً

وخلفه ابنه ابو القاسم أُونوجور (٣٣٥ — ٣٤٩ هـ : ٩٤٦ — ٩٦١ م). وكان أونوجور

صغيراً ، فأُقيم الاستاذ « أبو المسك كافور الإخشيدى» الخصىّ الأسود قيماً عليه . فقام مع رجال الدولة بتدبير الملك حتى مات أُنوجور بعد ١٤ سنة : سنة ٣٤٩ ﻫ (٩٦١ م) . ثم تولى بعده أبو الحسن على بن الإخشيد . ولم يقتصر الخليفة «المطيع» على توليته مصر والشام ، بل أضاف اليه ولاية الحرمين . ولم يكن لأبى الحسن مع كافور من الأمر شىء ، ثم فسد ما بينهما ، فمنع « كافور » الناس من الاجتماع به ، فبقى كذلك حتى مات سنة ٣٥٥ ﻫ (٩٦٥ م) ودُفن فى القدس

كافور

فتولى الاستاذ ابو المسك كافور الإخشيدى بدله ، وجاءه التقليد بولاية مصر والشام والحجاز . وأصله عبد حبشى خصىّ اشتراه الإخشيد من بعض أهل مصر بثمانية عشر ديناراً ، فما زال يتقدم عنده لعقله وحسن رأيه وشجاعته إلى أن صار من أكبر القواد الذين أسسوا له دولته . ولم يبلغ أحد من الخصيان ما بلغه كافور هذا : ملك أنفس ممالك الإسلام ، وخدمه كبار العلماء ، ومدحه المتنبى (وكان قد طمع أن يوليه منصبًا ، فلما لم يحقق أمله هرب من مصر وهجاه) . وولى كافور الملك سنتين . ومات سنة ٣٥٧ ﻫ (٩٦٨ م) . فولى أهل مصر « أبا الفوارس أحمد بن على بن الإخشيد » وهو صغير ، فأقام شهوراً حتى أتى « جوهر الصقِلّى » قائد جيوش المُعِزّ الفاطمى ، فدخل مصر بلا قتال ، وانتزعها من الدولة الإخشيدية سنة ٣٥٨ ﻫ (٩٦٩ م) بعد أن ملكت ٣٤ سنة

الفصل الرابع

الدولة الفاطمية[1]

٣٥٨ – ٥٦٧ هـ : (٩٦٩ – ١١٧١ م)

تمهيد فى أصل الشيعة

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بويع أبو بكر بالخلافة ، وامتنع علىّ ونفر قليل عن بيعته مدة لاعتقادهم أنه أولى منه بها لقرابته وصهره من رسول الله ، ثم لم يلبث علىّ أن بايع ودخل فيما دخل فيه المسلمون . ثم لما انتهت خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وجاءت نوبة خلافة علىّ ثارت عليه عواصف الفتن والدسائس ، وانقسم المسلمون : طائفة معهُ (وسميت شيعة علىّ) وطائفة عليه (وسميت شيعة بنى أمية) . ثم انتهى الأمر بقتله غيلة ، ثم بموت ابنه « الحسن » وقتل أشياع بنى أمية ابنه « الحسين » المطالب بالخلافة بعد أخيه ، فحُرم نسله من الخلافة . فكان ذلك سببًا فى استفحال العداوة بين شيعة علىّ وشيعة أمية التى انضمت اليها جماعة المسلمين. فاضطرت شيعة علىّ أن تعمل فى السر لإعادة الخلافة للعلويين ، وغلا أكثرهم حتى ادّعى أنها لم تصح ولن تصح لغير أهل البيت من أولاد علىّ ، فأنكر عليهم بقية المسلمين ذلك ، ولا يزال بين الفريقين خلاف كبير فى الرأى والمذهب الى الآن واختص الفريق الأول باسم الشيعة ، والثانى بأهل السنّة والجماعة . ولما عجز العلويّون عن الاستحواذ على السلطة من طريق السياسة والقوة ، لقتل من خرج من أئمتهم، التمسوها من طريق الدين ، فقالوا ان الله لا يترك خلقه بدون إمام حق ، واعتقدوا بأن ذلك الامام هو المهدى المنتظر الذى يُبيد المغتصبين ويحيى مجد بيت رسول الله، وعملوا على نشر هذه العقيدة بين الناس بكل الوسائل[2]

منشأ الفاطميين

فى سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) ذهب أحد دعاة الشيعة المدعو « أبا عبد الله الشيعى »

(١) وتسمى أيضا الدولة العبيدية نسبة الى رأسها عبيد الله المهدى، والدولة المصرية، ودولة المصريين ، ودولة العلويين المصرية

(٢) وكان من بين هؤلاء الشيعة طائفة تعرف بالقرامطة سنأتى على بعض أخبارها فيما بعد

الى بلاد البربر (شمالى افريقية) داعيًا لعُبَيد الله بن محمد من نسل جعفر الصادق ، فنجح فى دعوته وطرد الأمير الأغلبىّ الحاكم لتلك البلاد التابع للدولة العباسية سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) . ثم أعلن أن الخليفة الحقيق للسلمين ورئيس دينهم المنتظر هو إمامه « عُبَيد الله » المذكور الملقب بالمهدى . ولمّا كان « عبيد الله » يقول انهُ من نسل السيدة « فاطمة » بنت رسول الله سُمّيت سلالته بالفاطميين ، وإن كان بين المؤرخين خلاف كبير فى صحة نسبه

عبيد الله فحضر « عبيد الله » الى بلاد المغرب وحكمها أربعة وعشرين عامًا (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ : ٩١٠ — ٩٣٤م) كان الأمر فيها كله بيده . وأخضع قبائل العرب والبربر ، ودان له الحاكم المسلم الوالى على جزيرة « صقلية » وكان من أهم شواغله العمل على نشر الدين الصحيح ، فلم يذر مجهوداً فى سبيل ابادة البدع والإباحات التى ظهرت إذ ذاك فى تلك الجهات . ولما قويت شوكته وخشى أن ينازعه « أبو عبد الله » فى السلطة فتك بهِ ، مع أنهُ هو الذى أتى بهِ الى تلك البلاد . وكان من أكبر أمانيه فتح مصر ، فأرسل لغزوها ثلاثة جيوش على مرات ، اثنين منها بقيادة ابنه «أبى القاسم» فحال دون نجاحه عدة أمور ، منها مجاعة فى المغرب سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) ووباء فشا فى أحد هذه الجيوش وانتقل منهُ بالعدوى بعد عودتهِ الى أهل المغرب . وشُغل « عبيد الله » بالأمور الداخلية باقى حياته

القائم وفى سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٤م) خلفهُ ابنهُ الأكبر «القائم بامر الله أبو القاسم محمد» فبذل غاية همته فى توسيع نطاق ملكه ، فأرسل أسطولاً أغار على شواطئ ايطاليا وفرنسا والأندلس ، وأرسل جيشًا الى مصر هزمه الإخشيد . ثم صرف باقى أيامه فى التغلب على « أبى يزيد » الخارجى الذى ثار عليه وأراد أن ينزع الملك منهُ

وخلفه « المنصور اسماعيل » سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) ، فقهر ذلك الخارجى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ م) ، غير أنهُ لم يحاول الاستيلاء على مصر

المُعز ثم تولى الخليفة الرابع ابنهُ « المُعِزّ لدين الله » أبوتميم مَعَدّ سنة ٣٤١هـ (٩٥٣م)

فكانت أيامه مبدأ عصر جديد فى تاريخ الفاطميين. وهو يمتاز عن سالفيه بتربيته العالية وبلاغته النادرة، وكانت له دراية عظيمة بكثير من اللغات: يتكلم اللغات البربرية والسودانية والإغريقية، وقيل إنهُ تعلَّم اللغة الصَّقْلية أيضاً. وكان يقول الشعر العربى. وكان سياسياً كبير الدهاء، كريماً حريصاً على العدل شديد التمسك بالدين

اتبع «المعز» فى سياسته خطة اسلافه، فبدأ بتوطيد الأمور فى بلاده حتى دانت لهُ جميع رؤساء القبائل المغربية، وخضعت لهُ مراكش بأكملها حتى شواطئ المحيط الأتلنتى

غزو مصر — ثم صرف همهُ لفتح مصر، فحفر الآبار وبنى أماكن للاستراحة فى الطريق الموصل اليها. وكانت مصر وقتئذٍ فى اضطراب لحقها عقب وفاة «كافور»، ولم يكن فى وسع خلافة بغداد مساعدتها لاشتغالها بصدّ غارات «القرامطة». فسيَّر «المعزّ» لغزوها أكبر قوّاده «جَوْهَر الصَّقَلّى» (وهو رومىّ الأصل) فى مائة ألف مقاتل، وأعدَّهم بأفخر العدد، ووضع تحت تصرُّف «جوهر» ٢٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار. فدخلوا مصر بلا ضرب ولا طعن، وسلّمت لهم «الاسكندرية» و«الفسطاط» سنة ٣٥٨ ه (٩٦٩ م). ومن ذلك العهد ابتدأت دولة الفاطميين فى مصر. وشرع «جوهر» فى الحال فى توطيد الأمور فى مصر. وكانت قد فشت بها مجاعة، فأرسل «المعزّ» اليها سفناً محملة بالقمح ليخفف وطأتها على الناس، وأمر بأن لا يبيع تجّار القمح شيئاً الاَّ بإشراف الحكومة

انشاء القاهرة — وخطَّ «جوهر» فى ليلة نزوله شمالى الفسطاط مدينة جديدة على نحو ميل من النيل بين «الفسطاط» و«عين شمس» وسمّاها «القاهرة». وموقعها الآن وسط مدينة القاهرة الحالية. ثم وضع على كل مصلحة من مصالح الحكومة موظفين، أحدهما مصرى والآخر مغربى، ليكفل بذلك المساواة بين النـاس، وبنى بالقاهرة «الجامع الأزهر» العظيم سنة ٣٥٩ – ٣٦١ ه (٩٧٠ – ٩٧٢ م) و«القصرين»

استعداداً لقدوم الخليفة « المعزّ » ، فزادت بذلك القاهرة جمالاً وبهاء ، وفتحت العمارةُ مورد رزق للعمّال العاطلين

ثم خضعت بلاد النوبة للخليفة الفاطمي، فدفعت الجزية، ودانت له مكة والمدينة، واعترف له الأمير الحمداني الوالي على شمالي الشام بالسيادة على « حلب » . وأرسل « جوهر » أحد قواده للاستيلاء عنوة على «دمشق»، وكان أهلها شديدي الكراهة للشيعة منذ خلافة معاوية ، فاستولى عليها ونشر عقيدة الشيعة فيها كَرْهًا

وبينما الفاطميون تزداد شوكتهم داخل مصر وخارجها اذ ألمّ بهم خطر كاد يقضي عليهم سنة ٣٦٠ ﻫ (٩٧١ م) . وذلك ان زعيم « القرامطة » كان يأخذ ضريبة من «دمشق» ، فمُنعت منهُ باستيلاء الفاطمية على المدينة . فغضب لذلك ، ولم يمنعه اتفاقه مع الفاطمية في العقيدة من الإغارة على المدينة وإخراجها من يد الفاطميين ، ثم سار بجيشه الى مصر فهُزم أمام القاهرة وفرّ هاربًا

عند ذلك رأى « المعزّ » انه قد حان وقت قدومه الى مصر ، فسار اليها في موكب حافل ومعه بنوه واخوته وعشيرته وجثث أسلافه ، ووصل إلى القاهرة سالمًا سنة ٣٦٢ ﻫ (٩٧٣ م) ، فأقنع النَّسَّابة من سلالة عليّ بصحة نسبه

وفي سنة ٣٦٣ ﻫ (٩٧٤ م) زحف « القرامطة » على مصر ثانية ، وطاردوا جيوش «المعزّ » الى داخل القاهرة ، فاستمال « المعزّ » أحد رؤساء خلفائهم من البدو بالمال (وكان أكثره زائفًا) فانتصر بذلك على القرامطة وردهم على أعقابهم . وفي سنة ٣٦٥ ﻫ (٩٧٥ م) مات « المعز » فخلفه ابنه « العزيز »

زهاء عصر المعز — وكان عهد « المعزّ » على قِصَره من أزهى عصور مصر ، وأزهرها ، وزادت فيه ثروة البلاد زيادة كبيرة . وكانت القاهرة اذ ذاك تسمى « المدينة » ، وكانت في الحقيقة عبارة عن قصرين عظيمين ولواحقهما : بهما من السكان ٣٠٠٠٠ نسمة ، وكان بين القصرين ميدان عظيم يكفي لاستعراض ١٠٠٠٠ جندي ، وكانت ثروة الأسرة المالكة زمن المعز وبعده فوق ما يُتصور ، فإن إحدى بناته ماتت وتركت

وراءها ما يعادل ٢٠٠٠٠٠٠ ديناراً، وأخرى تركت خمسة أكياس من الزمرد ومقادير وافرة من الأحجار الكريمة الأخرى علاوة على ٣٠٠٠ إناء فضي مطعّم

وقد بذل « المعز » غاية وسعه فى استجلاب محبة الناس واحترامهم له بعدله وحسن إدراته والتفاته الى جميع دقائق شؤونهم . فكان يرأس بنفسه حفلة قطع الخليج ، وزاد من محبتهم له ارساله كسوة فاخرة للكعبة كل عام . ومنع جنده من البقاء فى المدينة بعد الغروب اجتنابا لما عساه أن يحدث من الهياج ، وألغى نظام جباية الخراج بواسطة الملتزمين ، للخسارة التى كانت تلحق البلاد من وراء أرباحهم الباهظة ، وبذلك زاد الخراج بدون أن يضر بمصلحة المزارعين . وكان « المعزّ » شديد التسامح مع الأقباط ، وقلّد كثيراً من رجالهم مناصب راقية فى الحكومة

بهذه الطريقة ثبتت قدم الفاطميين فى مصر ، وإن كانت تقاليد الشيعة لم ترق يوماً ما فى أعين السواد الأعظم من المصريين

العزيز

ولى « العزيز بالله أبو منصور نزار » (٣٦٥ – ٣٨٦ هـ : ٩٧٥ – ٩٩٦ م) بعد وفاة أبيه، فأظهر من الرفق ولين العريكة ما أرضى العباد . وكان العزيز شهماً ، عظيم الجسم مولعاً بالصيد ماهراً فيه ، وكان قائداً شجاعاً وحاكماً مدبراً ، وكان مثل أبيه شديد التسامح مع المسيحيين ، وكثيراً ما كان يجلس للمناقشة معهم فى الأمور الدينية . وجدّد لهم كنيسة « أبى سيفين » خارج الفسطاط بعد أن كانت مستترة فى شكل مخزن للبضائع . ومن تسامحه فى الدين أن كان أكبر وزرائه « يعقوبُ بن كِلّس » و « عيسى بن نِسْطُورس » ، وأولها اسرائيلى أسلم والآخر مسيحى . وكان كل شىء فى قصره فخماً : من حاشية وموائد ودواب، وقد قيل: « إن خيوله كانت تُكسى الزرد المطعم بالذهب ، وتغطى بأقمشة مرصعة بالجواهر ومعطرة بالعنبر » ، الى غير ذلك من أنواع الفخامة والترف . وبذل «العزيز» الكثير من المال على إقامة المبانى وحفر الترع وانشاء الجسور (الكبارى) ومرافئ السفن . وبدأ بناء الجامع الذى يعرف بجامع « الحاكم » (لأن الحاكم هو الذى أتمه) بجوار باب الفتوح . وهو أول من

سار فى موكب الى الجامع فى كل يوم جمعة من رمضان للصلاة بالناس ، وأول من استخدم من الخلفاء الفاطمية جند الترك . وسادت فى عهده السكينة فى البلاد ، فبرهن بذلك على مقدرته فى الإدارة . أما مملكته فيكفى فى وصفها أنها كانت تمتد من المحيط الأتلنتى الى شرق الحجاز ، ومن اليمن الى أعالى الفُرات

الحاكم — وخلفهُ ابنهُ « الحاكم بأمر الله أبو على منصور » (٣٨٦ - ٤١١ هـ : ٩٩٦ - ١٠٢١م) وعمره ١١ سنة ، فنشأ مطلق الأمر فى آرائه وتصوراته . وتعلم علوم الشيعة فغلا فيها ، كما تعلم علوم الفلسفة والنجوم فكان له بها ولع شديد . وكان على طرَفى الغلو فى كل أعماله : فاذا عاقب أفرط وسفك الدماء وقتل الأعوان والأقارب والعلماء ، واذا أثاب أو أحب بذل ما لم يبذله ملك . وكانت أعماله متناقضة ، يفعل اليوم ما ينقضه غداً : اشتدَّت به غيرته على النساء فنعهنَّ من الخروج الى السوق والحمام والتطلع من نوافذ البيوت ، وقتل منهنَّ فى ذلك كثيراً ، وعاقب على شرب الخمر أشد العقاب ، ثم غلا وقلع جميع الكروم فى أرض مصر ، واضطهد النصارى واليهود فهدّم كنائسهم ، ثم أعادها . وانتهى به الأمر ان صار يخبر بالمغيبات من جواسيس كانت تطامه على الأخبار ، فاغتر به قوم واعتقدوا أن روح الله حلت فيه ، وألّف رجل منهم كتاباً فى ذلك ، فثار به الناس فخرج الى الشام ولايزال أتباعه بها الى الآن . وكان مع سفاهته ونزقه شديد العناية بجمع الكتب ومعاضدة العلم ، وأتم الجامع الحاكى (بين باب الفتوح و باب النصر) . ولما استطار شره ركب حماره يوماً وخرج على عادته الى جبل المقطم بناحية حلوان للخلوة بنفسه ولرصد الكواكب فلم يعد ، ووجدوا بعد أيام ثيابه مضرجة بالدماء وحماره مجروحاً ، فعلموا أنه قد قتل ، وقيل ان اخته عملت على قتله وذلك سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م)

الظاهر — فتولى مكانه ابنه « الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على» (٤١١ - ٤٢٧ هـ : ١٠٢١ - ١٠٣٦ م) ، وكان صبياً لايتجاوز السادسة عشرة من عمره ، فلم يكن بالرجل الذى يقدر على انتشال البلاد مما أصابها من جرّاء أعمال والده . وكان فى

أول أمره فى قبضة عمته ، فدام ذلك أربع سنوات ، ثم غلبه على أمره بعد ذلك ثلاثة شيوخ حكموا البلاد باسمه زمنًا . وفى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٥ م) حصلت مجاعة كبيرة فى البلاد . وكاد المصاب يكون أليمًا لولا ارتفاع النيل فى سنة ٤١٧هـ (١٠٢٧م)

قوة الوزراء ومن ذلك العهد أخذت قوة الخلفاء الفاطميين فى الاضمحلال ، وتحوّلت جميع السلطة الى الوزراء . وكان هؤلاء كلما مات خليفة اختاروا مكانه من أسرته مَن كان أكثرهم لينًا وأقرب الى التشكل فى أيديهم حسب أهوائهم . وفى عهد « الظاهر » قامت على الحاكم الفاطمى لمدينة « قَيْسارِيّة » عدة فتن فى أنحاء الشام ، فتغلب عليها جميعًا وأضاف الى أملاك الفواطم « حلب » ومعظم شمالى الشام

المستنصر ثم خلفه ابنهُ « المستنصر بالله أبو تميم معَدّ »(٤٢٧ – ٤٨٧هـ : ١٠٣٦ – ١٠٩٤م) وعمره سبع سنين، فأقام فى الخلافة ستين سنة لم يقمها ملك غيره فى الاسلام . وكان حكمه هذا على طوله عهد تدهور سريع فى الدولة الفاطمية ، قُضى أوله فى مشاحنات بين عدة وزراء قبضوا على زمام الأمور بالتوالى (٤٢٧ – ٤٤٢ هـ :١٠٣٦ – ١٠٥٠م) وفى مدتهم خرجت ولايات شمالى افريقية من يد الفاطميين ورفضت التشيع وعادت سنّية. وخرجت عليهم الولايات السورية ، وانقسمت الى ولايات عديدة وقعت غنيمة باردة للأتراك السلجوقيين سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) . ومن الغريب ان الدعوة الفاطمية فى عهده بلغت أقصى العراق، فخُطب له ببغداد نحو أربعين خطبة وهرب خليفتها العباسى . ثم آلت فى عهده أيضًا الى ما ذكرنا

وكانت مصر ذاتها بالرغم من ذلك فى رخاء وسعة ، وكان القصر الملكى بها من أفخم وأعظم ما عُرف فى الاسلام ، يُعلم ذلك من قول سائح فارسى يصف القاهرة فى ذلك العهد : « يضم القصر بين جدرانه ٣٠٠٠٠ نسمة ، ويحرسه كل ليلة ألف حارس ما بين فارس وراجل . ويبلغ عدد المساكن نحو ٢٠٠٠٠ بيت متقنة البناء يفصل بعضها عن بعض الحدائق والبساتين، ويبلغ عدد الحوانيت مايقرب من ذلك ، ويدخل متحصل الجميع للخليفة . ويمشى فى موكب الخليفة يوم فتح الخليج نحو

١٨٠,٠٠٠ من الجنود والأعوان من أجناس مختلفة ، وكثيراً ما كان يوجد بين حرس الخليفة الأمراء وأولاد الملوك من أقاصى البلاد حتى من الهند »

ثم هدأت حالة البلاد نحو ثمانية أعوام بعد سنة ٤٤٢ ﻫ (١٠٥٠م) ، وكان القابض فيها على زمام الأمور وزير عامل يدعى « اليازُورى » ، فقام باصلاحات عديدة ، ولكن الحال رجعت بعده الى ما كانت عليه من الفوضى والنزاع بين الوزراء

اضطراب البلاد وزادت الفتن بين الجند السودان والأتراك حتى كان لذلك أسوأ أثر فى البلاد . وبالغ « ناصر الدولة » القائد العام للجيش فى الظلم والاستبداد حتى خرج عليه بنو جلدته من الأتراك ، ففر من القاهرة ، ولكنه عاد اليها ومعه ٤٠,٠٠٠ مقاتل من العرب والبربر ، فأفسدوا الترع والجسور فى الوجه البحرى ومنعوا الزاد عن القاهرة والفسطاط . وصادف ذلك قحطاً كان قد بدأ بالبلاد سنة ٤٥٧ ﻫ (١٠٦٥ م) بسبب انخفاض النيل . فمنع هذا الهياج المزارعين من مزاولة أشغالهم ، فاستفحل أمر القحط حتى استمر سبع سنوات (٤٥٧ – ٤٦٥ ﻫ : ١٠٦٥ – ١٠٧٢ م)

القحط الهائل مات الناس فيها جوعاً وأكل بعضهم بعضاً ، وحدث من الويلات مايضيق المقام عن ذكره . ولم يقدر الخليفة على دفع الأذى عن نفسه ، إذ اضطره قواد حرسه من الأتراك الى بيع تلك القناطير المقنطرة من النفائس التى ورثها عن آبائه وأجداده مما لايدخل تحت حصر ، فقسموا بعضها على أنفسهم وباعوا الآخر بأبخس الأثمان . ولم يُجْدِ ذلك نفعاً بل انه بقى محاصراً بالقاهرة يتكبد آلام الفاقة حتى فتح « ناصر الدولة » المدينة ، فوجد رسولهُ الخليفة فى قصره جالساً على حصير بالٍ ولا قوت له سوى رغيفين أجرتهما عليه كل يوم احدى المحسنات

بدر الجمالى دخل « ناصر الدولة » القاهرة سنة ٤٦٦ ﻫ (١٠٧٣ م) ، ولكن لم يلبث ان حقد عليه مناظروه وقتلوه ، فاستراح منه الخليفة . ثم أرسل الى « بَدْر الجَمالى » الأرْمَنىّ الأصل حاكم « عكّا » يسأله القدوم الى مصر لتنظيم أمورها واصلاح مافسد فيها . فقبل « بدر الجمالي » رجاءه ودخل مصر فى جيش من أهل الشام ، ففتك

بالقوّاد الأتراك. ثم انصرف الى اصلاح البلاد وإخضاع الخارجين من أهلها، فساد الأمن وازداد الخراج وعمّ الخير جميع الناس. وبنى حول المدينة سوراً جديداً، وشيد فيه ثلاثة أبواب ضخام لا تزال الى الآن موضع إعجاب الناظرين، وهى باب النصر وباب الفتوح (سنة ٤٨٠ هـ : ١٠٨٧م) وباب زويلة (المتولى) (سنة ٤٨٤هـ : ١٠٩١م). وأعجب الخليفة به كثيراً فلقّبه أمير الجيوش ومات فى سنة واحدة مع الخليفة (سنة ٤٨٧ هـ : ١٠٩٤م) بعد أن قضى فى مصر عشرين عاماً امتلأت فيها البلاد هدواً وسلاماً



(باب النصر) (رسم الشيخ محمد زكى)

وتولى الخلافة من بعد «المستنصر» ستة وهم :

(١) «المستعلى» (٤٨٧ — ٤٩٥ هـ : ١٠٩٤ — ١١٠١ م)

(٢) «الآمر» (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ : ١١٠١ — ١١٣١ م)

(٣) «الحافظ» (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ : ١١٣١ — ١١٤٩ م)

(٤) «الظافر» (٥٤٤ — ٥٤٩ هـ : ١١٤٩ — ١١٥٤ م)

(٥) «الفائز» (٥٤٩ — ٥٥٥ هـ : ١١٥٤ — ١١٦٠ م)

(٦) «العاضد» (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ : ١١٦٠ — ١١٧١ م)

ضعف الخلفاء

وكلهم كانوا فى شدة الضعف. وُلّوا الخلافة جميعاً وهم أطفال ما عدا «الحافظ» فانهُ وليها وعمره ٥٧ سنة. وكان الوزراء فى عهدهم هم الحكام الحقيقيين للبلاد، ولذلك كان شأنهم فى التاريخ أهم من شأن الخلفاء أنفسهم. ولما كان تاريخ مصر

فى هذا العهد مندمجاً كل الاندماج فى تاريخ النزاع بين المسلمين والإفرنج فى الاستيلاء على الشام والأراضى المقدسة ، مما أفضى الى تأسيس دولة اسلامية جديدة هى الدولة الأيوبية ، رأينا أن نورد كل ذلك فى فصل واحد فنقول :

الفصل الثامن

تأسيس الامارات الصليبية بالشام

وعلاقاتها بمصر

٤٨٩ – ٥٦٧ هـ : (١٠٩٦ – ١١٧١ م)

﴿ مبدأ الحروب الصليبية ﴾ *

السلجوقيون

بينما الدولة الفاطمية آخذة فى التدهور فى أيام المستنصر كانت الأخطار قد أحدقت أيضاً بالدولة العباسية . وذلك ان الأتراك السلجوقيين واصلوا زحفهم غرباً حتى استولوا على جميع العراق وأرمينية والشام حتى حدود الدولة الرومانية الشرقية، ولم يبقوا للخليفة العباسى ببغداد سوى الزعامة الدينية . وكان هؤلاء الأتراك شديدى التمسك بالإسلام عظيمى الغيرة على مذهب أهل السنّة ، يعدّون التشيع بدعة يجب القضاء عليها ولذلك لم يألوا جهداً فى استئصال شأفة الفواطم مما بقى بأيديهم من الشام ، بل كادوا يغزون مصر ذاتها . واستولت فرقة من هؤلاء الأتراك فى هذه النهضة على معظم آسيا الصغرى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) وكوّنوا لهم فيها دولة عظيمة سميت « مملكة الروم » لأنها كانت من قبل جزءاً من بلاد الروم

قيصر يستصرخ البابا

فساء ذلك قيصر الرومان ، وخاصة لقرب عاصمتهم « نِيقِيَة » من القسطنطينية

* يطلق هذا الاسم على عدة حروب شنها مسيحيو أوربا على المسلمين لاخذ بيت المقدس من أيديهم . واستمرت نحو مائتى سنة من ٤٨٩ الى ٦٧٠ هـ (١٠٩٦ — ١٢٧٢ م) وسميت بالحروب الصليبية لان المسيحيين الذين قاموا بها اتخذوا الصليب شعاراً لهم ورسموه على ملابسهم وأعلامهم

حاضرة دولته، فلجأ الى البابا رئيس النصرانية يستصرخه على صد هؤلاء الأعداء، فلم يقصر هذا فى اجابته، ورأى فى ذلك فرصة لبسط نفوذه على ملوك أوربا وامرائها اذا هم اشتركوا فى حركة أساسها الدفاع عن النصرانية واخراج بيت المقدس الذى هو مهد المسيحية من يد المسلمين . ومن أهم الأسباب التى استفزت أهل أوربا الى تحقيق هذه الأمنية ما كانوا يسمعونه من حُجاجهم عند عودتهم من الإهانة التى يلاقونها من الأتراك، والضرائب الباهظة التى يؤدونها لهم، والهوان الذى فيه مسيحيو الشرق ، وغير ذلك من الأقوال المبالغ فيها التى كان ينشرها رجال الدين فى أوربا بسرعة لشدة تعصبهم وقضاء مآربهم

وأول من هاج القلوب وأخرج هذه الرغبات من القول الى العمل راهب متعصّب فرنسى يدعى « بُطْرُس النَّاسِك » ، فطاف بأوربا باشارة البابا يستنفر القوم الى استنقاذ بيت المقدس من الأتراك . وكان بليغًا مؤثرًا ، فأثارهم وملأهم حماسة وحقدًا على المسلمين . وعند ذلك جمع البابا أمراء أوربا وحرضهم على اعلان حرب دينية على المسلمين ، فلبى نداءه الألوف من الناس ، وقد أخذت الحمية منهم كل مأخذ . (بطرس الناسك)

وخرجت لذلك من أوربا سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) جيوش عظيمة بها كثير من أمراء أوربا وفرسانها وقوّادها العظام . وكانت بغية الكثير منهم الغنى والمُلك فى البلاد الذاهبين لفتحها (الحرب الصليبية الاولى)

صادف هذا الوقت فترة ضعف فى شوكة الأتراك جاءت بين النهضة التى ساقتهم الى تلك البلاد والنهضة الجديدة التى أعقبت غارة الصليبيين، وذلك لضعف امرائهم فى ذلك الحين . فانقضّت جيوش الصليبيين على « مملكة الروم » فهزموا سلطانها وردّوا الى قيصر الرومان ما يقرب من نصف آسيا الصغرى* . وعند ذلك نقل سلطان الروم السلجوقى مقر سلطنته الى « قُونِيَة » . وترك الصليبيون قيصر الرومان يفصل لنفسه مع سلطان الروم ، ومضوا الى سورية . فوصلوا اليها بعد أن مات عدد عظيم منهم ومن دوابهم جوعًا وظمأً

* وكان اتفاقه معهم على أن ترد اليه جميع البلاد التى كانت فى قبضته قبل استيلاء الترك عليها

﴿ تأسيس الإمارات اللاتينية ﴾

وجدّ الصليبيون في فتح البلاد ، فاستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى والشام، وكوّنوا لهم فيها إمارات سُمّيت بالامارات الصليبية أو «الإمارات اللاتينية» نسبة الى الأجناس اللاتينية التي كان يتألف منها الصليبيون

الرها وانطاكية — وأول ما أُسس من هذه الإمارات إمارة «أذاسا» (الرُّها)[1] بوادى الفرات سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) ثم «أنطاكية» سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م)

وفي هذا الوقت كان المصريون قد انتزعوا «بيت المقدس» من يد الأتراك السلجوقيين . وذلك ان الوزير «الأفضل» بن «بدر الجمالي» لما شعر بقدوم الصليبيين أمل خيراً وظن أنهُ إن اتحد معهم فاز على أعدائه الأتراك ، فسار في جيش الى فلسطين وأخذ بيت المقدس من السلجوقيين سنة ٤٩١ هـ (سبتمبر سنة ١٠٩٨ م)

بيت المقدس — غير ان أعمال الصليبيين خيَّبت عليهِ ظنه ، فانهم ما كادوا يعلمون بخروج بيت المقدس من يد حُماتهِ البواسل (السلجوقيين) حتى انقضوا عليه وافتتحوه وغنموا منه غنائم لا تحصى ، وقتلوا من أهله نحو ٧٠٠٠٠ مسلم وأتوا معهم من المنكرات والفظائع الوحشية ما لا ينساه التاريخ . ثم كوّنوا به إمارة لاتينية أخرى تُعرف بمملكة بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م)

الافضل والصليبيون — ومن ذلك العهد بقي «الأفضل» في حروب مستمرة مع الصليبيين ، ووقعت بينهم عدة وقائع صغيرة انتهت بتراجع المصريين من الشام تدريجاً ، حتى لم يبقَ لهم فيها سوى «عسقلان» . وفي سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) أغار «بَلْدَوين» (بَقْدَوين)[2] ملك بيت المقدس على مصر ذاتها ، فأحرق «الفرما» ووصل الى «تِنّيس» ، ثم لحقه مرض فرجع ومات . ومن ذلك الوقت اكتفى الفاطميون باتباع خطة الدفاع عن مصر

---

(١) موضعها الآن «أرفة»
(٢) ويكتب في التواريخ العربية أيضاً «بغدوين»

وفى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) أمر الخليفة الفاطمى بقتل « الأفضل » حسداً له وخباً فى القبض على السلطة، ولكنهُ لم يستطع ادارة شؤون الدولة وحده ، فكرهه الناس وقتلوه سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م)

﴿ حالة الإمارات اللاتينية ﴾

لما حلّ الصليبيون بالشام لم يكوّنوا لهم مملكة واحدة تجمع كلمتهم ، بل أسس كل قائد منهم إمارة له انفصلت بمضى الزمان تمام الانفصال عن نظائرها . ومن أهمّ هذه الإمارات « الرُّها » و « انطاكية » و « بيت المقدس » و « طرابُلُس » . وكانت كل إمارة تسعى وراء مصلحتها الخاصة بدون مراعاة لمصلحة الجميع ، فجرّ ذلك عليهم الضعف بالتدريج

زنكى وبقى الصليبيون (على اختلافهم وبُعدهم عن المدد من أوربا) ثابتى الأقدام ، اذ كان الترك أنفسهم لا يزالون متفرقين . ولكن فى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) وُلى « عماد الدين زَنْكى » من قِبَل الدولة السلجوقية حاكماً لأعالى الفرات والمَوْصِل . وكان رجلاً قويًا ، فعمل على توحيد جميع ولايات سورية الإسلامية تحت كلمته ، ولم يلبث أن بسط سلطانه على « حَلَب » ، وكان أهلها قد استغاثوا به من الفرنج . وفى سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) فتح حصن « الأثارِب » (بالقرب من حلب) بالرغم من مقاومة الصليبيين . وفى سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) حاول الاستيلاء على دمشق فلم يتيسر له لاستنجاد حاكمها بالصليبيين . غير انهُ استولى فى هذه الجهة على « بَعْلَبَكّ » سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) وعيّن « أيوب بن شاذِى » أحد قواده العظام حاكماً عليها . وفى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤م) استولى على « أذَاسا » (الرُّها) عنوة بعد قتال شديد ، فكان لذلك أسوأ وقع على الصليبيين . ولم يعش « زَنْكى » طويلاً لاستتمام فتوحه ، فقتل غيلة بعد ذلك بعامين . وتقسمت دولته بعد مماته

نور الدين اقتسم دولة « زنكي » بعد مماته ولدان له : أخذ اكبرهما « الموصل » وأخذ

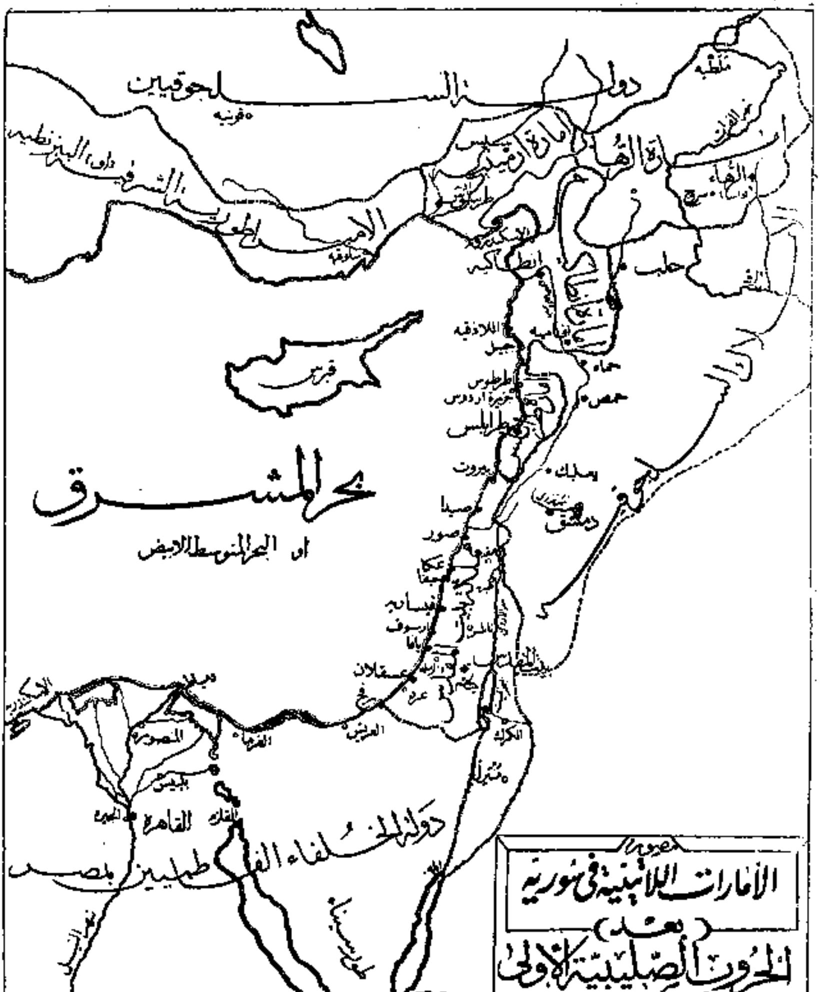
الأصغر (وهو نور الدين) ولاية « حلب » . فانتهز مجير الدين « أبق بن محمد » حاكم دمشق فرصة انقسام الدولة واسترد « بعلبك » ، والتحق « أيوب بن شاذى » اليها بخدمته ، ورُقى بعد قليل الى مرتبة قائد جيوشه . ووجّه « نور الدين » همته للدفاع عن « أذاسا » ، وكان الفرنج قد حاولوا استرجاعها ، وخرجت لحمايتها من أوربا قوة حربية جديدة تحت قيادة « كُنْراد » امبراطور المانيا و « لويس السابع » ملك فرنسا . فرأوا أن يبدءوا بالإغارة على « دمشق » (سنة ٥٤٣ هـ : ١١٤٨م) ولكنهم اختلفوا وعادوا الى بلادهم بالفشل (١١٤٩م) . وتُعرف هـذه الحملة « بالحرب الصليبية الثانية » ، ولم يكن من ورائها سوى إضعاف آمال الصليبيين فى سورية . ولما أنس « نور الدين » من نفسه القوة ورأى أن « أيوب بن شاذى » (صديق والده القديم) نافذُ الكلمة فى دمشق ، وأنهُ أخو « شيركوه » أحدقواده الكبار ، عمل على فتحها . ولم يظهر جيشه أمام المدينة حتى سلّمت له (سنة ٥٤٩ هـ : ١١٥٤ م) فدانت له بذلك سورية الاسلامية . ثم عيّن « نور الدين » « أيوب ابن شاذى » حاكماً على مدينة « دمشق » ، وعيّن أخاه « شيركوه » حاكماً على ولايتها (دون المدينة)

الحرب الصليبية الثانية

﴿ مصر والصليبيون ﴾

بينما كان «عماد الدين زنكى» وابنه « نور الدين » من بعده يجدّان فى الاستيلاء على الشام كان الفاطمية فى مصر يعوّلون على الاكتفاء باتباع خطة الدفاع . وكان وزراؤهم قد جمعوا كل السلطة فى أيديهم حتى أن « رضوان » وزير « الحافظ » تلقّب « بالملك » سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) وتبعه فى ذلك جميع وزراء الفواطم من بعده . فأصبح بذلك منصب الوزارة موضع تنافس كبار الرجال فى مصر . وكانت القاهرة دائماً مشهد مذابح ومعارك ، بتفاقم العداوة والبغضاء بينهم وحلول بعضهم محل بعض . وكثرت هذه الويلات فى عهـد الظافر ، فاجترأ أحد الوزراء على

كثرة الفتن بمصر


مصور
الامارات اللاتينية في سورية
بعد
الحروب الصليبية الاولى
رسمها الشيخ محمد عز الدين المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية
دولة السلجوقيين
قونيه
دولة البيزنطية
الامارات الشرقية
امارة ارمينيه
امارة الرها
ملطيه
الرها
سروج
حلب
انطاكيه
اللاذقيه
جبيل
حماه
حمص
انطرطوس
جزيرة ارادوس
طرابلس
بيروت
بعلبك
صيدا
دمشق
صور
عكا
حيفا
قيسارية
ارسوف
يافا
عسقلان
غزه
الكرك
العريش
الفرما
المنصورة
دمياط
بلبيس
القاهرة
الجيزه
القلزم
قبرص
بحر المشرق
او البحر المتوسط الابيض
دولة الخلفاء الفاطميين بمصر
دولة السلاجقة
نهر النيل
طور سيناء
بحر القلزم

الخليفة وقتله، وأجلس مكانه ابنه الفائز، وهو طفل لا يتجاوز الخامسة من عمره (٥٤٩ هـ : ١١٥٤ م)

طلائع بن رزيك

وفى هذه السنة قبض على أزمّة الوزارة رجل قوى يدعى «الملك الصالح» طلائع بن رُزّيك. وكانت مصر اذ ذاك فى حاجة الى حازم مثله، خصوصاً ان «عسقلان» آخرَ أملاكها فى سورية كانت قد سقطت فى يد افرنج بيت المقدس سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م). وبات كل من «نور الدين» و«صاحب بيت المقدس» يتطلع للاستيلاء على مصر ذاتها، ولم يمنع أحدهما من الاغارة عليها الا خوفه من الآخر. عند ذلك أرسل «الملك الصالح» وفداً الى «نور الدين» يطلب اليه محالفته على الصليبيين، فلم يجبه «نور الدين» الى طلبه إمّا خوفاً منه واما كراهة للشيعة. فاكتفى «الملك الصالح» بالدفاع عن مصر وصيانة حدودها الشمالية الشرقية من تعدّى الأعداء. وكان عهده عهد هدو وسكينة فى البلاد

شاور وضرغام

ولما قتل سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) تولى الوزارة ابنه العادل رُزّيك بوصية من أبيه، ولكن ذلك لم يسكن عواصف الفتن، فقام نزاع كبير بشأن تقلّد الوزارة أدّى أخيراً الى انقراض الدولة الفاطمية. وذلك ان «شاوَر» بن مجير السعدى الذى كان واليًا على قوص ثار على العادل رُزّيك بن طلائع وقبض عليه وقتله وأجلس نفسه وزيراً مكانه، وبقى فى الوزارة حتى ثار عليه «ضِرْغام» أحد القواد المحبوبين، ففرّ «شاور» الى دمشق، وطلب من «نور الدين» مساعدته على الرجوع الى منصبه، ووعده بدفع جزية سنوية اليه إن تمّ له ذلك، فتردّد «نور الدين» وبينما هما فى أخذ وردّ قام خصام بين «ضرغام» و«أمَلْريك» (مُرّى) ملك بيت المقدس بشأن جزية سنوية كان قد اتفق مَنْ قَبله من الوزراء على دفعها لأملريك. فأغار «امالريك» على مصر فى الحال وهزم «ضرغاماً» فى «بلبيس». ثم رجع بعد أن أرضاه «ضرغام» وحالفه خوفاً من شرّه واستعانةً به على «شاور» و«نور الدين» لو اتفقا. فعلم بذلك «نور الدين» وبادر بارسال جيش من الأتراك

بقيادة « أسد الدين شيركوه » ومعهُ صلاح الدين ابن أخيه، وصحبهم شاوَر . فدخلوا القاهرة بعد أن هزموا الجيوش المصرية ببلبيس . وانفضّ الناس من حول «ضرغام»، ثم قتلوه

شيركوه بمصر

ولم يتمّ الأمر لشاور حتى شرع في التخلي عن حلفائه وناصريه ونقض جميع عهوده معهم . فانقلبوا عليه ، وأرسل «شيركوه» ابن أخيه «صلاح الدين» للاستيلاء على بلبيس . فاستغاث « شاور » بأملريك . ولما قدمت الجيوش الصليبية صدّها « صلاح الدين » ببلبيس نحو ثلاثة أشهر . ثم خاف « أملريك » على مملكته بالشام من غارات « نور الدين » فأراد العودة اليها . وكان « شيركوه » نفسه قد سئم البقاء بمصر، فعقد هدنة وخرج بجيشه تاركاً مصر للجيوش المصرية وحلفائهم من الفرنج

ولم تأت غارة « شيركوه » هذه بالفائدة المقصودة ، ولكنها مكّنته من الوقوف على حالة البلاد ، فوصفها لنور الدين عند عودته ، وهوّن عليه أمرها . وطلب اليه أن يرسله في جيش آخر لفتحها ، فرضي بذلك نور الدين مع ما طبع عليه من الحرص والحيْطة

شيركوه واملريك بمصر

خرج « شيركوه » الى مصر لثاني مرة سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) فأسرع « املريك » بالقيام وراءه لينجد حلفاءه المصريين . فوصل « شيركوه » الى النيل قبل خصمه ، فعبر النيل جنوبي القاهرة بنحو ٤٠ ميلاً . فلم يكد يعبره حتى وصل « مرى » الى الشاطئ الشرقي . وسار الجيشان شمالاً أحدهما أمام الآخر حتى عسكر « مرى » بالقرب من الفسطاط ، وعسكر « شيركوه » أمامه بالجيزة ، وبقي الجيشان يرقب بعضهما بعضاً . وعند ذلك رأى « مرى » قبل أن يبدأ في الدفاع عن مصر أن يعقد تحالفاً رسمياً مع الخليفة نفسه، مخافة أن يُزَعزِع «شاوَر» ويصبح تحالفه معهُ بلا جدوى . فسمح الخليفة بذلك وقابله بعينه مندوبان من قبل «مرى»، وتمّ التحالف على أن يدفع له الخليفة ٤٠٠,٠٠٠ دينار نظير دفاعه عن مصر وصد الأعداء عنها . وعند ذلك عبر « مرى » النيل بجيشه شمالي القاهرة ، فتراجع

« شيركوه » الى الصعيد ، فلحقهُ الصليبيون بجهة يقال لها « البابان » بالقرب من المنية ، فانتصر عليه السوريون أصحاب شيركوه (وهم ألفا فارس) انتصاراً باهراً سنة ٥٦٣ ﻫ (١١٦٧ م) . وفى هذه الموقعة أبدى «صلاح الدين» كفاءة عظيمة . ثم سار « شيركوه » الى الاسكندرية فدخلها من غير مقاومة ، وترك فيها « صلاح الدين » فى نصف الجيش ، ورجع هو بالنصف الآخر لإتمام فتح الصعيد والاستيلاء على القاهرة والفسطاط . فسار الفرنج وحاصروا الاسكندرية براً وبحراً فدافع عنها « صلاح الدين » أحسن دفاع (وكان هذا أول عهده بالرياسة) ، وانتهى الأمر باتفاق « شيركوه » و« مرى » على أن يخلى كل منهما البلاد ، وأن يتركوا مصر للمصريين

صلاح الدين

عودة املريك الى مصر

ولكن الصليبيين طمعوا فى مصر ، فأبقوا لهم فيها شحنة احتلت أسوار القاهرة ولم يلبث «مرى» ان رجع بجيش آخر (يريد غزو البلاد هذه المرة لا الدفاع عنها) ففتح بلبيس سنة ٥٦٤ ﻫ (١١٦٨ م) وذبح من أهلها ما لايحصى ، فأثار بذلك حقد المصريين . وخاف « شاور » أن يأخذ « الفسطاط » فأمر أهلها بالجلاء عنها الى القاهرة، وأحرقها سنة ٥٦٤ ﻫ (١١٦٨م) كى لايأوى اليها الصليبيون. وكانت إذ ذاك مدينة عظيمة ، فبقيت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوماً . وما زالت آثار الحريق تشاهد الآن فى أطلال « الفسطاط » بالقرب من مصر القديمة الحالية . وجاء الفرنج فحاصروا القاهرة ، فأخذ «شاور » يعدهم بالمال ويماطلهم . واستغاث «العاضد» أثناء ذلك « بنور الدين » ، فلم يتردد وأرسل لثالث مرة جيشاً كبيراً بقيادة «أسد الدين شيركوه» مقصده الحقيقى غزو مصر لا مساعدة المصريين، وخرج معه « صلاح الدين » وهو كاره . فأرسل « مرى » جيشاً ليمنع انضمام « شيركوه » الى الجيوش المصرية ، ولكن «شيركوه» فاقه فى حركاته وانضم الى جيش «شاور» سنة ٥٦٤ ﻫ (يناير سنة ١١٦٩ م) . فلم يقدم « مرى » على القتال ، ورجع الى الشام بخفى حنين

احراق الفسطاط

شيركوه بمصر لثالث مرة

﴿ دخول « شيركوه » مصر وانقراض الدولة الفاطمية ﴾

فدخل « شيركوه » القاهرة ظافراً ورحّب به الناس ، وخلع عليه الخليفة حلّة ، اكرامًا له واعترافًا بجميله . وشكّ « شيركوه » والخليفة معًا في اخلاص « شاور » فقتلاه. وعيّن « شيركوه » وزيراً ، فلم يتولّ المنصب اكثر من شهرين ثم توفى . فخلفه في الوزارة ابن أخيه « صلاح الدين » ولُقّب بالملك « الناصر » ، فكفّ يد « العاضد » عن كل شيء بالتدريج . ثم قطع الخطبة للعاضد وهو مريض ، ودعا للمستضيء العباسى ثم مات العاضد سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) ، وبموته انقرضت الدولة الفاطمية . واستولى « صلاح الدين » على مصر مع تابعيته للخليفة العباسى أولاً ولنور الدين ثانياً تابعية اسمية

صلاح الدين في منصب الوزارة

﴿ مزايا الفاطميين وأسباب سقوط دولتهم ﴾

كانت دولة الفاطميين على شذوذها وابتداعها من أعظم دول الإسلام مُلكاً وأشدّها للعلم أزراً ، وأطولها على الناس عائدةً وفضلاً ، وأرقاها حضارة وأدبًا ، وأنبلها ترفًا وتمتعًا

وهم الذين أحدثوا في مصر كثيراً من المواسم والأعياد والحفلات الوطنيــة ، كما أبتدعوا عادة الاحتفال بموالد أهل البيت وباحياء بعض الليالى المباركة ، وبقى أغلب هذه الاحتفالات الى وقتنا . وكانوا في تلك المواسم والموالد يأدبون المآدب الجامعة لجميع الطبقات كل على حسب مرتبتــه ، فتُقدم الموائد الكثيرة المزخرفة بالذهب والفضة والعاج وألوان الأصباغ ، عليها من الأطعمة الفاخرة ، وأنواع الحلوى اللذيذة ما لا يكاد يصدقه العقل كثرةً وتنوعًا ، وكثيراً ما تُقدم معها أصناف الكسوة الثمينة والهدايا والدنانير والدراهم لأرباب الدولة والخواص ثم للخدم والجند . فمن المواسم موسم أول العام ، ويوم عاشوراء ، ومولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنــهُ ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين رضى الله عنهما ، ومولد

الاعياد والحفلات عند الفاطميين

سفن أسطولهم فى أول دولتهم تعد بالألوف وتقلع الى السفر من منظر المقس (قرب جامع أولاد عنان الآن)

وجملة القول ان الدولة الفاطمية كانت ذات عظمة وتأثير صبغ مصر بصبغة لا تزال بقيتها الى اليوم ، ولا عجب ان كانت تسمى « دولة المصريين » . ومن آثارها الباقية مدينة القاهرة المعزّية ، وباب زويلة وباب النصر والفتوح ، والجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، والجامع الأقمر (بالنحاسين)

وأسبابُ زوال هذه الدولة ترجع الى عدة أمور منها :

(١) استهانة خلفائها بحماتها الأولين وأهل الدعوة والعصبية لها من العرب والبربر واستعاضتهم عنهم بمماليك الترك والدَّيْلَم والسودان والأرمن والصقالبَة ، مما أوقع المنافسة بين جميع هذه الطوائف وأثار بينها الحروب الداخلية التى خربت البلاد ، وأهلكت العباد ، وعطَّلت المرافق ، وأذلَّت الخلفاء فى قصورهم . وهى الغلطة التى غلطها العباسيون من قبلهم اسباب سقوط الفاطميين



(منارة جامع الحاكم وبُرجا باب الفتوح)
رسم على افندى يوسف

(٢) تهاون أهل الحل والعقد فى اختيار الخلفاء الأكفاء ، وإغضاؤهم على البيعة للأطفال بالخلافة ، مما سهّل على الوزراء والحجّاب وأمراء الجيوش الاستبداد بالملك ، ونشأ من ذلك تحاسد أرباب الدولة وتزاحمهم على المناصب وحدوث المعارك بين أشياعهم

(٣) تغالى الفاطميين فى التشيع وإحداث البدع فيه ، حتى اعتلت عقائدهم ، وخالفوا فى بعضها جمهور المسلمين ، فنفرت عنهم قلوب أهل السنّة ، بل كثير من معتدلة الشيعة ، ونابذتهم الممالك المجاورة لهم وعملت على محو دولتهم ، واستقلت عنهم بعض أطراف بلادهم

(٤) مصادفة خروج الصليبيين لأيام ضعفهم ، واشتداد المجاعات والطواعين فى أيامهم

(٥) غفلة وزرائهم ، باستعانة بعضهم بالصليبيين على بعض ، وتكالب الصليبيين عليهم ، مما أوجب تدخّل نور الدين فى أمر مصر وإرساله الجيوش مع أسد الدين شيركوه وابن أخيه يوسف صلاح الدين اليها ، فقضوا على البقية الباقية من استقلالهم

الفصل الثامن

كلمة

فى الحضارة العربية* بالمشرق

قد أشرنا فيما سبق أن جاهلية العرب كان لها بعض حضارة وعلوم مناسبة لحالة بلادها ، ولا سيما ما كان منها فى اليمن وعُمان والبَحْرَين وسَقْيِ الفرات والشام . ونشرح هنا حال حضارة العرب بعد اسلامها وبسط سلطانها على أنفس ممالك العالم القديم فنقول :

* نقصد بالعرب هنا كل من كان للغة العرب ودينها وآدابها تأثير فى طبيعته الوجودية ولو لم يكن عربى الاصل ، فمثلا حضارة الامة المصرية فى عهد المماليك عربية الصبغة

﴿ الآداب ﴾

حفظت العرب بعد اسلامها لغتها وشعرها، حِرصاً على بقاء قرآنها مفهوماً، وشرعها معلوماً، فوضعوا النحو والصرف ومتن اللغة والبلاغة والعروض والقوافى، وجمعوا دواوين الشعر والخطابة واخبار جاهليتهم، وألفوا فيها ألوف الألوف من الكتب والرسائل، فخدموا بذلك لغتهم وأدبها خدمة قلّما تُعهد فى غيرها. وقد مضى على انقراض قدمائهم وفصحائهم اكثر من اثنى عشر قرناً، وما زالت لغتهم تُقرأ وتُكتب بين اكثر من مائتى الف الف نفس

﴿ علوم الشرائع والقوانين ﴾

ولا تقلُّ براعتهم فى حفظ شريعتهم وعلوم قرآنهم عن حفظ لغتهم وأدبهم، بل ان عنايتهم بعلوم اللغة والأدب لم تكن إلاّ وسيلة الى حفظ الشريعة المستنبطة من القرآن الكريم والحديث الشريف. فوضعوا الأصول والأقيسة لأن يستنبطوا منها ألوف الألوف من الأحكام العامة والشخصية، مما ملأ دور الكتب فى أنحاء العالم. على أن الباقى منها ليس إلاّ نقطة من بحر مما أحرقه الصليبيون والتتار والاسبان ويعرف المطلع على الشريعة أن المسلمين لم يقفوا فى فهم شريعتهم عند حد ما أُجمل فى قرآنهم وسنة رسولهم، بل استعملوا ذكاءهم العظيم واجتهادهم المطلق فى استخراج ما يناسب الشعوب وأحوال الزمان والمكان، غير مفْتاتين على الدِّين، ولا خارجين عن أُصوله

﴿ العلوم الإلهية والحكمية ﴾

استخرج العرب أُصول دينهم واعتقادهم من الكتاب والسنّة، ثم لما دخل فى الإسلام كثير من أهل الملل والنحل المختلفة، اعتقاداً او خديعة، شاع فى الإسلام

بعض الشبه ، خصوصاً بعد ما أطلق العباسيون الحرية للشعوب الأعجمية ، فجرّأهم ذلك على مناوأة الإسلام ومجادلة أهله بالأقيسة والبراهين العقلية . فأمر الخليفة المهدى العباسى بوضع الكتب فى علم الكلام والجدل بطريقة الاستدلال بالأدلة العقلية ، فجر ذلك علماء المسلمين الى مناظرتهم من جنس كلامهم ، فترجموا كتب اليونان والفرس والهنود زمن الرشيد والمأمون والواثق ، ونقلوا المنطق والفلسفة ، ومزجوا مباحثهما بمباحث علم الكلام والدين ، فنبغ منهم أئمة أعلام أربوا على سقراط وأفلاطون وارسطاليس . وافترقوا فى ذلك عدة فرَق ، أشهرهم «المعتزلة» و « أهل السنّة » والفلاسفة

بعض فلاسفة المسلمين وأئمة دينهم

فمن الأولى : أبو الهُذَيل وثُمامة بن أشرَس والنظّام والجاحظ والجُبّائى . ومن الثانية : أبو الحسن الأشعرى والباقِلّانى والفَخْر الرّازى والغزَالى . ومن الثالثة : الكِنْدِى وأحمد بن الطيب وأبو زيد البَلْخى والفارابى وابن سينا

﴿ العلوم الرياضية والفلكية ﴾

علم الجبر

أخذ العرب هذه العلوم عن الكتب اليونانية فى العصر الذى لم يكن الرومُ سلائلُ الإغريق يعرفون منها إلاّ قليلاً . وكذلك أخذوا عن الهنود الأرقام الحسابية ، ولكنهم لم يقتصروا على القليل المنقول ، بل توسعوا فى الحساب والهندسة واخترعوا الجبر : اخترعه « محمد بن موسى الخُوَارزْمى » ولم يُعرف منه قبلهم إلاّ مبادئ أُخذت عن اليونان والهنود فى استخراج القوى ، فوصل العرب فيهِ الى حل معادلات الدرجة الثالثة ، ووصلوا فى القرن الرابع الى نهاية حساب المثلثات الكروية

وعن العرب أخذت أوربا هذه العلوم . ولا تزال أرقام حسابهم هى الأرقام العربية . وبقاء اسم الجبر عندهم بلفظه العربى شاهد أنه من عمل العرب

الفلك والهيئة

أما الفلك والهيئة فللعرب اليد الطولى فى تهذيبهما وتحقيق مسائلهما ، فقد كان عصر المأمون والواثق وغيرهما من خلفاء بغداد والملوك التى اشتقت من الدولة العباسية

عصور ازدهاء وعناية عظيمة بهما ، فنقلوا فى زمن الرشيد والمأمون كتب اليونان من القسطنطينية، وحققوا مسائلها، وأصلحوا خطأها . فعملت الأرصاد والأزياج الفلكية ورصدوا الاعتدالين الربيعى والخريفى ، وقدّروا ميل منطقة فلك البروج ، وقاسوا الدرجة الأرضية ، فمسحوا الكرة الأرضية وعرفوا مقدار قطرها . ومراصدهم فى بغداد والقاهرة وغيرهما مشهورة

بعض الرياضيين والفلكيين

ونبغ فى هذه العلوم أبناء موسى بن شاكر والفَزَارى والخوارزمى والبلخى وأبو معشَر الفلكي وثابت بن قُرَّة وابن يُونس المصرى، ثم البَتّانى والبيرونى والطوسى وابن الهَيثَم الرّياضى وكثيرون

﴿ الجغرافيا والتاريخ ﴾

الجغرافيا

وبرع العرب فى أكثر أنواع الجغرافيا . فكتب « المسالك والممالك » لا يزال فيها كثير مطبوعًا فى أوربا وغيرها، ومنها المكتبة الجغرافية الشهيرة . ووضعوا بأنفسهم جغرافية بلادهم، وترجموا عن بطليموس وغيره آراءهم، فصنعوا المصورات والكرات الأرضية على المعادن والورق والجص والثياب ، وكان لهم سياحات عظيمة فى القارة القديمة ، وكفى دليلاً على اهتمام العرب بأحوال الأرض وسلوكها واستعمارها ان الأوربيين لما ذهبوا الى شرقى افريقية وجنوبيها والى جزائر الأوقيانوسية وجدوا العرب قد سبقوهم اليها من مئات السنين

بعض الجغرافيين

ومن أشهر جغرافيي العرب ابن حَوْقل والإصْطَخْرِى وابن خُرْدَاذْبَة والمسعودى وابو الفِدَاء والشريف الإدْرِيسى

التاريخ

ولم تتفنن أمة فى التاريخ ما تفنن العرب، فكتبوا تاريخ الدول، وتاريخ الأنبياء، وتاريخ الأفراد من العلماء والشعراء والكتاب والوزراء والمفسّرين والمحدّثين ، وتاريخ البلدان فأفردوا لكل بلد تاريخًا . وكتبوا فى آخر دولهم فى فلسفة التاريخ ، فرسموا بذلك خطتها للأوربيين الذين برعوا فيها فى الأزمنة الحديثة

بعض المؤرخين ومؤرخو العرب لا يحصون كثرة ، من أشهرهم الطَّبري والمَسْعودي وابن الأثير وابن خِلِّكان وابن شاكر والخطيب البغدادى وابن خلْدُون

﴿ العلوم الطبيعية ﴾

الطبيعة — أما العلوم الطبيعية فلا تُجحد أعمالهم العظيمة فيها، فانهم فوق استظهارهم ما عرفوه من اليونان زادوا فيه مسائل تستحق الذكر ، فكشفوا كثيراً من قوانين ثاقل الأجسام ، وجعلوا لها الجداول الدقيقة، وقوانين الضوء ، كما عرفوا علم السوائل الثابتة (الايدروستاتيك) وأظهروا براعة فائقة فى الأمور العملية الخاصة بالسوائل المتحركة (الإيدرُوليك) ، مثل حفر الآبار وانشاء الخزانات وحفر الترع ووضع الأقنية والبرابخ وما شاكل ذلك، مما لا تزال آثاره باقية فى العراق والجزيرة والشام ومصر وشمالى إفريقية والأندلس

الكيمياء — ولاينكر الاوربيون أن علم الكيمياء الحقيق هو من نتائج بحث العرب وتجاربهم . ويسمّى العرب الكيمياء الحديثة « صنعة جابر » (جابر بن حيَّان) إشارةً الى أن جابر هو الذى زاولها وكشف مفردها ومركبها . واكثرُ إطلاق لفظ « الكيمياء » اليونانى عندهم كان على الكيمياء الكاذبة التى نقلوها عن اليونان ، وهى استخراج الذهب من غير معدنه. وهم الكاشفون لزيت الزّاج والماء الملكى وروح النشادر والزّاج الأخضر وحجر جهنم والراسب الأحمر والغوْل(الكحول) وملح البارود وملح الطرطير والسليمانى والزرنيخ . وهم المهتدون لأكثر طرق الترشيح والتقطير والإذابة والتصعيد. نعم أن الأوربيين كشفوا العناصر البسيطة ، واستنبطوا التقسيم والتحليل والتركيب باعتبار الذرات ، فسهلوا دراسة هذا العلم وطرق الاختراع ، الاّ أن ذلك لا يمنعنا من الاعتراف بأن الفضل للمتقدم . ومن أشهر الكيميائيين جابر والكِنْدى والرّازى

الطب — أما الطب فأخذوه عن اليونان والهنود ، ثم زادوه بتجاربهم وبحوثهم . فهم أول من استعمل أغلب الكاويات المعروفة الآن ، وأول من اشتغل بملاج الجذام

أمثلة من دقة الصناعات العربية

(رسم لكجيان)



محراب من الخشب (من عصر الفواطم) كرسى من المعدن (من عصر المماليك) تنور من المعدن (من عصر المماليك)

والحَصْبة والجُدَرِيّ ، وأول من كشف عملية قدْح العين (الكَتَرَكْتا) ، وأول من استعمل السكر فى الأدوية بدل العسل ، وأول من وصف الأمراض الجلدية الدورية وصفاً علمياً . ولئن كانت الجراحة عندهم ليست فى التقدم على ما هى عليه الآن لإحجامهم كثيراً عن تشريح الآدميين ، لقد وضعوا فيها كثيراً من آلات وحسّنوا أُخرى

ولم يكن علمهم بالنبات وخواصهُ وعلم العقاقير والصيدلة أقل منه بالكيمياء

وقد أدَّاهم نشاطهم وإقدامهم الى الوصول الى معظم الحِيَل (الميكانيكا) المستخدمة الآن فى أصعب الصناعات . والعرب هم المخترعون للرقَّاص (البندول) وبيت الإبرة (البوصلة) الميكانيكا

﴿ الصناعة ﴾

وللعرب فضل عظيم فى تقدم الفنون الصناعية، فتفننوا فى صناعة المعادن، وبرعوا فى طلائها بالمينا ، وعالجوا عمل الصُّلب الصناعى . ولم تعرف الدنيا فى تلك الأزمان سيوفاً تفوق سيوف دمشق ، ولا نحاسين فاقوا نحَّاسى بغداد ، ولا صاغة خيراً من صاغة عُمَان ، ولا نُسَّاجاً أحذق من نُسَّاج تِنِيس . ونجارتهم العربية الدقيقة لا تزال موضوع تنافس الأوربيين فى اقتنائها . ونشاهدها فى الأبواب والمنابر والمَشْربات . وهم الذين أدخلوا صناعة الحرير والقطن والورق بأوربا

﴿ التجارة ﴾

أما تقدمهم فى التجارة فلا تزال آثاره شاخصة الى الآن، فتجارة أواسط افريقية بيد العرب ، وكانت قوافلهم تصل فى الشمال الى الأصقاع القُطْبيَّة : يدل على ذلك ما وُجد من آثارهم ودنانيرهم فيها . وسفنهم تبلغ الصين واليابان والأوقيانوسية قبل كشف البخار بأكثر من ألف سنة

﴿ فن العمارة ﴾

نقل العرب أكثر فن العمارة من مبانى البوزنطيين والفرس ، ولكنهم ما لبثوا أن غيّروا فيها تغييراً امتازوا به كما امتازوا فى غيره . فهم المخترعون للعقود ذات الزوايا. ومما أكسب المبانى العربية جمالاً ورونقاً القباب الشامخة المزينة ، والمنارات الشاهقة ، والأبواب العالية مع صغر المدخل ، ثم رونق النقوش والزخرفة العربية ، مما سنذكره

﴿ الفنون الجميلة ﴾

الرسم والزخرفة — لما كان من المحرّم أو المكروه عند المسلمين تصوير الأحياء ، وجّهوا عنايتهم الى إبداع رسوم جميلة خالية منها ، مكوّنة من أشكال نباتية غير حقيقية متداخل بعضها فى بعض ، وأشكال هندسية مركبة من خطوط مستقيمة ومنحنية . فكانت أبدع ما صنع الإنسان

ومن أهم ما استعانوا به فى الزخرفة أيضاً تأليف الألوان وكتابة آى القرآن الحكيم بأنواع الخطوط الكوفية والثُّلُثية المختلفة الأشكال، وصناعة الفُسَيْفِساء والخَزَف المطلى (القاشانى) والزجاج الملوّن ، والزخرفة بالجص . ومبانيهم بالقاهرة والشام والأندلس ورسومهم فى جلود الكتب أوضح دليل على نَبْغهم فى ذلك

الموسيقى — وبالرغم من تحريم دينهم العكوف على الملاهى وعزف آلات الطرب لم يقصروا فى إجادة فن الموسيقى إجادة جعلت الموسيقى العربية ضرباً مستقلاً متميزاً بمزايا جميلة . وآلاتهم الموسيقية على خشونتها وسذاجتها تأتى من النغم بما هو جدير بالإعجاب ، بل منها ما لم يستطع الأوربيون أن يحاكوه فى تتميم أجزاء النغم . وكان لعصر الرشيد والأمين والمأمون والواثق والمتوكل أثر عظيم فى تقدم صناعة الغناء والموسيقى عندهم

وجملة القول ان علوم العرب وآدابهم وفنونهم هى الحلقة الموصلة بين حضارة

الأقدمين والحضارة الحديثة . ومما يلاحظ ان ما كانوا ينشرونهُ من التمدين فى البلاد التى يفتتحونها يبقى وراءهم فيها زمنًا طويلاً . وللعرب الفضل (بالذات أو الواسطة) فى إحياء العلوم والفلسفة فى أوربا : أخذت ذلك عنهم شرقًا أثناء الحروب الصليبية وغربًا من الأندلس . وللعرب من كرم الأخلاق ، ورقة العواطف، والرحمة ، والرفق بالحيوان ، نصيب لم يقلّ عن أنصباء الأمم الفاضلة

الفصل السابع

الدولة الأيوبية

٥٦٧ – ٦٤٨ هـ (١١٧١ – ١٢٥٠ م)

(١) صلاح الدين الأيوبى

هو « الملك النَّاصر صلاح الدين يوسف بن أيُّوب » مؤسس الدولة الأيوبيــة الكردية . وُلد بتَكْرِيت من بلاد الكرد سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ – ٨ م) والتحق بخدمة « نور الدين » أسوةً بأبيه وعمه ، فبقى خاملاً الى الخامسة والعشرين من عمره ، شديد الميل الى الانزواء والعزلة . ثم رافق عمّه « شيركوه » فى الحملتين الأولين الى مصر سنتى ٥٥٩ و ٥٦٢ هـ (١١٦٤ – ١١٦٧ م) فكان له فى موقعة « البابين » وفى الدفاع عن الاسكندرية ما اشتهر أمره . ولم يرافقه فى الحملة الثالثة إلاّ بعد احجام واعتذار (لعظيم ما لاقى فى حصار الاسكندرية) مع ان هذه الخرجة كانت فاتحة لتأسيس ملكه وتكوين مجده . وربما لم يُقَلِّده المصريون منصب الوزارة فى مصر بعد عمّه إلاَّ لما كان يدلّ عليه ظاهره من سهولة انقياده — منشؤه

ولى « صلاح الدين » وزارة مصر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) فقام بها احسن قيام . ولما رأى أنه صار وزيراً للخليفة الفاطمى الشيعى وعاملاً لنور الدين صاحب — تقلده وزارة مصر وانقراض الفاطميين

دمشق السنّي في وقت واحد، دعا لهما معاً في الخطبة، وبذلك مهّد الطريق للقضاء على ما بقي من السلطان للخليفة الفاطمي. وعمل على استجلاب محبة أهل مصر ليشتدّ بهم ازره في الانسلاخ من « نور الدين »، وفي التغلّب على الفاطميين وتكوين دولة مستقلة له بمصر، فعزل من المناصب الكبيرة من يخشاهم من المتشيعين للعاضد ونصّب مكانهم اخوته ووالده. وثار عليه جند الخليفة السودان وكاتبوا الصليبيين يستنصرونهم، فعجل صلاح الدين باخماد ثورتهم وطردهم الى الصعيد. ثم اغار الصليبيون على «دمياط» فأسرع الى صدّهم، فرجعوا خائبين الى بيت المقدس. فكان ذلك ابتداء طور جديد في تاريخ النزاع بين مصر والفرنج، فبعد ان كانوا يوالون الغارات على مصر في عهد الفاطمية اصبحوا ولا حيلة لهم إلاَّ الدفاع عن إمارة بيت المقدس. إذ قد أتبع صلاح الدين هذا الفوز باغارة على « فلسطين » غنم بها مغانم كثيرة، فأحبّه الناس واحلّوه في قلوبهم محل المدافع عن الدين الآخذ بناصره. ولذلك لم يجد صعوبة في حذف اسم الخليفة الفاطمي العاضد من الخطبة والدعاء للخليفة العباسي مكانه. وكان « العاضد » قد احتجب في قصره منذ قدوم صلاح الدين، وكان عند حذف اسمه في مرض الموت، فحُبِس عنه الخبر حتى مات. ولم يأخذ صلاح الدين لنفسه شيئًا من خزائنه ونفائسه، بل ارسل جانبًا منها الى « نور الدين » واهدى بعض خزانة الكتب الى وزيره « القاضي الفاضل »، وباع الباقي على ذمة بيت المال. ولم يتخذ لنفسه قصراً من قصور الخلفاء، بل بقي بمنزله وانزل القصور رؤساء جيشه، فباتت تلك القصور الجميلة بعيدة عن عناية الملوك، وتسرّب اليها الخراب حتى لم يبق لها اثر الآن

ويمكن تقسيم ما بقي من سيرة « صلاح الدين » الى ثلاثة اطوار:

(١) تحصينه لمصر وتوطيد ملكه فيها

لما أن تمّ الأمر لصلاح الدين أخذ فى تحصين مصر ليأمن شرّ غارة الأعداء ، فعزم على بناء سور عظيم يضمّ الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة ، وتشييد قلعة منيعة على جبل المقطم تشرف على الجميع . فبدأ فى بناء السور ، ولكنهُ لم يتمّ قط — طور تحصين مصر

وأرسل «صلاح الدين» عدة جيوش الى البلاد المجاورة لمصر ، قيل : كان الفرض منها حفظ مكان تتراجع اليه جيوشه اذا طاردهـا الصليبيون أو نور الدين نفسه (وقد كان صلاح الدين لم يُبق له سوى سيادة اسمية لخنق عليه) . فوجّه أحد هذه الجيوش الى سواحل افريقية الشمالية ، والثانى الى السودان ، والثالث الى بلاد العرب حيث أخضع أخوه جميع بلاد اليمن وأسس بهـا دولة حكمت هنالك نحو خمس وخمسين سنة

ثم تآمر جماعة الشيعة بمصر على الوثوب بصلاح الدين ، فلم يفلحوا وقتل بزعمائهم . وكان الفرنج قد عزموا على مساعدة الثائرين ، فهاجموا الاسكندرية باسطول من « صقلية » أواخر سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) فرُدّوا عنها بالفشل

وفى هذه السنة مات « نور الدين » ، فخلا لصلاح الدين الجو ، وعمد الى بسط نفوذه على جميع الممالك الإسلامية وتكوين دولة واحدة عظيمة منها ، حتى اذا توحّدت كلمة المسلمين عمل الى استئصال شأفة الصليبيين من الشرق — وفاة نور الدين

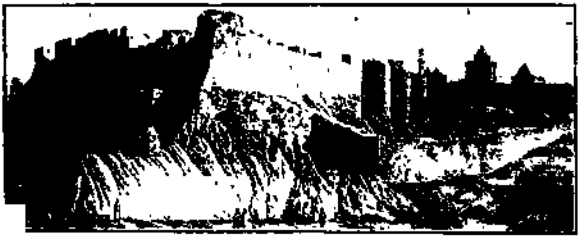
(٢) توسيع نطاق دولته

ترك « نور الدين » ملكه لطفل صغير ، فاستحوذ على السلطة نفر من الأمراء ، فانتهز صلاح الدين هذه الفرصة وذهب الى « دمشق » وملكها باسم ابن سيّده نور الدين . ثم سار الى « حلب » فأقفلت ابوابها فى وجهه ، وأرسل صاحب الموصل (ابن أخى نور الدين) جيشاً لينضم الى جيش حلب ، فسار الجميع للقاء صلاح الدين ، — طور توسيع نطاق الدولة

فانتصر عليهم انتصاراً باهراً بجهة «قُرُون حَماة» سنة ٥٧٠ ﻫ (١١٧٥ م). وانتصر في موقعة اخرى في السنة التالية، فاعتُرف له بالسيادة على جميع أنحاء الشام من مصر الى قرب الفرات

قلعة الجبل

ثم قضى « صلاح الدين » ست سنين (من ١١٧٧ الى ١١٨٢ م) في ضبط نظام املاكه ومواصلة تحصين القاهرة. فبدأ في سنة ٥٧٣ ﻫ (١١٧٧ م) بناء « قلعة الجبل » على سفح المقطم، وبنى فيها قصراً لسكنه، وحفر فيها بئراً عميقة تعرف الآن ببئر يوسف او « الحلزون ». ولم يتمّ بناء القلعة إلاّ بعد موته. وقد عُدّل بناؤها وزيد عليه بعد ايامه مراراً، حتى أخذت شكلها الحالي في عهد المرحوم « محمد علي باشا » رأس الأسرة المحمدية العلوية الكريمة، ولا يزال جزء من بناء صلاح الدين باقيًا بها الى الآن



(القلعة قبل عهد محمد علي باشا)

وبذل صلاح الدين عنايته في هذه المدة ايضًا باصلاح أعمال الري ونحوها بمصر، واكثر من انشاء المدارس لنشر مذهب الامام الشافعي ومحو مذهب الشيعة من مصر. ولم يمسك أثناء ذلك عن الحرب جملة، بل حدثت بينهُ وبين الفرنج بعض مناوشات رجع منها الى القاهرة بكثير من الأسرى سخَّرهم في بناء القلعة

وما زال يعمل على توحيد كلمة المسلمين وبسط نفوذه عليهم، حتى لم تأت

وبذلك تم له ما أراد ، وصار أمراء المسلمين من كل جانب رهن اشارته ، يمدّونه بالخيل والرّجل اذا قام بدعوتهم الى حرب دينية لسحق الصليبين وإعلاء كلمة الإسلام

(٣) صلاح الدين والصليبيون

كانت بين صلاح الدين والصليبيين هدنة فى هذه المدة ، ولكنها كانت هدنة ظاهرة : فكان كلا الفريقين فى أثنائها ساهراً على الاستعداد للحرب للأخذ بناصر دينه . وقامت بأوربا نهضة جديدة لتأييد المسيحيين بالشام ، ولم يبق إلاّ ظهور شرارة صغيرة تلتهب بها نيران حرب دينية عظيمة . فأوقد هذه الشرارة القيّم على ملك بيت المقدس (وكان ملكها طفلاً صغيراً) بتعرّضه لإحدى قوافل صلاح الدين وسلبها ، فنشبت الحرب ودامت خمس سنوات (٥٨٣ - ٥٨٨ه:١١٨٧-١١٩٢م)

موقعة حطين

واكتسح صلاح الدين فى أول الأمر كل شيء أمامه : فقهر جيوش إمارة بيت المقدس فى موقعة فاصلة بجهة « حطّين » لم ينكب الصليبيون منذ خرجوا الى الشام بمثلها . ثم توغل الى فلسطين ، ففتح « عسقلان » وكثيراً من الحصون والمعاقل وفادى أسراها بالمال ومبادلة الرجال ، فانحازت طائفة منهم الى « بيت المقدس » وطائفة الى « صور » . ورأى صلاح الدين أن الفرصة قد حانت لاستنقاذ بيت المقدس ، فنزل عليه بجيوشه فى منتصف رجب (سنة ٥٨٣ ه : ١١٨٧م) ، وكان محصناً تحصيناً منيعاً ، فدافع الفرنج مستبسلين ، وجدّ المسلمون فى الزحف فاجتازوا الخنادق ونقبوا الأسوار ، ولما رأى الفرنج أنهم أشرفوا على الهلاك اتفقوا مع صلاح الدين أن يسلموا اليه المدينة ويخرجوا منها بأموالهم وأولادهم وأثقالهم نظير فدية بضعة دنانير على كل انسان ، فقبل ذلك صلاح الدين ، ولم يعاملهم بمثل ما عاملوا به المسلمين عند ما فتحوه زمن الفاطمية من الفظائع . وفى سنة ٥٨٤ ه (١١٨٨ م) هادن صاحب « انطاكية » وفتح « الكرك » وجميع مدن الساحل شمالى «صور».

وفى سنة ١١٨٩ م لم يبقَ بأيدى الصليبيين سوى « صُور » و « بِلْفُرْت »*. وقضت مكارم صلاح الدين أن يسمح لحامية البلاد التى فتحها بالتراجع الى « صور » بعد أن أقسموا له أن لا يجرّدوا عليه سيفاً ، ولكنهم تجمعوا هنـالك وكوّنوا قوّة جديدة ، ثم حملوا عليه

فبدءوا بحصار «عكا» ، وساق صلاح الدين عليهم جيشاً ليحاصرهم سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) . وبقى الحال كذلك سنة ونصفاً الى أن أتى « فِلب » ملك فرنسا و « ريكارد قلب الأسد » ملك الانجليز بعدد كبير للصليبيين ، فسلمت لهم المدينة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) . ثم وقع الخصام بين الصليبيين انفسهم ، فتسرب اليهم الفشل ، وعاد « فِلب » الى بلاده . وسار « ريكارد » الى « بيت المقدس » فلم يستطع الاستيلاء عليها . وكان الفريقان قد سئما القتال وشرعا يتخابران فى الصلح . وفى سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) أصاب « ريكارد » مرض ، وحدثت فى بلاده أمور تستدعى عودته ، فعقد صلحاً بجهة « الرملة » مع صلاح الدين على أن يبقى الساحل بين « صور » و « يافا » بأيدى الصليبيين ، وان يسمح للمسيحيين بحج البيت المقدس بلا ضريبة

نتائج حروب صلاح الدين

هذه هى نتيجة الحرب التى قام بها صلاح الدين على الصليبيين مدة خمس سنوات : فبعد ان كان المسلمون لا يملكون قبل موقعة « حِطّين » فى سنة (١١٨٧م) شبراً من الأرض غرب نهر «الأُرْدُن» أصبحوا بعد معاهدة « الرملة » سنة (١١٩٢) يملكون جميع البلاد عدا ساحل ضيق يمتد بين صور ويافا . رأى صلاح الدين كل ذلك ، ورأى انه قد وحّد كلمة المسلمين ما بين صحراء لوبية وجبال الكردستان ، ونصر بهم الاسلام ، فطاب خاطره وتم له ما اراد . وكانت قد انهكت صحته الحروب المستمرة ، فأصيب بحمى وتوفى بدمشق سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م)

صفات صلاح الدين

ويعتبر صلاح الدين من اعظم رجال التاريخ ، فقد كان قائداً عظيماً وسائساً

* وتسمى فى كتب العرب « شقيف أرنون » : كانت قلعة بين دمشق والساحل

محنكاً ، جمع بين الشجاعة والمروءة وعلو الهمة ، و بين الشدة والتواضع والتقوى والزهد والورع والعدل والرحمة . وكان الفرنج يُعجَبون بأخلاقه ويمدّونه مثال الشهامة الشرقية وفي مقدمتهم فى ذلك « ريكارد » ملك الانجليز الملقب بقلب الأسد ، فانه وان لم يقابله قط كان يعجب بشهامته كل الإعجاب

بعض أعوان صلاح الدين

وقد ساعد صلاح الدين فى ادارة شؤون دولته الشاسعة جماعة من النبغاء ليسوا بالقليل ، منهم والده (وهو صاحب الفضل فى تمكين الملاقة بينه و بين نور الدين) ، ومنهم أخوه « العادل » ووزيره «بهاء الدّين قَرَاقُوش»، ووزيره «القاضى الفاضل» عبد الرحيم البَيْسانى صاحب اليد الطولى فى الأدب والحكمة ، ثم « عماد الدين » الكاتب وكانت له شهرة فائقة فى البلاغة

(ب) خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين

لما توفى صلاح الدين تولى أولاده حكْم الثلاثة الأعمال العظيمة من دولته وهى دمشق وحلب ومصر . وتولى الأعمال الأخرى العادل وبنو اخوته

العزيز

فخلفه فى مصر ابنه السلطان الملك « العزيز » عماد الدين ، إلاّ أنه حدثت بينه و بين أخيه « الأفضل » ملك دمشق منازعات وحروب انتهت بنفى الأفضل عن دمشق، وتولاها « العادل » سيف الدين أخو صلاح الدين الذى كان وقتئذٍ حاكماً على الجزيرة . وكان « العادل » من أكثر الناس سياسة وحزماً ، فبعد أن قبض على أزمّة الأمور بدمشق أسرع لتنظيم شؤون أملاكه بالجزيرة، فدانت له جميع البلاد السورية والجَزَرية . ثم مات « العزيز » سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨م) ، فحضر « العادل » الى مصر وتغلّب على ابنى صلاح الدين ، وعزل « المنصور » بن العزيز من مصر

المنصور

(وكان طفلاً صغيراً) وتولى هو ملكهـا . ودانت له معظم دولة صلاح الدين (٥٩٦ هـ : ١٢٠٠ م)، وصارت مصر صاحبة الشأن الأكبر فى هذه الدولة . ووقع بمصر فى زمنه (٥٩٧ - ٥٩٩ هـ : ١٢٠١ - ٢ م) قحط شديد ثم وباء عظيم

العادل أضعفا شأن المملكة ، إلاّ أنّ (العادل) لم يفتر عن توطيد دعائم ملكه ، وجمع كلمة المسلمين وجعلهم يداً واحدة ليستعين بهم على استئصال شأفة الصليبين

وكان الصليبيون أثناء اشتغال العادل بتثبيت ملكه بالشام قد جاءتهم امداد من ألمانيا سنة ٥٩٣ هـ : ١١٩٧ م ، وأرادوا أن ينتهزوا فرصة تفرق المسلمين للاستيلاء على بيت المقدس ، فانتصروا على العادل وأخذوا منه « بيروت » . ولكنهم تفرقوا بعد ذلك ، وعقد العادل معهم صلحاً بالنزول لهم عن « يافا » و « الرملة » اعتقاداً منه أن الصلح خير له لتعزيز قوته

وفى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) منح « العادل » أهل مدينة « البُنْدُقِيَّة » مزايا تجارية بالنيل وبالاسكندرية نظير تعهّدهم بمساعدته على صدّ غارات الصليبين على مصر

وفى سنة ٦١٤ هـ (١٢١٨ م) نهض الصليبيون نهضة جديدة ، وبدا لهم أن يحوّلوا رحى الحرب الى مصر قلب دولة المسلمين، فقصدوا «دمياط» وكانت حصينة، فملكوها بعد قتال شديد . وكان العادل فى الشام فمات فى رجوعه كمداً عليها . وكان العادل من أنبل الناس وأكبرهم حرصاً على الاسلام : خدم صلاح الدين باخلاص نحو ٢٥ سنة (من ١١٦٨ الى ١١٩٣ م) وجمع كلمة دولته بعد موته ، فكان أكبر واقف بعده فى وجه الصليبيين .

الكامل ثم تولى السلطان الملك « الكامل » (٦١٥ – ٦٣٥ هـ : ١٢١٨ – ١٢٣٨ م)، فعمل على طرد الصليبيين من دمياط : قاتلهم عليها ليلاً ونهاراً ، إلاّ أنه وصلت اليهم امداد جديدة كثيرة ، فعرض عليهم الصلح على ان يردّ اليهم إمارة بيت المقدس كما كانت قبل الحرب التى شنها عليهم صلاح الدين فى سنة ١١٨٧ م نظير جلائهم عن دمياط ، فأغراهم البابا برفض هذا العطاء الجيل ، فكان نصيبهم الفشل بعد ذلك ، فإن اختلافهم وجهلهم حال البلاد الجغرافية حالا دون تقدمهم . ولما شرعوا فى الزحف نحو القاهرة فى شهر يوليه سنة ١٢٢١ م اعترضتهم الترع من كل جانب

واضطروا الى محاربة المسلمين بمكان كان قد حصنه الكامل بالقرب من المنصورة وجمع اليه الجيوش والأمراء من جميع انحاء الدولة الأيوبية . ولما علا النيل هدم المسلمون السدود، فانطلقت المياه على موقع الأعداء وأحاطت بهم من جميع الجهات، ولم يبقَ لهم منفذ سوى ممر ضيق يفرّون منهُ الى دمياط . وبينما هم يهمون بالفرار ليلاً انقض عليهم المسلمون من كل جانب وأخذوا يحصدونهم حصداً . ثم أمر الكامل أن يكفّوا عنهم ، وأطلق سراحهم بعد ان عاهدوه على أن يخلوا دمياط ويجلوا عن الديار المصرية، وان لا يجردوا على المسلمين سيفاً مدة ثماني سنوات . فجلوا عن مصر فى شهر سبتمبر سنة ٦١٨ ﻫ (١٢٢١ م) بعد أن قضوا فيها أربعين هلالاً

وفى سنة ٦٢٥ ﻫ (١٢٢٨ م) خرج الإمبراطور « فِردْريك الثانى » من أوربا فى بضع مائة من الفرسان يطالب بملك امارة بيت المقدس، وكان على وشك الخروج مع جيوش أوربية ، إلاّ أنهُ أغضب البابا وغيره من أولى الشأن من المسيحيين لاستقلاله عنهم فى الرأى ، فتركوه يخرج وحده لجهاد المسلمين . وكان «فردريك» قليل التعصب الدينى، يميل الى المسلمين، حتى ظن البابا انه دخل فى دينهم . وكان « الكامل » قد خشى ازدياد قوة أخيه « المعظّم » صاحب دمشق، فعقد محالفة مع « فردريك » على أن ينزل له عن بيت المقدس وعن طرق حجاجه المؤدية الى عكا ويافا ، وان يطلق سراح الأسرى من الفرنج ، ويقوم فردريك نظير ذلك بمساعدته على رد كل مهاجم ولوكان مسيحياً ، وأن يمنع المدد عن أمراء الصليبيين الآخرين فى الشام مدة عشر سنين ونصف . فأخذ « فردريك » بيت المقدس بلا ضرب ولا قتال، فعد المسلمون ذلك من أشنع غلطات الكامل، فان طمعه فى بلاد إخوته وأقاربه وشفاء غل صدره منهم حمله على النزول عن بيت المقدس، وهو بيت القصيد من كل هذه الحروب الشعواء التى أُريقت فيهـا دماء مئات الألوف من الطائفتين . وبمهادنة الكامل لفردريك وحّد قواه لانتزاع أملاك أقاربه حتى تمت له السيادة على جميعها، ولم يبق له منازع من آل أيوب . وعاش نحو تسع سنين لم يحارب

فيها أحداً من الصليبيين . وآخر عهده بالحروب انه خرج سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) للاستيلاء على دمشق فتم له النصر ، الا أنهُ مات بعد الواقعة بقليل على إثر تعرّضه للبرد في ميدان القتال . فعاد النزاع بين ملوك بني أيوب الى أشد ما كان عليهِ في اقتسام البلاد

وكان « الكامل » يحسن الإدارة والسياسة ، ولا يفتر عن العمل . وتقدمت مصر في عهده كثيراً بفضل ما قام بهِ من الأعمال لإصلاح الري وتحسين حالة الزراعة . وأتمّ « الكامل » بناء قلعة صلاح الدين ، وأسس كثيراً من المعاهد العلمية . وكان كمعظم أفراد اسرته يحب العلم والعلماء ويجلس اليهم في ليالي الجمعة لسماع حديثهم والمناقشة معهم

العادل — فخلفه ابنه السلطان الملك «العادل» سيف الدين أبو بكر الثاني ، فاشتغل باللهو عن التدبير ، فأنكر الأمراء ذلك وخلعوه بعد سنتين

الصالح — وولي أخوه السلطان «الملك الصالح» أيوب سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) فكان من خيرة السلاطين : دبّر المملكة أحسن تدبير ، وأخمد الفتن . وبنى قلعة الروضة (بجزيرة الروضة) ، ونزلها وحشد فيها المماليك من الترك وبالغ في شرائهم (فكان ذلك من اكبر غلطاته ، فانهم سلبوا المُلك من أولاده كما سلبوه من أولاد المعتصم العباسي) . وكان عمه « الصالح اسماعيل» من اكبر أعدائه ، فانه استولى على دمشق واتحد مع الصليبيين ونزل لهم عن بعض المواقع ، فاستعان « الصالح أيوب » بقبائل الخوارزمية وهزم الأعداء ، وأعاد « بيت المقدس » للمسلمين سنة ٦٤٢ هـ : سبتمبر سنة ١٢٤٤ م . فبقي بعدُ مِلْكاً لهم ، واسترد أيضاً دمشق سنة ٦٤٣ هـ : ١٢٤٥ م وعسقلان سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) ، ورجعت دولته الى ما كانت عليهِ في عهد جده . وفي آخر مدته (٦٤٧ هـ : ١٢٤٩ م) نزل الصليبيون في اكثر من مائة الف الى « دمياط » فملكوها بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وكان من أبطال الصليبيين . فرابط الملك الصالح بالمنصورة ومرض مرض الموت ، فأرسلت سُرِّيته

السيدة أم خليل « شجرة الدُّر » الى ولده « توران شاه » بالجزيرة تستدعيه . ومات الصالح فأخفت السيدة موته وأصدرت الأوامر بما يشبه توقيعه، وجمعت قوّاد الجيش وأرباب الدولة وزعمت أن السلطان يأمرهم بالبيعة لولده توران شاه ففعلوا ووقع الفرنج في نفس الخطأ الذي وقعوا فيه في عهد «الكامل» ، فانهم بدل أن يأتوا مصر من طريق صحراء سينا مارين بالفرما ، شأن الفاتحين قبلهم ، أتوها من طريق دمياط والمنصورة حيث تعترضهم الترع والخلجان ، فزحفوا على المنصورة سنة ٦٤٨هـ : ١٢٥٠ م وكادوا يملكونها ، فحضر « توران شاه » وقت اشتباك الحرب ، فقاتل الفرنج ودارت عساكره حولهم، فاستولى على أكثر مراكبهم وأخذتهم السيوف من كل جانب وقتل منهم نحو ٣٠ ألفا ، وغرق كثير منهم في النيل ، وأُسر ملكهم «لويس التاسع» وسجن في دار ابن لقمان (ولا تزال باقية بالمنصورة الى الآن) ، ثم فدى نفسه وبقية أهله وعساكره بمبلغ ١٠،٠٠٠،٠٠٠ فرنك وخرج من دمياط وكانت واقعة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) ، وتعتبر من الوقائع الفاصلة بين المسلمين والصليبيين . وكان الملك الصالح من أعظم بنى أيوب ملكاً وأحزمهم أمراً وأكثرهم عمارة وأشدهم استقلالاً بالدولة

توران شاه

ولما ولى السلطان الملك المعظم « توران شاه »وفرغ من الصليبيين طالب السيدة بمال أبيه وتهدّدها وتهدد المماليك ، فقتلوه بعد سبعين يومًا من ملكه ، وولوا مكانه الملكة أم خليل « شجرة الدُّرّ » . ولم يل المسلمين امرأة قبلها ، فأقامت في المملكة ثلاثة أشهر وعزلت نفسها . واتفق المماليك أن يولوا « الأشرف موسى » من بيت الملك ، فملكوه وعمره ٨ سنوات ، وجعلوا «عزالدين أيبك التُّركُمانى» أحد مماليك الصالح قيّمًا عليه، وتزوج شجرة الدر ، ولم يلبث أن خلع الأشرف واستبد بالملك ، وانتهت دولة آل أيوب من مصر . وبقيت دول منهم بالشام دخلوا بعدُ في طاعة المماليك مع نوع استقلال

شجرة الدر

﴿ مزايا الدولة الأيوبية ﴾

وأسباب سقوطها

كانت الدولة الأيوبية دولة فتح وجهاد من مبدئها الى منتهاها . فؤسسها صلاح الدين وآخرها توران شاه كُللت حياتهما بالانتصار الباهر على الصليبيين ، وكان بينهما ملوك لم يقصروا عنهما فى رد غاراتهم ، فكأن هذه الدولة وُجدت لتكون عقبة فى سبيل تغلب أوربا على الشرق ، أو لتأخير ذلك أكثر من ستمائة سنة وعوده بشكل آخر ، وكأنها كانت برفقها وقلة تعصبها ووفائها استاذاً ناصحاً أرشد أخلاق الصليبيين الى حسن معاملة البشر والتظاهر بالتسامح الدينى ونبذ التعصب الوحشى الذميم ونقض العهود والغدر القبيح . ولولا وقوف الدولة الأيوبية فى وجه أوربا المسيحية (المتعصبة فى ذلك الوقت) لانقرض الاسلام من جميع بقاع الشام والجزيرة ومصر وشمالى افريقية كما انقرض من الاندلس . والفضل فى ذلك للواقعتين الفاصلتين اللتين قامت بهما هذه الدولة ، وهما واقعة حِطّين (وبطلها صلاح الدين) وواقعة المنصورة (وبطلها توران شاه) . وكان أكثر عمارات الدولة ومصانعها الضخمة هى القلاع والحصون التى منها قلعة الجبل بالقاهرة ، وأسوارها المنيعة ، ويليها أبنية المدارس للشافعية والمالكية . وأخلد عمل قامت به فوق ذلك نسخ مذهب غلاة الشيعة من مصر والشام ونشر مذهب الامام الشافعى وعلوم السنة فيها . وقد تقدمت البلاد فى عهدهم باهتمامهم بالزراعة وسهرهم على نشر العدل وتوطيد النظام

وأسباب سقوط هذه الدولة ترجع الى عدة أمور منها :

(١) تقسيم صلاح الدين المملكة العظيمة التى افتتحها بين أولاده واخوته وأقاربه ، فأوجب تنافسهم وتحاسدهم وتباغضهم وتعدّى بعضهم على بعض ، فتفككت عصبيتهم وأصبح بأسهم بينهم شديداً

(٢) العهد بالملك الى الصغار منهم ، مما أوجب اقامة أوصياء عليهم من أقوياء رؤساء الجند والوزراء

(٣) الاستكثار من اتخاذ المماليك التركية أنصاراً وأعواناً ، وتنازلهم لهم عن كل شيء في الدولة حتى تدبير القصر ، وتغاليهم في جلب هؤلاء وهجر الأكراد أصول الدولة والعرب أهل البلاد

الفصل الثامن

دولتا المماليك

٦٤٨ – ٩٢٢ هـ (١٢٥٠ – ١٥١٧ م)

(١) — دولة المماليك البحرية

٦٤٨ – ٧٨٤ هـ (١٢٥٠ – ١٣٨٢ م)

انقرضت الدولة الأيوبية بقتل « توران شاه » ، ودخلت مصر بعدها في حوزة مماليك هذه الدولة . وكان خلفاء الدولة العباسية قبلهم قد اعتادوا استخدام عدد كبير من المماليك في الجند والحرس ليحتموا بهم من قبائل العرب وبخاصة أنصار العلويين والأمويين منهم ، وليخضعوا بهم حكام الأقاليم اذا استفحل أمرهم . فأخذت قوة هؤلاء المماليك تزداد شيئاً فشيئاً حتى صاروا بالنسبة الى الخلفاء أقرب الى السجّان منهم الى الحرّاس . واقتـدى بالعباسيين نور الدين وصلاح الدين في استخدام المماليك وعُنيا بتدريبهم واعدادهم . وبقي ذلك في عهد الأيوبيين حتى ولى الملك « الصالح أيوب » ، فاشترى عدداً كثيراً من أشداء المماليك ، وبالغ في تدريبهم وأنزلهم في قلعة الروضة التي شيدها بجزيرة الروضة ، فسُموا لذلك « المماليك البحرية » ووصلوا في آخر أيام الدولة الأيوبية الى درجة عظيمة من البأس . ولما أغضبهم منشأ المماليك

توران شاه قتلوه واستولوا هم على الملك ، فبقى فى أيديهم نحو مائة وثلاثين عاماً

ايبك وعددهم ٢٤ سلطاناً أولهم السلطان عزّ الدين « أيبك » التركمانى : ولى سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) وتزوج الملكة شجرة الدرّ ، ثم سلب منها كل سلطة واضطهدها. قيل انها أمرت مماليكها بخنقه سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م)

فقتلها ابنه وتولى الملك بعده، ولُقب بالملك « المنصور » وهو صبى لا يزيد عمره على ١١ سنة ، فقام بأمر الدولة الأمير سيف الدين « قُطُز » ، فوقعت فى مدته (سنة ٦٥٦ هـ : ١٢٥٨ م) النكبة العظيمة وهى سقوط بغداد فى يد التتار وزوال الخلافة العربية . فجمع « قطز » القضاة وكبار العلماء لذلك ، فأفتوه بخلع السلطان الصبى وولوه مكانه

قطز فتولى سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) ولقب بالملك « المظفَّر » ، فجمع المماليك تحت كلمته وصاروا كلهم وقبائل العرب بمصر معه يداً واحدة على التتار الزاحفين على مصر . فالتقى بهم على عين « الجالوت » بفلسطين ، ثم لاقاهم أيضًا ببيسان فانتصر عليهم فى معركة هائلة . وكان ذلك بحسن قيادة الأمير رُكن الدين «بيبَرْس» الذى طاردهم حتى أخرجهم من دمشق وحلب وانتزع أكثر امارات الشام من أيدى بنى أيوب، فوعده « قطز » بولاية حلب، ثم أخلف وعده، فقتله بيبرس وهم عائدون الى مصر ، واختاره زملاؤه سلطاناً مكانه

بيبرس تولى السلطان الملك الظاهر رُكن الدين « بيبرس » البُنْدُقدارى (٦٥٨ – ٦٧٦ هـ : ١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) عرش مصر فكان أشهر سلاطين المماليك البحرية ، فبدأ بتنظيم أمور الدولة واصلاح الجيوش وانشاء الأساطيل . فكان بوضع أنظمته الملكية الثابتة المؤسس الحقيق لدولتى المماليك اللتين استمرتا ٢٦٧ سنة بالرغم من تشاحنهم وتنازعهم . ثم عُنى بتحصين الشام وأنشأ بريداً سريعاً بحمام الزاجل بين دمشق والقاهرة

وكان « بيبرس » يرمى الى بلوغ ما بلغه صلاح الدين والى استئصال شأفة

الصليبيين مما بقى فى أيديهم بالشام . ولكى يعزّز زعامته للاسلام دعا الى مصر أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار من بغداد ، وبايعه بالخلافة ولقّبه بالمستنصر ، ثم استمد سلطة الملك منهُ نائبًا عنهُ سنة ٦٥٩ (١٢٦١ م) . ثم ان « المستنصر » هذا ذهب لمحاربة التتار فقُتل وجاء عباسى آخر يسمى أحمد وبويع بالخلافة ولقب بالحاكم بأمر الله ، وهو جد الخلفاء العباسيين بمصر

وكان اكبر خطر يتهدد مصر فى ذلك الوقت : غارة المغول ، وكانوا قد اتخذوا « فارس » مقراً لهم . إلاّ أن منهم طائفــة تعرف بالطائفة الذهبية نزلوا على نهر « الوُلجا » (إِتِل) واعتنقوا الاسلام وصاروا من أعداء تتار فارس . فاتحد « بيبرس » معهم ومع قيصر الروم وعمل على مقاومة تتار فارس والقضاء على الصليبيين ، فحارب هؤلاء محاربة شديدة نحو عشر سنوات من ٦٥٩ الى ٦٧٠ ﻫ (١٢٦١ – ١٢٧١ م) : شتّت فيها شملهم وهدّم « يافا » و « انطاكية » حتى صارتا اطلالاً بالية سنة ٦٦٧ ﻫ (١٢٦٨ م) . ثم أخضع قبائل « الباطِنيّة » من الاسماعيلية النازلين فى الشام والمسمين عند الافرنج بالحشّاشين بعد أن كانوا آفة على ملوك مصر منذ أيام صلاح الدين . وأغار على آسيا الصغرى ، وكان التتار قد استولوا على مملكة الروم السلجوقيين ، فقهرهم وجلس على عرش « قَيْسارِيَة » * ودانت له أهلها (سنة ٦٧٦ ﻫ ١٢٧٧ م) التتار

ولم تلهه غزواته فى الشمال عن الالتفات للأقاليم الجنوبية ، فأرسل جيشًا الى بلاد النوبة سنة ٦٧٤ ﻫ (١٢٧٥ م) فأخضع أهلها وأعاد جزية العبيد بعد ان امتنعوا عنها

ومات « بيبرس » سنة ٦٧٦ ﻫ (١٢٧٧ م) وقد بلغ أقصى درجات المجد وحلّ منزلة كبيرة بين جميع من جاوره من الملوك والأمراء

وكان شجاعًا عاملاً عادلاً فى الجملة حسن السيرة ، لا يشوب سياسته إلاّ شىء

* تسمى بهذا الاسم مدينتان احداها بفلسطين والثانية هى كرسى مملكة السلجوقيين بآسيا الصغرى . وبعض المتأخرين يكتب الاخيرة (قيصرية)

من القسوة والميل الى الغدر ، ساد فى أيامه الأمن وانتشرت العلوم والمعارف . ولم تشغله الحروب وتنظيم الجيوش و بناء الأساطيل وتحصين البلاد عن اصلاح الرى والزراعة وانشاء المساجد والمدارس . ولم يغال فى فرض الضرائب مع كثرة حروبه، بل خفّضها الى أصغر حد كاف للقيام بمشروعاته العظيمة . وما زال له الذكر الحسن عند المصريين ومن المساجد التى شيّدها مسجده الكبير بالحسينية المعروف بجامع الظاهر

قلاون

وبعد وفاة « بيبرس » حدثت منازعات بشأن تولى الملك (شأن المماليك عند وفاة أحد ملوكهم) ، فخلفه ولدان احدهما بعد الآخر ، ولم تطل مدتهما . وانتهى الأمر بتولى السلطان الملك المنصور سيف الدين « قَلَاوُن » الصالحى (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ : ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) ، فبقى الملك فى بيته أكثر من مائة سنة . وبعد أن تمّ له الأمر عقد هدنة مع الصليبيين لمدة عشر سنوات على أن يُسمَح للسفن المصرية بدخول الموانى المسيحية بالشام، وأن لا يقوم الصليبيون بأى تحصين جديد فى مدنهم . ومن ذلك يُعلم مقدار ما وصلوا اليه إذ ذاك من الضعف والهوان

وقد كان عقد الهدنة مع الصليبيين من الحكمة، إذ أن التتار كانوا يتأهبون للإغارة على مصر مرة أخرى ، فخرج اليهم « قلاون » سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨٢ م) فى جيش عظيم وهزمهم فى موقعة فاصلة فى « حمص » أسكتتهم عن مصر ١٧ سنة

وقضى « قلاون » باقى أيامه فى محاربة الصليبيين بالرغم من مهادنتهم فيما سبق، واستولى على « طرابلس » عنوة سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) . ومات سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) وهو يتأهب لغزو « عكا »

وساد فى عهده العدل والسكينة . ومن مبراته الحسان انشاؤه البيمارستان الكبير بين القصرين (المسمى بمستشفى قلاون الآن بالنحاسين) وبجانبه المدرسة العظيمة والقبة التى دُفن بها (جامع قلاون) ، ووقف عليهما الأوقاف الكثيرة وشرط فى وقفه كثيراً من أنواع البر والخير مما لم يسبقهُ اليه أحد من الملوك

الاشرف خليل

ثم خلفهُ ابنهُ « الأشرف خليل » وكان شجاعاً مقداماً مظفراً فى الحروب عادلاً



(داخل جامع قلاون)

رسم الكجيان

فى الرعية قاسى القلب على من يتوهم مزاحمتهم له فى الملك ، ففتك بكثير منهم ، فكان ذلك سبباً فى اغتياله وقتله بعد ثلاث سنين . وقام باعداد الجيش الذى كان يعدّه والده لفتح « عكا » آخر مدينة حصينة بقيت بأيدى الصليبين . هنالك جمع الصليبيون فلول جيوشهم للدفاع عنها ، إلاّ أنهم اختلفوا حسب عادتهم، ففتح جند

الأشرف المدينة سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) ودمروا حصونها وفتكوا بكثير من الصليبيين . ثم سقطت باقى مدن الصليبيين فى أيديهم وانقرضت دولهم بالشام

الناصر ثم خلفهُ أخوه الملك « الناصر » محمد بن قلاون (٦٩٣ — ٧٤١ هـ : ١٢٩٣— ١٣٤١ م) ، تولى وهو صغير وخلع فى هذه المدة مرتين : الأولى سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٣م) مدة خمس سنوات ، والثانية ، سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٩م) مدة سنة واحدة وفى مدته أغار التتار مرة أخرى على الدولة سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠م) وهزموا المماليك واستولوا على « دمشق » . الاَّ أن المسلمين هزموهم فى موقعة فاصلة بالقرب من دمشق سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) وأسروا منهم ١٠,٠٠٠ نفس ، فكانت هذه رابع مرة صُدَّ التتار فيها عن الديار المصرية

وزادت فى عهده ثروة البلاد كثيراً . ومما ساعد على ذلك أنه فرض ضريبة على جميع التجارة التى تمر من مصر بنسبة ١٠٪ من ثمنها ، وكانت تجارة أوربا مع الهند تمر من هذا الطريق

وكان « الناصر » يُعنى بشؤون البلاد الداخلية ، فضبط الموازين والمقاييس ، وحدّ الأثمان فى أوقات الشدة ، وألغى كثيراً من الضرائب الضارّة بالفقراء من الرعية واستعاض عنها بزيادة الضرائب على كبار الموسرين . ثم منع شرب الخمر ، وتشدَّد فى حفظ الآداب ، وعمل على معاضدة العلم ونشر المعارف . وفى مدته بلغ فن المبانى والنقوش العربية أقصاه ، اذ اتضح ان أكثر الآثار العربية الجميلة التى فى دور تحف العالم هى من صنع هذا العصر

وقد شيَّد هو وأمراء دولته من المبانى الفخمة ما لا يدخل تحت حصر . وهو المنشئ لقناطر المياه الموصلة بين القلعة والنيل ، وان كانت قد نُسبت خطأً الى صلاح الدين . ووصل بين النيل والاسكندرية بترعة ، وأنشأ طريقًا عظيمًا بجانب النيل أفاد فائدةَ الجسور وقت الفيضان

وكان « الناصر » ضئيل الجسم ، أعرج ، أعور ، الاَّ أنه بالرغم من ذلك كان

قوى البأس ، شديد البطش ، ذا رأى سديد ، وعزيمة من حديد ، وكان عصره بفخامة ملكه وعظم مبانيه وجمال ذوقه أرق عصور الحضارة المصرية

ومات سنة ٧٤١ ﻫ (١٣٤١ م) ولم يترك خلفاً يقدر على القيام بعبء الملك ، فوقعت البلاد فى فوضى مدة ٤١ سنة تنازع الملك فيها ملك بعد ملك من أولاده

السلطان حسن — وأدومهم أثراً الى الآن ابنه السلطان حسن ، وهو بانى المدرسة العظيمة التى لم يخلف السلاطين أعظم منها بناء ولا أتقن صناعة ، وهى المشهورة الآن بجامع السلطان حسن (بجوار قلعة القاهرة)

وانتهى الأمر بانقراض هذه الدولة واستيلاء المماليك الشراكسة على الملك

﴿ فشل الحروب الصليبية ونتائجها ﴾

استولت المماليك البحرية على آخر مابقى بأيدى الصليبيين بالشام ، وبذا انتهت الحروب الصليبية بعد ان استمرت نحو قرنين ، ولم يتم للصليبيين شىء من بغيتهم مع ما أُريق فيها من الدماء وبُدّد من الأموال . ولفشلهم هذا عدة أسباب منها :

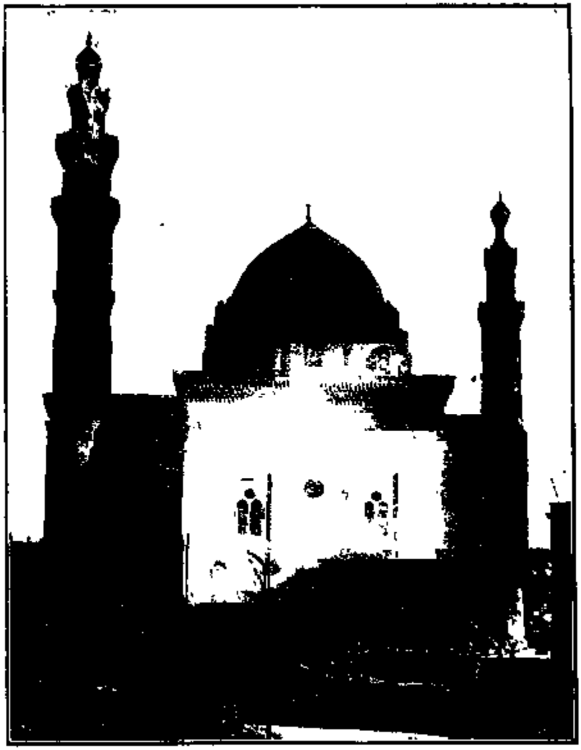
أسباب فشل الحروب الصليبية — أولاً – اختلاف ملوكهم وأمرائهم فيما بينهم وتظاهر بعضهم على بعض ، مما أدّى كثيراً الى وقوع القتال بينهم

ثانياً – وجود عدد عظيم من اللصوص والمجرمين والمتشردين بين جيوشهم ، فجرّ ذلك الى الاختلال وقلة النظام

ثالثاً – اتحاد المسلمين وائتلافهم فى اكثر أزمان الحروب الصليبية وخاصة زمن صلاح الدين وما بعده

رابعاً – حسن نظام الجيوش الإسلامية وشجاعتها

ولا شك أن الحروب الصليبية أضرّت كثيراً بالمشرق والمغرب معاً ، لما أزهقت من أرواح وأفنت من أموال ، ولما استغرقته من وقت ثمين لو صُرف فى الأعمال النافعة لعاد على العالم بالخير والبركات ، غير أنها مع كل هذا كان لها فى أوربا بعض



(جامع السلطان حسن)

رسم الكجيان

نتائج حسنة ربما كانت تتم بدونها مدى الأيام ، ولكنها تنسب الى الحروب الصليبية لظهورها عقبها

ومن أهم نتائج الحروب الصليبية للأوربيين ما يأتى :

نتائج الحروب الصليبية

أولاً — وقوف الغربيين على أحوال الشرق بعد جهلهم به وادراكهم أن به حضارة

تفوق حضارتهم ، فاتسعت أذهانهم وتولدت فيهم روح الاستطلاع والاستكشاف

ثانياً – تأدية اختلاط الغربيين بالشرقيين نحو قرنين من الزمان الى اقتباسهم شيئاً كثيراً من الحضارة الشرقية ، مما أدى الى ارتقاء العلوم والآداب والفنون والصنائع بأوربا

ثالثاً – وأنها أوجدت شيئاً من الائتلاف بين الأمم الأوربية المختلفة وأزالت ما بينهم من النفور مدة من الزمن ، وذلك لاشتراكهم فى غرض واحد وقتاً طويلاً

رابعاً – وازالتها الفرق العظيم الذى كان بين طبقات الأشراف وغيرهم باوربا ، لعملهم جميعاً كتفاً لكتف فى ميدان القتال ، وبذلك قضت على النظام الذى كان يُعرف فى أوربا بنظام « الإقطاعات »

خامساً – وانها كانت سبباً فى اتساع نطاق التجارة والملاحة بين المشرق والمغرب، وذلك أن السفن العديدة التى كانت تأتى بالصليبيين من أوربا كانت تعود اليها بالبضائع الشرقية ، فقوّت روح التجارة فى الشرقيين والغربيين معاً ، وساعدت فى نمو بعض المدن التجارية العظيمة مثل « جنوة » و « البندقية »

سادساً – (وهذه فى اعتبار الغربيين نتيجة سيئة) – وزيادتها من نفوذ البابا بأوربا . وذلك لأنه كان المحرك لملوك أوربا وأمرائها نحو قرنين من الزمان بسبب ذلك الغرض الدينى ، فقوى نفوذه حتى صار فيما بعد سبباً لمشاكل عظيمة باوربا

(ب) — دولة المماليك الشراكسة

أو « المماليك البرجية »

٧٨٤ – ٩٢٢ هـ (١٣٨٢ – ١٥١٧ م)

منشأ هؤلاء المماليك ان المنصور «قلاون» اكثر من شرائهم وجعلهم فى أبراج القلعة ، فسمّوا « البُرْجيّة » . وهم يختلفون فى الجنس عن المماليك البحرية لأن معظمهم من الشراكسة وأولئك من الترك . ولم يكن الملك فيهم وراثياً قط كما كان منشأ المماليك البرجية

فى بيت قلاون ، بل كان استيلاء كل ملك من ملوكهم على الدولة متوقفاً على شهرته الحربية ومقدرته على استجلاب مودة زملائه من الأمراء . وعدد ملوكهم ثلاثة وعشرون حكم تسعة منهم مدة ١٢٥ سنة ، وحكم فى تسع السنوات الأخرى أربعة عشر

وقد كان لكثير من ملوك هذه الدولة وأمرائها ولع بالعلوم ، واشتهروا بالتنافس فى بناء القصور الفخمة والأربطة والجوامع والمدارس والسُّبل وغير ذلك من المعاهد الخيرية . وأكثر ما نراه اليوم فى القاهرة من المبانى العظيمة من آثارهم . الاّ أنهم كانوا يميلون الى الظلم والعسف ، فأثقلوا كاهل الأمة بالضرائب ، وتسرّب الخلل فى عهدهم الى جميع فروع الحكومة ، فأصبح العدل فيها يشرى ويباع . وكثرت الثورات والفتن فى البلاد حتى ضجّ الناس من شر الجنود وعبثهم بالأمن . على أنهم بالرغم من شقاقهم فيما بينهم كانوا على الأجنبى يداً واحـدة ، فحفظوا البلاد من الغارات الأجنبية نحو قرن ونصف من الزمان :

برقوق وأشهر ملوكهم وأولهم هو الملك الظاهر سيف الدين « برْقُوق » ، خلع آخر المماليك البحرية وتولى الملك ، ثم ثار عليهِ المماليك وخلعوه وأعادوا الى الملك أحد حَفَدَة الناصر بن قلاون . فاشتغل باخماد فتنهم وجلس على كرسى الملك ثانية . ولم يفرغ من ذلك حتى تهدّد البلاد خطر إغارة التتار يقودهم قائدهم العظيم «تَيْمُورلَنْك» وكانوا قد استولوا على «بغداد» سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣ م) وخضعت لهم «الجزيرة» بأسرها سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٤ م) . فأرسلوا كتاباً الى مصر يطلبون منها التسليم اليهم فامتنع « برقوق » واتحد مع امراء شمالى الشام وسلطان العثمانيين . ثم مات برقوق سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) قبل الشروع فى الحرب ، فترك ذلك لابنه الناصر «فرَج»

ولبرقوق مبان عظيمة ومبرات جليلة ، منهـا مدرسته العظيمة بين القصرين بالنحاسين الشهيرة بجامع برقوق . أما المدفن ذوالقبتين بالجبانة الشرقية خارج القاهرة المعروف أيضاً بجامع برقوق فمن انشاء ابنه فرج

فرج وفى سنة ٨٠٣ هـ خرج السلطان فرج الى الشام لمحاربة تيمورلنك الذى خرّب

حلب وزحف على دمشق ، فوقع بين الجيشين بعض مناوشات بالقرب من دمشق كان الغلب فيها للمصريين ، فطلب تيمورلنك من السلطان الصلح فأجابه اليه . وبينما هما يتفاوضان أثار المماليك فتنة فى المعسكر ، وتسللوا منه راجعين الى مصر ، فانزعج السلطان واضطر أن يعود مع بقيتهم مسرعًا اليها ، وترك دمشق يدافع عنها أهلها ، فدخلها تيمور وفعل الفظائع بأهلها كما فعل بحلب من قبل . ثم خلع المماليك « فرجًا » سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥م) وولوا أخاه . ثم عاد للملك ، فخرج فى عدة غزوات الى الشام لتوطيد السكينة بها واخضاع الثائرين من الأمراء



(جامع برقوق بالصحراء)

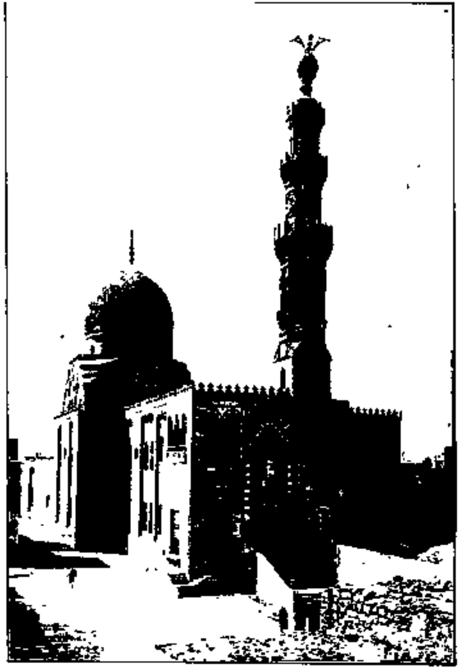
المؤيد

واستفحل أمر اثنين من هؤلاء الأمراء وهما « شيخ ونوروز » . فتغلب «شيخ» على « فرج » فى خرجته السابعة الى الشام ، ووافق الخليفة العباسى بمصر على قتله وانتهى الأمر باستيلاء « شيخ » على الملك ، فسمى « المؤيَّد شيخ » . وهو بانى الجامع المعروف بجامع المؤيد بجوار باب زُوَيلة

ثم تتابع بعده عدة ملوك ، فلم يكن لهم أثر فى حالة مصر سوى أن المماليك لم يعبثوا بهم ، فساءت حالة الناس ، واضطربت الحكومة ، وبقى الحال كذلك حتى ولى الملك « الأشرف بَرْسباى » سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م)

برسباى — حكم « بَرْسباى » نحو ١٦ سنة (٨٢٥ – ٨٤١ هـ : ١٤٢٢ – ١٤٣٨ م) فبالغ فى إثقال كاهل الأمة بالضرائب الباهظة وأنواع الاحتكار فى التجارة ، إلاَّ أنهُ لقوته وشدة بأسه لم تحدث فى البلاد فتن فى عهده . وكان لصوص البحر قد اكثروا الإغارة على مصر من جزيرة « قبرس » ، فأرسل « برسباى » أسطولاً لغزوها ، فاستولى عليها وأتى بملكها « جِمْس » أسيراً الى مصر ، وأتى كذلك بكثير من سكان الجزيرة ، فبيعوا فى أسواق القاهرة ، وبقيت «قبرس» خاضعة لمصر الى أن انتهت دولة المماليك سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) ، فكان الاستيلاء عليها من مميزات عصر « برسباى » على عهد غيره من المماليك الشراكسة . ومما امتاز به عصره أيضًا اهتمامه بالضرائب الخاصة بالتجارة وجعلها مورداً كبيراً لخزائنه . وعنى بأمر تجارة الهند حتى صارت السفن الواردة منها تفرغ بضائعها فى « جُدَّة » (وكانت تابعة لمصر) بعد أن كانت تفرغها فى « عدَن » ، فازداد بذلك مورد الحكومة . ثم احتكر تجارة كثير من المواد مثل السكر والفُلفُل والأخشاب وغيرها . وبالغ فى الكسب حتى ضجّ التجار الأجانب بمصر وهمّت حكومة « البُنْدُقيّة » باستدعاء جميع تجارها من القطر ، فخاف على تجارة البلاد من الخسارة ونظر فى مطالبهم ، وقد جمع من هذه الاحتكارات أموالاً طائلة . وحدث الطاعون بمصر فى زمنه مرتين ، فهلك كثيرون . ومات برسباى سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ م) ، واختلط عقله قبل موته فأمر بقتل طبيبه

قايتباى — ثم ولى الملك بعده ابنه ثم عدة سلاطين لم يكن لهم كبير شأن ، حتى ولى الأشرف « قا يتْباى » (٨٧٣ – ٩٠٢ هـ : ١٤٦٨ – ١٤٩٦ م) وهو أطول ملوك هذه الدولة حكماً ، كان فى أول أمره مملوكاً اشتراه « برسباى » بخمسين ديناراً ، فما زال يرقى بجده ومواهبه حتى بلغ هذا المبلغ . وكان شجاعًا قوى الجسم والروح يحبّه قوّاده ، فثبتت



جامع قايتباي
(رسم لكيجان)



داخل جامع الغوري (رسم لكيجان)

بهم قدمه . إلاّ أن حروبه الكثيرة اضطرته الى زيادة الضرائب زيادة كبيرة وإلى ابتزاز الأموال من أثرياء اليهود والنصارى

وكان أكبر شاغل له هو ازدياد قوة آل عثمان الذين صاروا بعد استيلائهم على القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) مصدر خطر لمن جاورهم من الأمم . وكثيراً ما تعدّوا على حقوق مصر بالشام ، وأهمها منعهم تجارة الرقيق من المماليك الشراكسة وغيرهم عن مصر ، فساءت العلاقة بينهم وبين المصريين ، وتفاقم الأمر بين الفريقين بعد ما أجار قايتباى أخا « بايزيد الثانى » وخصمه ، وأكرم مثواه ، فحنق بايزيد على قايتباى ، ونشبت بين الفريقين عدة حروب لم تكن لها نتيجة تذكر ، وانتهى الأمر بمهادنة الاثنين سنة ٨٩٦ هـ (١٤٩١ م)

وفى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) أصاب البلاد وباء شديد أعقبه قحط ، وقامت فتنة كبيرة بين طائفتين من المماليك ، فحزن قايتباى ومرض مرض الموت، فخلعه أرباب الدولة وبايعوا ابنه الناصر ، فمات قايتباى بعد ذلك بيوم واحد (سنة ٩٠١هـ : ١٤٩٦م)

وكان قايتباى محبًّا للعمارة : بنى ورمم كثيراً من المساجد والمدارس والحصون والطرق ، ولا يضارع عصره فى المبانى وفرة وجمالاً سوى عصر « الناصر » بن قلاون . ومن أعجب بنائه تربته التى بناها فى الصحراء وتعرف الآن بجامع قايتباى

الغورى

ثم تولى بعده عدة سلاطين كان من أشهرهم السلطان الأشرف قانصوه «الغورى» (٩٠٦ — ٩٢٢ هـ : ١٥٠١ — ١٥١٦ م) . وكان داهياً شجاعاً عالمًا محباً للعمارة ، على عسف وتجبر فيه . ومن بنائه جامع الغورى ومدرسته بالغورية

ولى الغورى الملك وعمره ٦٠ سنة، فوجد خزائن الحكومة خالية بسبب الاضطراب الذى أعقب وفاة قايتباى ، فعمل على ملئها ، فشدّد على الرعية وجمع ضرائب عشرة شهور دفعة واحدة ، حتى عظم بؤس الناس . وسادت بالرغم من ذلك السكينة بالبلاد فى أوائل عهده

البرتقال والتجارة المصرية

ولم يعكر صفوه سوى نزاع قام بينه وبين البُرْتُقال ، بشأن تجارة الهند . وذلك أن

« فاسكو دى جاما » لما كشف الطريق الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ م تحولت معظم التجارة الهندية عن طريق مصر ونقص بذلك وارد الحكومة نقصاً كبيراً . ولم يكتف البرتقال بانتقال معظم هذه التجارة الى أيديهم ، بل شرعت سفنهم بالبحر الأحمر تقبض على كل سفينة مصرية تبغى التجارة فى تلك الجهات . ووقع بين الفريقين بعض مناوشات لم تكن لها نتيجة قاطعة ، اذ شُغل المماليك بخطر آخر أكبر من ذلك وهو إغارة العثمانيين التى لم تذهب بما بقى من تجارتهم فقط بل انتهت بالقضاء على ملكهم

الفتح العثمانى

وذلك أنه فى سنة ٩١٨ ﻫ (١٥١٢م) ولى ملك آل عثمان السلطان « سليم خان الأول » ، وكان مولعاً بالحروب شديد الرغبة فى توسيع نطاق الدولة العثمانية ، فعمل على محاربة المماليك لأقل سبب ، فاتّهم « الغورى » بممالأة الفرس عليه (وهم يومئذٍ أعداؤه الأشداء) ، وبأن بلاد الغورى صارت مأوى للعصاة والفارين من وجه سليم : فأدرك «الغورى» نيأته ، وجرّد جيشاً خرج به الى الشام بالرغم من تأكيد سليم أنه لا يقصد بمصر سوءا . والتقى الجيشان بميدان «مرْج دابق » شمالى حلب سنة ٩٢٢ ﻫ (١٥١٦م) ، وكانت مدافع العثمانيين قوية ، ففتكت بجيش المماليك وانهزموا ، وفُلج « الغورى » لوقتهِ فوقع تحت سنابك الخيل ، فلم يوقف له على أثر

وملك سليم الشام بلا مقاومة وزحف على مصر ، فولى المماليك عليهم السلطان « طومان باى » فجمع من قدر عليهِ من الجنود والتقى مع سليم خان بالريدانية (العباسية الآن) ، فانهزم طومان باى ودخل سليم خان القاهرة ، وفرّ طومان باى ثم قبض عليه سليم وصلبه على باب زويلة . وبموته انقرضت دولة الشراكسة سنة ٩٢٣ ﻫ (١٥١٧م) وصارت مصر ولاية عثمانية ، وتنازل الخليفة العباسى بمصر عن الخلافة لسلاطين آل عثمان

ملخص أهم الحوادث التاريخية منذ تأسيس الدولة الاسلامية

البلاد الأجنبية	التاريخ م	التاريخ هـ	مصـــــر
مولد النبي صلى الله عليه وسلم	٥٧١		
تولية هرقل امبراطورا بالقسطنطينية	٦١٠		
	٦١٦		زحف الفرس على مصر
تأثير البعثة فى تأسيس مجد الدولة العربية			
غزوة بدر	٦٢٤	٢	
« أحد	٦٢٥	٣	
« الخندق	٦٢٧	٥	
	٦٢٨	٦	خروج الفرس من مصر ورجوع الرومان اليها
أرسل النبي كتبه الى الملوك والامراء	٦٢٩	٧	
فتح مكة	٦٣٠	٨	
غزوة تبوك	٦٣١	٩	
حجة الوداع	٦٣٢	١٠	
وفاة النبي صلى الله عليه وسلم	٦٣٢	١١	
عصر الفتوح العربية			
خلافة أبي بكر — ابتداء فتح فارس والشام	٦٣٢ — ٦٣٤	١١ — ١٣	
خلافة عمر — اتساع عظيم فى الدولة الاسلامية :	٦٣٤ — ٦٤٤	١٣ — ٢٣	
فتح فارس	٦٣٣ — ٦٤٢	١٢ — ٢١	وصول عمرو بن العاص الى الفرما : ١٨ هـ (٦٣٩ م)
فتح الشام	٦٣٣ — ٦٣٨	١٢ — ١٧	دخول الاسكندرية ومصر فى قبضة العرب . المحرم سنة ٢١ هـ (٦٤١ م)
فتح مصر	٦٣٩ — ٦٤١	١٨ — ٢١	
	٦٤١ — ٨٦٨	٢١ — ٢٥٤	مصر وهى ولاية اسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين وبنى أمية وصدر بنى العباس (٢٢٧ سنة)

مصــــر	التاريخ هـ	التاريخ م	البلاد الأجنبية
(١) فى عهد الخلفاء الراشدين ولاية عمرو بن العاص — انشاء مدينة الفسطاط — تنظيم الادارة ورسم الخطة فى جباية الخراج — انشاء الاحواض والقناطر والجسور — كرى خليج أمير المؤمنين — اخضاع بلاد النوبة	٢١ — ٤١	٦٤١ — ٦٦١	
ولاية عبد الله ابن أبى السرح — صد غارة للروم عن الاسكندرية — فتح برقة وافريقية وغزو بلاد النوبة — كسر الروم بحراً بالاسكندرية — تشدد فى الخراج فكرهه الناس وطردوه	٢٤ — ٣٥	٦٤٤ — ٦٥٥	خلافة عثمان — مواصلة الفتوح العربية : فتح بلاد التركستان وبرقة وطرابلس الغرب والنوبة وجزيرة قبرص
	٣٥ — ٤٠	٦٥٥ — ٦٦٠	خلافة على — وقوف الفتوح — اضطرام نار الفتن بسبب قتل عثمان والنزاع بين على ومعاوية بشأن الخلافة
(٢) فى عهد الدولة الاموية	٤١ — ١٣٢	٦٦١ — ٧٥٠	دولة بنى أمية ومقرها دمشق أهم خلفائها : معاوية (محاولة الاستيلاء على القسطنطينية وفتح بعض بلاد التركستان وافغانستان وشمالى الهند والجزائر ومراكش ورودس) — عبد الملك بن مروان — الوليد بن عبد الملك (وصول الفتوح الى سمرقند ونهر السند وتثبيت ملك العرب ببلاد البربر الى المحيط — فتح الاندلس — كثرة المعارات) — سليمان بن عبد الملك (ابتداء التقهقر — صد الجيوش الاسلامية فى موقعة تور)
عودة عمرو بن العاص الى ولاية مصر — مواصلة فتح افريقية والمغرب الاقصى	٣٨ — ٤٤	٦٥٨ — ٦٦٣	
ولاية عبد العزيز بن مروان (٢١ سنة) —	٦٦ — ٨٦	٦٨٥ — ٧٠٥	

مصـــــر	التاريخ هـ	م	البلاد الأجنبية
حلوان قاعدة ثانية للديار المصرية			
ولاية عبد الله بن عبد الملك — نسخ دواوين مصر بالعربية بدل القبطية	٨٦ — ٩٠	٧٠٥ — ٧٠٩	
	١٣٢ — ٦٥٦	٧٥٠ — ١٢٥٨	الدولة العباسية أهم خلفائها : السفاح (مؤسس الدولة — اتخذ مدينة الانبار داراً للخلافة) — المنصور (أعظم خلفاء العباسيين — بنى بغداد واتخذها مقراً للخلافة — أول عصور وضع العلوم الاسلامية العربية) — الرشيد والمأمون (أزهى عصور الحضارة الاسلامية بالمشرق)
(٣) فى عهد الدولة العباسية	١٣٢ — ٢٥٤	٧٥٠ — ٨٦٨	
ولاية صالح وأبى عون من قبل السفاح — بناء مدينة العسكر — انتقال مصر الى يد العباسيين بدون صعوبة كبيرة			
كثرة الفتن والقلاقل فى مصر فى عهد العباسيين بقيام العرب تارة والقبط أخرى والاثنين أحياناً — أنزل عبد الله بن الحبحاب قبيلة من عرب قيس بالحوف الشرق ليساعدوا على انتشار الاسلام بمصر			
ابن ممدود أول وال من الاتراك	١٦٣	٧٧٩	
نزول طائفة من الاندلس بالاسكندرية وانضمامهم الى العرب الخارجين	١٩٩	٨١٥	
قدوم عبد الله بن طاهر واخراجهم من الاسكندرية	٢١١	٨٢٦	
خروج أهل الحوف والقبط خروجاً عاماً	٢١٦	٨٣١	
قدوم المأمون واخماد الثورة وابتداء الطور الحقيق لانتشار الاسلام بمصر	٢١٧	٨٣٢	
عنبسة آخر وال عربى	٢٣٨ — ٢٤٢	٨٥٢ — ٨٥٦	
تنصيب أحمد بن طولون والياً على الفسطاط	٢٥٤	٨٦٨	
الدولة الطولونية — عصر هدو وسكينة	٢٥٤ — ٢٩٣	٨٦٨ — ٩٠٥	
تنصيب احمد بن طولون والياً على جميع مصر — بناء مدينة	٢٥٧	٨٧٠	

مصـــــــــر	التاريخ هـ	م	البلاد الأجنبية
القطائع وجامع ابن طولون			
منع ارسال الخراج الى الموفق أخي الخليفة	٢٦٤	٨٧٨	
اخضاع معظم بلاد الشام	٢٦٤	٨٧٨	
حذف اسم الموفق من الخطبة	٢٦٩	٨٨٣	
وفاة ابن طولون	٢٧٠	٨٨٤	
تولية خمارويه (أكثر من الانفاق في تشييد العمارات والبساتين)			
اغارة أميري الموصل والانبار على الشام	٢٧١	٨٨٥	
تودي بخمارويه حاكماً على الموصل والجزيرة			
	٢٧٨	٨٩١	وفاة الموفق وبعده الخليفة المعتضد (٢٧٩ هـ)
تحسن العلائق بين مصر وبغداد وتزويج خمارويه ابنته قطر الندى للخليفة المعتضد			
قتل خمارويه	٢٨٢	٨٩٦	
اضمحلال الدولة الطولونية			
انقراضها	٢٩٣	٩٠٥	
مصر ولاية عباسية مرة أخرى — عصر فوضى	٢٩٣ — ٣٢٤	٩٠٥ — ٩٣٥	
الدولة الاخشيدية (٣٤ سنة) — ارجاع السكينة الى مصر	٣٢٤ — ٣٥٨	٩٣٥ — ٩٦٩	
تولى الاخشيد والياً على مصر	٣٢٣	٩٣٥	
استقلاله بالملك	٣٢٨	٩٤٠	
قلده الخليفة حكم الحرمين	٣٣٢	٩٤٣	
وفاة الاخشيد	٣٣٤	٩٤٦	
تولى ابنه أبي القاسم أونوجور ملكاً وجعل كافور قيماً عليه لصغر سنه	٣٣٥	٩٤٦	
وفاة أونوجور			
تولى كافور وتقليد الخليفة له ولاية مصر والشام والحجاز	٣٥٥	٩٦٥	
قدوم جوهر الصقلي وانتزاعه مصر من الدولة الاخشيدية	٣٥٨	٩٦٩	
	٢٨٠	٨٩٣	ذهاب أبي عبد الله الشيعي الى بلاد البربر
	٢٩٧	٩١٠	تودي بعبيد الله خليفة فاطميا بالمغرب
	٣٤١	٩٥٣	تولية المعز الخلافة
	٣٥٨	٩٦٩	استيلاء جوهر قائد المعز على مصر

مصـــــــر	التاريخ هـ	التاريخ م	البلاد الأجنبية
الدولة الفاطمية — مدة حكمها ٢٠٢ سنة ومقرها القاهرة	٣٥٨ — ٥٦٧	٩٦٩-١١٧١	
(١) المعز — ٣٥٨ — ٣٦٥ هـ (٩٦٩ — ٩٧٥ م) بناء القاهرة — دانت له مكة والمدينة — تقدم البلاد على عهده — بناء الازهر ٣٦٠هـ(٩٧٠م)			
(٢) العزيز — ٣٦٥ – ٣٨٦هـ (٩٧٥ – ٩٩٦م) البلاد فى هدو وتقدم — اقامة كثير من المبانى وحفر الترع وانشاء الجسور — بدأ جامع الحاكم			
(٣) الحاكم — ٣٨٦ — ٤١١هـ (٩٩٦ – ١٠٢١م) عصر اضطراب بسبب طيش الحاكم وتناقض أعماله			
(٤) الظاهر ٤١١ — ٤٢٧هـ (١٠٢١ — ١٠٣٦م) لم يقدر على اصلاح ما أفسده والده وأخذ خلفاء الفواطم فى الاضمحلال — تحول السلطة الى الوزراء — أقصى ما بلغت اليه أملاك الفواطم فى الشام			
(٥) المستنصر — ٦٠ سنة من ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ (١٠٣٦ — ١٠٩٤م) — عهد تدهور سريع — كثرة المشاحنات بين الوزراء — خروج الولايات السورية وانقسامها الى عدة ولايات — وفرة الثروة بمصر			
عهد الوزير «اليازورى» — استقرت البلاد نحو ٨ سنوات	٤٤٢ — ٤٥٠	١٠٥٠-١٠٥٨	
استبداد الوزير ناصر الدولة — قحط عظيم مدة ٧ سنوات	٤٥٧ — ٤٦٥	١٠٦٥-١٠٧٢	
بدر الجمالى وبناء الثلاثة الأبواب العظام — رجوع الهدو والسكينة	٤٦٧ — ٤٨٧	١٠٧٤-١٠٩٤	
	٤٦٩	١٠٧٦	استيلاء الاتراك السلجوقين على الشام
(٦) المستعلى — ٤٨٧ — ٤٩٥ هـ (١٠٩٤ — ١١٠١ م)			
وزارة الأفضل	٤٨٧ — ٥١٥	١٠٩٤-١١٢١	
	٤٨٩	١٠٩٦	خروج الصليبين من أوربا
	٤٩٠ — ٤٩١	١٠٩٧-١٠٩٨	استيلاؤهم على الرها وانطاكية
	٤٩١	١٠٩٩	استيلاؤهم على بيت المقدس
(٧) الآمر—٤٩٥—٥٢٤ هـ (١١٠١—١١٣١ م)			
	٥٢١	١١٢٧	تولى زنكى حاكماً للموصل
(٨) الحافظ - ٥٢٤—٥٤٤ هـ (١١٣١—١١٤٩ م)			

مصـــــــر	التاريخ هـ	م	البلاد الأجنبية
أول وزير لقب نفسه بلقب « ملك »			
	٥٣٢	١١٣٧	مولد صلاح الدين الايوبى بمدينة تكريت
	٥٣٤	١١٣٩	استيلاء زنكى على بعلبك وتعيينه ايوبا حاكماً عليها
	٥٣٩	١١٤٤	استيلاء زنكى على الرها
	٥٤١	١١٤٦	وفاة زنكى وتولى نور الدين حكم حلب
	٥٤٣	١١٤٨	فشل الحرب الصليبية الثانية أمام دمشق
(٩) الظافر - ٥٤٤ - ٥٤٩ هـ (١١٤٩ - ١١٥٤)			
	٥٤٨	١١٥٣	سقوط عسقلان فى يد الصليبيين
	٥٤٩	١١٥٤	استيلاء نور الدين على دمشق وتعيين شيركوه حاكما على حمص
(١٠) الفائز — ٥٤٩ — ٥٥٥ هـ (١١٥٤ — ١١٦٠ م) — وزارة الملك الصالح طلائع ابن رزيك			
(١١) العاضد - ٥٥٥ - ٥٦٧ هـ (١١٦٠ - ١١٧١م)			
النزاع بين ضرغام وشاور	٥٥٨	١١٦٣	
هزم « مرى » ضرغاما ثم تحالفا	٥٥٨	١١٦٣	
دخول شيركوه مصر لاول مرة — قتل ضرغام	٥٥٩	١١٦٤	
دخوله ثانى مرة ودخول مرى أيضاً ثم جلاء الجيوش السورية ومعظم جيوش مرى	٥٦٣	١١٦٧	
رجوع مرى لغزو البلاد — احراق شاور مدينة الفسطاط كى لا تأوى الصليبيين	٥٦٤	١١٦٨	
وصول شيركوه الى مصر لثالث مرة ورجوع مرى الى الشام — تعيين شيركوه وزيراً	٥٦٥	١١٦٩	
وفاة شيركوه وتعيين صلاح الدين وزيراً	٥٦٥	١١٦٩	
النداء للخليفة العباسى قبيل وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين	٥٦٧	١١٧١	
الدولة الايوبية — مدة حكمها ٧٩ سنة ومقرها القاهرة	٥٦٧ — ٦٤٨	١١٧١—١٢٥٠	
(١) صلاح الدين مؤسس الدولة :			
تولى وزارة مصر	٥٦٥	١١٦٩	

مصـــــــر	التاريخ هـ	م	البلاد الأجنبية
خلع الخليفة الفاطمى والنداء للخليفة العباسى	٥٦٧	١١٧١	
(أ) تحصينه لمصر وتأييد ملكه فيها — بدء بناء سور حول القاهرة وضواحيها وانشاء قلعة الجبل — ارسال جيوش الى بلاد العرب وسواحل افريقية والسودان			
وفاة نور الدين	٥٧٠	١١٧٤	
خلا لصلاح الدين الجو وعمل على بسط نفوذه على جميع الممالك الاسلامية			
(ب) توسيع نطاق دولته			
اخضاع الشام الاسلامية	٥٧١ — ٥٧٢	١١٧٥-١١٧٦	
تنظيم أملاكه ومواصلة تحصين القاهرة	٥٧٣ — ٥٧٨	١١٧٧-١١٨٢	
انشاء المدارس لنشر مذهب الامام الشافعى ومحو مذهب الشيعة من مصر			
ثم بسط نفوذه على معظم ممالك الاسلام ووحد كلمتهم	٥٨٢	١١٨٦	
(ج) صلاح الدين والصليبيون			
حروبه العظيمة بالشام : ٥ سنوات	٥٨٣ — ٥٨٨	١١٨٧-١١٩٢	
موقعة حطين الفاصلة وفتح عسقلان وبيت المقدس	٥٨٣	١١٨٧	
فتح انطاكية ومدن الساحل شمالى صور	٥٨٤	١١٨٨	
سقوط عكا فى يد الصليبيين ومعهم ريكارد قلب الاسد ملك الانجليز	٥٨٧	١١٩١	
عقد صلح بالرملة بين صلاح الدين وريكارد قلب الاسد وبه صار المسلمون يملكون جميع الشام ما عدا ساحل ضيق بين صور ويافا	٥٨٨	١١٩٢	
وفاة صلاح الدين بدمشق	٥٨٩	١١٩٣	
(٢) الدولة الايوبية بعد صلاح الدين — تقسيم الدولة العظيمة الى عدة أقسام (أهمها مصر) — وقوع نزاع بين أولاد صلاح الدين			
العادل أخو صلاح الدين تولى على الملك بمهارته ودانت له معظم دولة صلاح الدين	٥٩٦	١٢٠٠	

مصر	التاريخ هـ	التاريخ م	البلاد الأجنبية
	٥٩٣	١١٩٧	جاءت للصليبيين أمداد جديدة وأرادوا انتهاز فرصة انقسام الدولة بعد وفاة صلاح الدين للاستيلاء على بيت المقدس ولكن العادل عقد معهم صلحا وتنازل لهم عن بعض الجهات
وقوع قحط ووباء عظيمين أضعفا البلاد	٥٩٧ — ٥٩٩	١٢٠١-١٢٠٢	
العادل لم يفتر عن توحيد كلمة المسلمين			
بدأ الصليبيون تحويل رحى القتال الى مصر وملكوا دمياط	٦١٥	١٢١٨	نهضة جديدة للصليبيين
الكامل (٦١٥ — ٦٣٥هـ : ١٢١٨ — ١٢٣٨ م)			
طرد الصليبيين من دمياط وأجلاهم عن مصر	٦١٨	١٢٢١	
الملك الصالح (٦٣٧ - ٦٤٧هـ : ١٢٤٠ - ١٢٤٩م)			
أكثر من شراء المماليك وأنزلهم بجزيرة الروضة			
رجوع بيت المقدس للمسلمين نهائيا	٦٤٢	١٢٤٤	
رجوع دمشق وعسقلان			
نزول الصليبيين دمياط واستيلاؤهم عليها	٦٤٧	١٢٤٩	
توران شاه : واصل قتالهم بعد وفاة والده — كسرهم كسرة شنيعة بالمنصورة وأسر ملكهم لويس التاسع	٦٤٨	١٢٥٠	
قتل المماليك توران شاه وانقراض الدولة الايوبية	٦٤٨	١٢٥٠	
المماليك بمصر - ٢٦٧ سنة	٦٤٨ — ٩٢٣	١٢٥٠-١٥١٧	
عصر كثير الفتن والثورات واشتد فيه الظلم فى الغالب — أنشىء فيه بالرغم من ذلك كثير من المساجد والآثار	٦٥٦	١٢٥٨	سقوط بغداد فى يد التتار
دولة المماليك البحرية — حكمها ١٣٢ سنة ومقرها بالقاهرة	٦٤٨ — ٧٨٤	١٢٥٠-١٣٨٢	
بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦هـ : ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م)			
قهر التتار (وكان أحد قواد قطز) وطاردهم حتى أخرجهم من دمشق — قتل قطز واختير مكانه — المؤسس الحقيق لدولة المماليك			
حارب الصليبيين محاربة شديدة مدة ١٠ سنوات	٦٥٩ — ٦٧٠	١٢٦١-١٢٧١	
شتت شمل الصليبيين وهدم يافا وانطاكية (٦٦٧ هـ : ١٢٦٨ م)			
انتزع مملكة الروم السلجوقية من يد التتار ودان له أهلها	٦٧٦	١٢٧٧	

مصـــــــر	التاريخ هـ	التاريخ م	البلاد الأجنبية
من آثاره مسجد الظاهر بالحسينية			
قلاون (٦٧٨ — ٦٨٩ هـ : ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م)			
تولى الملك بعد نزاع فبقى فى بيته أكثر من ١٠٠ سنة — هادن الصليبيين ١٠ سنوات			
هزم التتار فى موقعة فاصلة بحمص وكانوا يتأهبون للاغارة على مصر	٦٨٠	١٢٨٢	
حارب الصليبيين بالرغم من المهادنة			
استولى على طرابلس	٦٨٨	١٢٨٩	
ومن آثاره مستشفى قلاون وبجانبه مدرسته بالنحاسين			
الاشرف خليل — كان قاسياً سيء السيرة — استولى على عكا آخر مدينة حصينة بالشام بقيت بأيدى الصليبيين	٦٩١	١٢٩٢	انتهاء الحروب الصليبية وانقراض دولة الصليبيين بالشام
الناصر (٦٩٣ — ٧٤٢ هـ : ١٢٩٣ — ١٣٤١ م)			
أزهى عصور الحضارة الاسلامية بمصر			
هزم التتار المماليك واستولوا على دمشق	٦٩٩	١٣٠٠	
لكنهم هزموا هزيمة شنيعة وصدوا لرابع مرة عن مصر	٧٠٢	١٣٠٣	
زادت فى عهد الناصر ثروة البلاد — اهتم بالشؤون الداخلية مثل الموازين والمقاييس الخ — وفى عهده بلغ فن المبانى والنقوش العربية أقصاه — أكثر الآثار العربية التى بدور تحف العالم من صنع هذا العصر — من آثاره قناطر المياه الموصلة بين النيل والقلعة			
السلطان حسن — من أولاد الناصر — شيد جامع السلطان حسن بجوار القلعة			
دولة المماليك الشراكسة أو البرجية — مدة حكمها ١٣٥ سنة ومقرها القاهرة — زادت الفتن عن عهد الدولة السالفة	٧٨٤ — ٩٢٢	١٣٨٢-١٥١٧	
برقوق : مؤسس دولة المماليك الشراكسة	٧٨٤ — ٨٠١	١٣٨٢-١٣٩٩	
	٧٩٥	١٣٩٣	استيلاء تيمورلنك على بغداد
	٧٩٦	١٣٩٤	خضوع الجزيرة بأسرها له
أرسل التتار كتابا يطلبون من مصر التسليم فأبى برقوق	٨٠١	١٣٩٩	
وشرع فى اعداد جيش لمحاربتهم — وفاته	٨٠١	١٣٩٩	
ومن آثاره مدرسته بالنحاسين			
فرج : خرج لمحاربة التتار	٨٠٣	١٤٠١	

مصـــــــر	التاريخ هـ	م	البلاد الأجنبية
ومن آثاره المدفن ذو القبتين بالجبانة الشرقية المعروف بجامع برقوق			
<u>برسباى</u> : (٨٢٥ — ٨٤١ هـ : ١٤٢٢ — ١٤٣٨ م)			
تشدد فى سن الضرائب واحتكار التجارة			
استولى على جزيرة قبرس وأتى بملكها أسيراً الى مصر			
اهتمامه بضرائب التجارة الهندية	٨٥٧	١٤٥٣	استيلاء الترك العثمانيين على القسطنطينية
<u>قايتباى</u> (٨٧٢ — ٩٠٢ هـ : ١٤٦٨ — ١٤٩٦ م)			
أطول حكم فى ملوك هذه الدولة — زاد الضرائب لكثرة حروبه — أكبر شاغل له ازدياد قوة آل عثمان — نشبت حروب بينه وبين بايزيد انتهت بمهادنة الاثنين	٨٩٦	١٤٩١	
وباء شديد اعقبه قحط	٨٩٧	١٤٩٢	
ومن آثاره تربته فى الصحراء وتعرف بجامع قايتباى			
	٩٠٣	١٤٩٧	كشف فاسكو دى جاما طريق الهند
<u>الغورى</u> : ٩٠٦ — ٩٢٢ هـ (١٥٠١ — ١٥١٦ م)			
وجد خزائن الحكومة خالية فتشدد فى جمع الخراج — قل وارد الحكومة من تجارة الهند — مشاحنات مع البرتغال	٩١٨	١٥١٢	تولى السلطان سليم الاول عرش آل عثمان
اتهم السلطان سليم الغورى بممالأة اعدائه ونوى الاستيلاء على مصر — خرج الغورى لمحاربته فالتقى الجيشان بمرج دابق شمالى حلب فقتل الغورى وهزم جيشه	٩٢٢	١٥١٦	
ملك السلطان سليم الشام بلا مقاومة وزحف على مصر			
انهزام طومان باى بالريدانية واستيلاء سليم على مصر	٩٢٣	١٥١٧	

*